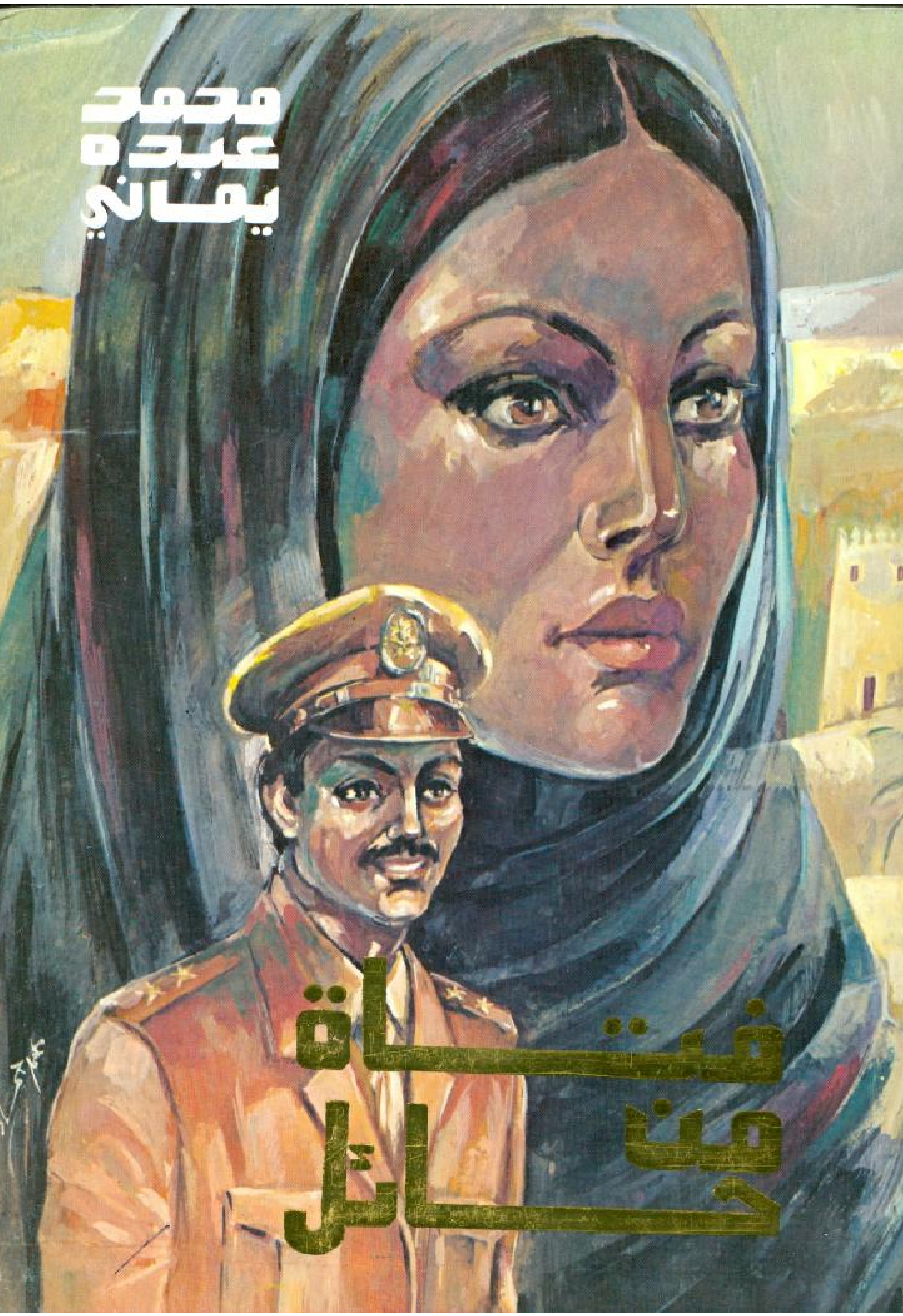

محمد
عبده
يماني
فتاة
من
حائل

محمد عبده يماني

فتاة من حائل

الطبعة الاولى

١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

رواية سعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

فتاة من حائل . . .

فكرة قديمة ظلت تراودني . . في ملامح مبهمة ، ومعالم غامضة — نوعا ما — اخذت تتضح في مخيلتي شيئاً فشيئاً ، إلى أن هيأ الله تعالى لي الفرصة المناسبة ، لاسطرها على الورق خلال مدة زادت عن السنتين . واحسب ان عامل الزمن كان اساسياً في تأخر اتمامها على النحو الذي جاءت عليه ، ذلك انني قد اوضحت في مقدمة مجموعتي القصصية الأولى التي صدرت تحت عنوان « اليد السفلى » انني لست من الكتاب المحترفين ولا من ممارسي هذا النوع من الكتابة بصورة دائمة ومنتظمة ، وإنما هو متنفس اهرب إليه كلما احكمت ظروف العمل طوقها حولي ، أو عمدت إلى تضييق الخناق عليّ . . فكتابة القصة — بالنسبة لي — أقرب ما تكون إلى رياضة استعيد بها نشاطي وحيويتي . .

ولقد كانت مهمتي في هذه القصة متممة لما سبق أن بدأته من محاولة لاعادة تشكيل ملامح واقعية عرفتها أو عايشتها ، أو اطلعت عليها بشكل أو بآخر ، وهي أيضاً جهد يهدف إلى رسم بعض صور المجتمع السعودي بوجه خاص ، في محاولة لسد جانب – ولو يسير – من الفراغ الذي نلاحظه في هذا اللون من العطاء الفكري في بلادنا . .

كنت – إذن – حريصاً على رسم وتسجيل بعض الصور الغنية النابضة بالحياة لمجتمعنا ، لا سيما وان بعضها آخذ في الاندثار مع هذا التطور السريع الذي اصبح يلتهم الكثير منها ، أو يؤدي إلى اضمحلالها ، لتخلفها صور اخرى عصرية ربما . . وجميلة ربما . . وضخمة ربما . . ولكنها – على أية حال – تختلف عن تلك الصور الاصلية التي يحلو للبعض تسميتها بـ « التقليدية » . . وهي صور عاشها اجدادنا وآباؤنا . . وعشناها نحن في حواري مدننا وازقتها . .

كذلك ضمنت هذه القصة لمحات من صور حياتنا في جامعة الرياض ، أيام بدأت خطواتها الأولى ، بذلك الرهط من المدرسين والعلماء . . وذلك النفر اليسير من الطلاب . . وهي صور « واقعية » بكل ما في الكلمة من معنى ولعب « الخيال » دوراً فيما يتعلق بمدينة حائل ، ذلك انني – إلى حين اتمام القصة – لم اكن قد سعدت بزيارتها ، والتعرف إلى معالمها . .

★ ★ ★

واعترف ، هنا ، بأنني عندما شرعت في تسطير هذا العمل – فتاة من

حائل – لم يكن في ذهني قالب فني معين افرغها فيه . . فما هدفت إلى كتابة « رواية » . . ولا توقعت أن أكتب « قصة قصيرة » . . وإنما كانت هناك صور معينة اريد أن اعرضها بتفاصيلها واحداثها . . وكان هناك واقع اريد أن اجسده واترجمه ففعلت ، فلقد عاش اشخاص القصة في خيالي مدة غير قصيرة ، وبخاصة « هيا » و « هشام » ، وكنت احس بارتباط عجيب مع هذه الشخصيات ، فاذا بالاحداث والأفكار تتداعى إلى ذهني تباعا لأسطرها دون أن اقيد نفسي بقالب فني معين ولا بمستلزمات اسلوب ادبي بالتحديد فاذا بالصفحات تتكاثر وتتضاعف كلما توغلت في عرض الاحداث ، وإذا بي ، في النهاية ، امام « قصة طويلة » – إذا اردت – أو « رواية » – إذا شئت – حاولت ان اقول فيها ما اردت أن اقوله ، والعمل الفني – كما سبق ان اتفقنا – كلمة يريد صاحبها أن يقولها . . ولست ادري إلى اي مدى وفقت فيما قصدت إليه . .

والآن اصبح هذا العمل الفني بين يديك – أيها القارىء الكريم – تحكم عليه حكمك ، وترى فيه رأيك ، وتصنفه في القالب الذي تعتقد انه اكثر ملاءمة له . .

وحسبي ، من جهتي ، انني قد قلت ما اردت ان اقوله ، وبات – بفضل الله – بين دفتي هذا الكتاب ، فللقارىء الكريم اعتذاري ان كان التوفيق قد جانبني . . ولله تعالى الحمد والشكر على ما امدني من عونه . . وهو المستعان في جميع الأحوال . . .

محمد عبده يماني

فتاة من حائل

١

هبط هشام من سيارة الاجرة أمام مبنى الجامعة ، وتوجه مسرعاً إلى مكتب المسجل وقد بدت عليه معالم اللهفة ، فقد ادى امتحان البكالوريوس في الهندسة وجاء اليوم لمعرفة النتيجة .

وما ان دخل مكتب المسجل حتى وجد بعض زملائه ينتظرون وقد بدت على وجوههم ـ مثله ـ معالم اللهفة والقلق ، وفي الوقت الذي سمح فيه لطلاب البكالوريوس بمقابلة المسجل ، كانت مجموعات من طلبة السنوات الاخرى تنتظر في القاعة الرئيسية .

وراح مهندسو المستقبل يتبادلون الاحاديث والتعليقات حول مواد الامتحان وابدى أكثرهم تخوفه من نتائج مادة القوى ، لان الاسئلة جاءت على غير ما كان متوقعاً ، بينما كان هشام يقف مطرقا مما استرعى انتباه زميله عبد العزيز الذي اقترب منه متسائلا عما إذا كان سبب ذلك الوجوم هو تفكيره

في موضوع التقديرات وتأثيرها على إمكان عمله في الكلية كمعيد ، فرفع هشام رأسه وقال بابتسامة مغتصبة :

– لا اكتمك أن هذا الموضوع يشغل جانباً من تفكيري ، ولكنني لا اعتقد أن بالامكان حصولي على تقدير عال يؤهلني للعمل كمعيد ، خصوصاً وان هناك صالح وعلاء واحمد وناجي وعبد السلام الذين لن تقل تقديراتهم عن الامتياز بينما لا توجد سوى ثلاث وظائف للمعيدين . .

وتنهد هشام وهو يختم حديثه قائلاً وكأنه يحدث نفسه :

– إنني سوف اعد نفسي للعمل في إحدى الوزارات ، واتمنى أن أكون بجوار الوالد والوالدة في مكة .

وتدخل زميلهما عمر المعروف بخفة روحه وحبه للمزاح والذي كان يصغي إلى الحديث فقال ضاحكاً :

– أنت على حق يا أخ هشام ، واعتقد أن عليهم أن يبحثوا لك عن عمل ليس في مكة ، يعمرها الله ، وإنما في حارتكم « جياد » إذا أمكن ، أو ربما بجوار المنزل في جبل « السبع بنات » ومن يدري فلعلهم يجدون لك عملا تحت روشان الوالد . .

واردف عمر قائلاً بجدية :

– يا أخي حرام عليك . . يا ناس حرام عليكم . . كلها بلدنا . . وإذا كان تفكير كل منا هو أن يبقى بجوار أهله فمن ، بالله عليكم ، سوف يعمر البلاد وينهض بها ؟ . .

وابتسم هشام رغما عنه ، وقال مجيباً زميله :

ـ انك تبالغ كثيراً يا عمر . . واري أن تعمير البلاد لا يتعارض مع رغباتنا . . إن مكة بحاجة إلى كثير من المهندسين ، وإذا لم أذهب أنا فقد يحضرون مهندساً أجنبياً ، وفي هذه الحالة فأنا أولى بالبقاء في مكة . .

ورد عمر بنفس الجدية :

ـ هذا صحيح بوجه عام . . ولكن الا توافقني على أننا إذا تكدسنا جميعاً في المدن بجوار أهلنا وذوينا اضعنا فرصة كبيرة للتعرف على مناطق بلادنا المترامية الأطراف ، فضلا عن أن عملنا خارج المدن هو أكثر فعالية من عمل الأجانب فيها ؟ . .

وختم هشام مناقشته مع عمر قائلاً :

ـ أنت فيلسوف دائماً . .

وفتح عمر فمه وهو يهم بالرد ، لولا أن قطع الحديث زميلهم تركي الذي اقترب منهم بجسمه المكتنز بالشحم وقال :

ـ يا جماعة لا تذهبوا ببركة النتيجة . . نقول ياالله السلامة بالنجاح وانتم تفكرون في عالم الغيب .وحدوا الله وصلوا على النبي . . عسانا ننجح عسانا . . ومن جهتي فأنا لاأطمع في أكثر من مقبول .. اتدرون لماذا ؟ .. لأن الوالدة تدعو لي عندما اخرج كل صباح قائلة ربنا يجعلك من المقبولين . . ولهذا فلا اتوقع أن احصل على أكثر من مقبول . .

وراح زملاؤه يضحكون رغم ما كانوا فيه من قلق ، ثم قطع عليهم ضحكهم صوت المسجل وهو يتجه نحو القاعة حاملا أوراق النتيجة ،

فازدحم الطلبة حوله وراحوا يتابعون حركته بلهفة شديدة وهو يثبت الأوراق على لوحة الاعلانات ، وجرى هشام بعينيه بسرعة على الأوراق باحثا عن اسمه ثم لم يلبث أن شعر بخيبة أمل . .

لقد نجح بتقدير جيد وكان يتوقع النجاح بتقدير جيد جداً ، فوقف برهة يحدق في اللوحة ثم استدار على عقبيه منصرفاً ، بينما كان زملاؤه يتزاحمون أمام أوراق النتيجة ثم لا يلبثون أن يغادروا القاعة وقد عبرت وجوههم عن النتائج التي حصل عليها كل منهم . . .

٢

دخل هشام غرفته في السكن الجامعي متثاقلاً ، وارتمى بجسده على السرير وراح يحدق في السقف وهو مستغرق في التفكير . . ولم يلبث أن قطع عليه تفكيره صوت تركي وهو يثير ضجة كبيرة يعبر بها عن فرحته بالنجاح ، رغم أنه لم يحصل على غير درجة مقبول . . . ولم يفاجأ هشام بفرحة تركي بدرجته ، فقد سبق له أن اعلن توقعه لها ، ولكن الدهشة بدت على وجه تركي وهو يري معالم الاستياء وخيبة الأمل مرتسمة بوضوح على وجه هشام ، ولذا بادره قائلا :

– يا أخي احمد الله . . يا أخي بالشكر تدوم النعم . . ما هذا يا هشام ؟ . . لقد كنت تتمنى الالتحاق بكلية الهندسة بأي ثمن يوم لم توفق في الحصول على درجات عالية في امتحان القبول ، وها قد من الله عليك اليوم بالنجاح بدرجة جيد فاحمد الله . . احمد الله يا أخي . .

– أنا أحمد الله واشكره . . ولكنني كنت ، في الحقيقة ، اتمنى أن أحصل على « جيد جداً » . . .

– ها . . . تتمنى . . إذن فانت تعترف بانك لم تفاجأ بالنتيجة . .

ـ أرجوك يا تركي . . لا تزدني على همي هما . . اجلس وسأعد الشاهي لنا فاني في امس الحاجة إلى كوب منه الآن . .

وجلس الاثنان في الشرفة المطلة على شارع الجامعة وهشام يعبث بسبحة في يده ويعود إلى أفكاره حين دخل عليه أحد زملائه وهو يقول بصوت مرتفع :

ـ هشام . . هشام . . تلفون لك يا هشام . .

ـ تلفون ؟ . . ممن ؟ . .

ـ من مكة . . من الوالد . .

وهب هشام مسرعا نحو الهاتف ورفع السماعة ليصل إليه صوت والده :

ـ مبروك ياهشام . . مبروك يا ولدي . . لقد سمعنا النتائج من الإذاعة . . الجميع يهنئونك بالنجاح ويقولون لك مبروك . .

ـ الله يبارك فيك يا والدي . . هذا من فضل الله ثم ببركة دعائكم . .

ـ والله الحمد لله . . ألف حمد لله . . هذه والدتك تريد التحدث إليك . .

ـ مرحباً يا أمي . . مرحباً . .

ـ مبروك يا ولدي . . مبروك . . ان فرحتنا لاتعدلها فرحة . .

ورد هشام على والدته بتأثر ، ثم راح يجيب بالشكر على أصوات باقي أفراد العائلة الذين كانوا يتعاقبون على سماعة الهاتف ليبلغوه تهانيهم وتمنياتهم . .

وعندما وضع هشام السماعة وتوجه عائداً إلى غرفته كان ينتابه شعور بالخجل الشديد من نفسه ، إذ كيف يحول الفرحة إلى حزن ، وكيف يمنع نفسه من الشعور بالسعادة والارتياح وكيف لايخرج ويملأ الدنيا سعادة وبهجة ؟..

وراح يؤنب نفسه . . كان المفروض أن يفرح ويعلن فرحته للجميع . .



لقد أخطأ في حق نفسه ، حين اعتبر عدم حصوله على تقدير « جيد جداً » ، سبباً في الحزن والكآبة ، وكأن هذا التقدير هو مفتاح الحياة . . .

وردد هشام بينه وبين نفسه كلمات أبيه وأمه واخواته .. استعاد عباراتهم وهم يعبرون له عن فرحتهم واغتباطهم ويأملون له مستقبلاً زاهراً عظيماً ، وشعر بأن عليه أن يطرح همومه المصطنعة جانبا وأن يشارك زملاءه الناجحين فرحتهم، فدب فيه نشاط مفاجىء جعله يسرع لتوه فيستحم ويذهب إلى حيث كان زملاؤه يحتفلون بالنجاح ، ليحتفل معهم ويشارك الناجحين منهم فرحتهم ويواسي من لم يسعده الحظ بالنجاح . .

ووسط الضجيج الذي كان يسود المكان ، دخل فجأة صلاح وهو زميل من زملائهم الأوائل في السنة النهائية ، وكأنما أحدث دخوله شيئاً من عدم الارتياح عند بعضهم ، ممن يعرفونه ويعرفون شيئاً عن طباعه التي تتسم بالكبرياء والعجرفة ، والتباهي الدائم بأنه يحصل باستمرار على الأولوية والدرجات العالية . .

وقال صلاح وهو يبتسم بخبث :

ـ ماذا ياهشام ؟.. كنت تتطلع إلى المعيدية .. يبدو أن الحظ لم يحالفك ...

وشعر هشام بالدماء تغلي في عروقه ، وساد المكان وجوم ما لبث تركي أن بدده قائلا بلهجته المرحة :

ـ علينا أن ندرك تماما أن الدرجات ليست هي مفتاح الحياة في الشخصيات التي تتحكم فيها مقاييس مادية بحتة . . لقد ثبت للأسف الشديد أن مصيرها يكون دائماً هو الفشل في النهاية . . المستقبل ، يا صلاح ، أمامنا جميعاً . . والتوفيق بيد الله . . وقد حصلت أنت فعلا على درجات عالية . . وربما سوف

تحصل على المعيدية ، ولكننا جميعاً سنعمل ضمن إطار هدف عظيم هو خدمة بلادنا . . ولكي نستطيع تحقيق هذا الهدف فلا شك في أننا يجب أن نكون ممتلئين وطنية وحبا لهذا الوطن العزيز . لابد وأن تكون لدينا القدرة على التعامل مع الآخرين واحترامهم لكي نستطيع أن نعمل كأسرة واحدة ذات هدف محدد . . ولا شك في أن تضافر الجهود يؤدي دائماً إلى نتائج أفضل . .

والتفت صلاح نحو تركي ، وقال له بلهجته المتعالية :

– إن خير ما استفدته أنت من وجودك في الجامعة هو هذه الفلسفة . . لماذا لم تلتحق بكلية الآداب بدلا من كلية الهندسة لتستفيد من هذا المجال أكثر ؟ . .

وبجدية لم تكن معروفة عن تركي أجابه بهدوء :

– لا عليك يا صلاح . . إننا جميعاً نهنئك على التقدير الذي حصلت عليه ولكن ثق تماماً بأن هناك الكثير من الجولات التي تحتاج فيها إلى أشياء أهم بكثير من التقدير . . أشياء أهم كثيراً من « جيد جداً » و « امتياز » . . أنت تحتاج إلى الإنسانية في التعامل مع الآخرين . . تحتاج إلى الشعور بأنك فرد من المجموعة ، أنت ، اسمح لي أن أقول لك ، تحتاج إلى التخلص من هذا الغرور الذي نلاحظه فيك . . وإلا فانني اؤكد لك بأنه سيكون أول العوامل التي تقف ضدك . . وربما تحطم مستقبلك . . .

وساد الصمت في المكان كله ، وتكهرب الجو ، وتركزت أنظار الطلبة على صلاح الذي تضرج وجهه بحمرة الخجل ، وبدا عليه الذهول من كلمات « تركي » الصريحة ، وما لبث أن تضاحك وهو يقول :

– ما هذا ؟ . . انكم دائماً تخلطون المزاح بالجد . . أنا لم أقصد أبداً

أن اسيء إلى هشام . . فقط كنت أداعبه . . وإذا بكم تقفون ضدي في جبهة دفاع واحدة . .

وبنفس الجدية ، غير المعروفة عنه ، أجاب تركي :

ــ لا عليك . . جد أو مزاح . . الأمر واحد . . والحقيقة واحدة . . فنحن الآن نودع بعضنا ليأخذ كل منا طريقه . . ولا ندري متى وكيف نلتقي . . ولذا فعلينا أن نتأكد تماماً من أن ما درسناه وما تعلمناه ليس سوى جزء بسيط من أساسيات هامة نحتاج إليها عند التعامل وعند الخروج إلى المجتمع . . فالناس يحتاجون إلى انسان ليتعامل معهم . . والوطن يحتاج إلى مواطن حقيقي يعرف ابعاد وطنه ووطنيته . . وما يريد ، وما يجب ، أن يحققه لهذا الوطن . .

وكان صوت تركي الجاد يصل إلى اسماع زملائه الصامتين ، وإلى صلاح الذي كان يبدو عليه الذهول ، فهم لم يعتادوا من تركي بالذات على أن يتحدث بهذه الطريقة ، بل عهدوه دوما مازحا هازلا . . ولذا فقد هزّتهم كلماته ، فتركتهم جامدين صامتين . .

ويبدو أن تركي قد لاحظ ذلك ، فابتسم لزملائه ، وادار وجهه فيهم متأملا ثم قال :

ــ لا علينا من هذا . . وآسف إذا كنت قد اضطررت لهذا الحديث . . هيا بنا نصعد إلى الصالة فقد تجمع الزملاء هناك ، واظنهم يعدون حفل شاهي . .

وعادت إلى المكان بهجته وجوه المرح ، فتصاعدت أصوات التأييد للحفل واتجهوا نحو الدرج المؤدي إلى الصالة ، وهم يتحدثون عن المعدلات والتقديرات والآمال المستقبلية التي تعمر فؤاد كل منهم . . .

٣

في ارجاء الصالة الواسعة ، تناثر الشباب هنا وهناك ، يحتسون الشاهي ، ويتحدثون ، وقد جمعت كل عدد منهم حلقة ، اقبلت على تبادل الآراء والاحاديث حول الموضوع الذي يشغلهم جميعاً وهو : ماذا بعد التخرج . . وما تأثير النتائج التي حققها كل منهم على ما كان قد تخيله ، أو تمناه ، لنفسه من مستقبل . .

وفجأة صمتت القاعة كلها ، واتجهت الأنظار إلى المدخل ، حيث وقف الدكتور محمد والدكتور إبراهيم والأستاذ عبد الله ، وهم من هيئة التدريس في الجامعة .

ونهض الشباب احتراما لهم ، ثم تدافعوا نحوهم يصافحونهم بحرارة ، ويتبادلون معهم عبارات التهاني والمجاملات . .

وقال الدكتور محمد ، أحد قدماء الأساتذة في الجامعة ، وهو يتجه مع زميليه إلى ناحية من المكان :

ـ لقد اردنا ، زميلاي وأنا ، أن نبلغكم تهانينا الشخصية . . وأن نشارككم حفلكم الصغير هذا . . إذا اردتم . .

وتصاعدت أصوات الترحيب والتأييد من كل جانب ، وتسابق الطلبة لتقديم الكراسي واعداد احدى الطاولات للزائرين الثلاثة . . وتحلق الشباب حول الأساتذة في ضجة مرحة تنسجم مع الجو الجامعي الاليف ، حيث للصداقة أعلى مكان ، سواء بين الأساتذة والطلبة ، أو الطلبة فيما بينهم . .

وهز الدكتور محمد رأسه في رضى وهو يخاطب الشباب الذين كانوا

حريصين على أن يسمعوا كل كلمة تصدر عن الأستاذ الذي طالما شملهم بعطفه ورعايته ، وقدم لهم توجيهاته الابوية النافعة . . وقال في لهجة بدا فيها الكثير من الاعتزاز :

ــ ما شاء الله . . هأنتم ، الآن ، تجنون ثمار ما بذلتم من جهود طوال سنوات . . . وهاقد أصبحتم ، ولله الحمد ، مهندسين ، تفخر بهم بلادهم ، وعليكم الآن أن تكونوا في مستوى هذه المسئولية ، وأن تثبتوا أنكم جديرون بما حزتم من شهادات ، وما اتخذتم من استعدادات . .

وتمهل الدكتور محمد ، واحتسى رشفة من الشاهي قبل أن يستطرد بينما الطلبة يتجهون بأبصارهم وجوارحهم إليه :

ــ لقد زرت معظم كليات الهندسة في المنطقة . . ورأيت كثيراً من الكليات المماثلة في بلاد عديدة من العالم ، واستطيع أن أقول لكم ، بفخر وتواضع في آن واحد ، أن لنا واحدة من أفضل كليات الهندسة في المنطقة ، وانكم تنعمون بجو جامعي مثالي لا نراه بكثرة في بلدان أخرى . . .

وسرت همهمة الفخر بين الطلبة ، ثم ما لبثت أن توقفت عندما استأنف الدكتور محمد كلامه :

ــ أجل . . . هذه المباني المنسقة الفخمة . . وهذه المعامل والمختبرات . . وهذه المعدات والتجهيزات . كلها أشياء تفخر بامتلاكها أية جامعة في العالم لانها تمثل ، بالفعل ، أرقى ما في هذا المجال ، وهي متاحة لكم ولزملائكم ، وكانت في خدمتكم عدة سنوات ، انصرفتم خلالها لتلقي العلم ، والاستعداد لمعركة الحياة . .

انني حين اتذكر كيف كانت بدايتنا ، اعني كجامعيين ، أعرف تماماً قيمة المستوى الرفيع الذي بلغه التعليم العالي في بلادنا . .

أنا لا أريد أن القي عليكم محاضرة اعلامية . . ولكنني ، بالفعل ، فخور بما حققناه من تقدم في هذا المجال .. جامعات عديدة في طول البلاد وعرضها.. تجهيزات متكاملة . . هيئات ممتازة من الأساتذة والمحاضرين . . ظروف مثالية للدراسة والتحصيل ربما لا ينعم بمثلها سواكم يا شباب هذه المملكة . .

وعلق الأستاذ عبد الله على كلام الدكتور محمد قائلاً :

– صدقت والله يا دكتور . . ليتك تحدثهم كيف كانت البداية . .

– البداية ؟ . .

قال الدكتور محمد متسائلا ، وقد ظللت جبينه سحابة تدل على أنه يعود بفكره إلى ذكريات قديمة ، وتعالت أصوات الشباب بحماسة تطالب الدكتور محمد بالحديث :

– أجل . . أجل . . يا دكتور . . حدثنا . .

وابتسم الدكتور محمد في سعادة ، وهو يرى وجوه ابنائه الطلبة وقد ارتسم الاهتمام والحماسة عليها ، وهز رأسه عدة مرات وكأنه يريد أن يقول إنه قد عزم على الحديث ، وعلى فتح صفحات من الماضي . .

وقال الدكتور محمد :

– لقد كانت البداية متواضعة ، ومتواضعة جداً . . .

كانت أولى الكليات هي كلية الآداب التي كانت تحتل مبنى مدرسة ابتدائية في حي الملز بالرياض ، وعلى مقربة منها يسكن الطلاب الذين كانوا قلائل جداً . .

اني اتذكر ، أن أول رئيس للجامعة كان هو المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام الذي أعطى الجامعة الكثير ، والكثير جداً ، من وقته وجهده . . وكان هناك أيضاً المرحوم الأستاذ مصطفى السقا ، والدكتور الحوفي ، وغيرهم ممن غابت عني اسماؤهم الآن ، والذين كانوا من كبار الأساتذة الجامعيين والحق يقال . .

وهنا قال الأستاذ عبد الله ضاحكا :

ـ لقد ذكرتني ، يا دكتور ، بشيء . . ففي ذلك الوقت كان الطلبة ينامون ، كما تفضلت وذكرت ، في غرفتين من مبنى المدرسة . . التي أصبحت نواة للجامعة . . بل نواة للنهضة الجامعية العظيمة التي نعيشها الآن . . فاذا حدث وتأخر الطلبة في النوم ، كان الاساتذة يأتون إليهم ويوقظونهم ، فيسارع الطلبة إلى الدروس وهم بملابس النوم . .

وضحك الجميع لهذه الذكرى الطريفة ، وكأنما تذكر الدكتور إبراهيم طرفة أخرى ، فقال :

ـ وهذا يذكرني ، يا أستاذ عبد الله ، بطرفة أخرى . . فحين افتتح قسم قواعد اللغة في الكلية ، لم يكن هناك سوى طالب واحد ليس غير . . اسمه ، على ما اذكر التبر . . نعم . . التبر ... وكان المرحوم الأستاذ مصطفى السقا هو الذي يتولى تدريسه ، وكان التبر هذا أصلع الرأس ، والمرحوم الأستاذ السقا كما تذكر يا أستاذ عبد لله ، وأنت يا دكتور محمد ، خفيف شعر الرأس . . فكان الاثنان يجلسان في الحديقة ، وصلعتاهما تلمعان تحت ضوء الشمس ، وكأن المرحوم الأستاذ السقا يلقي درسا خصوصياً على طالبه الأوحد . . التبر . .

واستأنف الدكتور محمد حديثه قائلا :

– يا لها من ذكريات . . لشد ما اختلف حال تلك البداية ، عما نحن عليه الآن من تقدم فريد في مجال التعليم العالي . . لقد كانت الكلية الثانية التي افتتحت في جامعة الرياض هي كلية العلوم ثم كلية الصيدلية . . وكان عدد الطلبة قليلاً بطبيعة الحال . . انني اتذكر ان قسم الجيولوجيا ، مثلا ، لم يكن يضم سوى ستة طلبة ... كانوا يفتقرون إلى كل شيء من المعدات والتجهيزات ... لم تكن هناك معامل . . ولا أدوات . . . كان طلبة كلية العلوم يستخدمون معامل كلية الملك عبد العزيز الحربية . . وكانوا يدرسون « علم البللورات » على علب الكبريت وعلب الطباشير . . وأول ميكروسكوب دخل الجامعة كان مستعاراً من « الثروة المعدنية » . .

وعاد الدكتور إبراهيم ليضيف إلى ما قاله الدكتور محمد شيئاً :

– عفوا يا دكتور على قطع حديثك . . ولكنني تذكرت الآن واقعة طريفة حدثت معي . . فقد ركبت مرة إحدى سيارات التاكسي ، وطلبت من السائق أن يأخذني إلى الجامعة ، فنظر إلي السائق مستغرباً وقال : « ايش اسمه الجامع اللي تبغاه . . الرياض فيها جوامع كثيرة . . . » . . ووجدت عناء حتى افهمته بانني اقصد « الجامعة » لا « الجامع » . .

وتساءل احد الطلبة بدهشة :

– إذن فالجامعة لم تكن معروفة إذ ذاك ؟ . .

فقال الدكتور محمد بسرعة :

– بالمرة . . إلا لدى القلائل . . كانت شيئا جديداً تماماً . . ولكنها ، والحق يقال ، قد تطورت تطوراً مذهلاً . . لقد تولى أمور الجامعة بعد المرحوم الدكتور عزام ، معالي المرحوم ناصر المنقور يرحمهما الله . . كان المنقور

يعمل في وزارة المعارف ، وكانت الجامعة تابعة ، إذ ذاك ، لوزارة المعارف ، الأمر الذي اتاح له ، يرحمه الله ، فرصا كبيرة لخدمة الجامعة ودفعها إلى الأمام خطوات كبيرة وواسعة . . وبعده ، كما تعلمون ، تولى معالي الدكتور عبدالعزيز الخويطر وكالة الجامعة ، وبقي في هذا المنصب مدة طويلة ، تحقق خلالها التكامل في كيان الجامعة حتى بانت تضم كليات للآداب والعلوم والصيدلة والزراعة والتجارة والهندسة . . وإلى جانب ذلك افتتحت جامعة الملك عبد العزيز في جدة ، التي كانت بادىء الأمر « أهلية » شارك في انشائها عدد من كبار رجال الأعمال ، ثم تسلمتها الدولة ، وطورتها على النحو المعروف . . . كما انشئت كلية للبترول والمعادن في الظهران ما لبثت أن تحولت إلى جامعة ، وقبلها انشئت الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ، كما أن هناك استعدادات أخرى تتخذ لافتتاح أكثر من جامعة في أكثر من منطقة من مناطق البلاد . .

وصمت الدكتور محمد بعض الوقت ، وبدا على الشباب وكأنهم مبهورون بقصة نشوء التعليم الجامعي في البلاد ، وماساره من خطوات ، من بداية متواضعة جداً ، إلى انطلاقة جبارة وضعت بلادهم العزيزة في الصف الأول بين دول المنطقة في مجال التعليم العالي . .

وعلق احد الشباب قائلاً :

ـ يا لها من قصة . . بل يا لها من ملحمة . .

وقال الدكتور إبراهيم باسما :

ـ صدقت يا بني . . انها ملحمة حقاً . . امتزجت فيها الإرادة الماضية مع الطموح غير المحدود . . وتحققت فيها المنجزات رغم الصعوبات . .

وكأنما تذكر الأستاذ عبد الله شيئاً ، فقال وكأنه يؤيد كلام زميله :

– أية منجزات . . وأية صعوبات . . أن أيا منا ، نحن الذين رافقنا نشوء الجامعة ، أساتذة أو طلبة ، إذ ذاك ، لا ينسى التحديات العديدة التي كانت تواجهنا في كل خطوة من خطواتنا .

وتمهل الأستاذ عبد الله في حديثه ، وكأنه يريد أن يؤكد كل كلمة من كلماته ...

– انني اتذكر انه في اوائل الستينات من القرن الميلادي الحالي ، حدثت جفوة ذات أسباب سياسية مرتبطة باحداث ذلك الوقت . . بين المملكة وبين احد الأقطار الشقيقة.. يومها ترك الجامعة فجأة عدد كبير من أساتذتها من مواطني ذلك البلد الشقيق .. ويومها بدت الروح السعودية الأصيلة التي طالما واجهت الصعوبات والتحديات . . لقد هب ، إذ ذاك ، معظم الشباب السعوديين الذين تلقوا تعليما عاليا في الخارج لملء الفراغ الذي تركه الأساتذة الذين تركوا الجامعة وعادوا إلى بلادهم . . هب أولئك الشباب السعوديون وقد الهبت الحماسة إرادتهم . . والتحقوا بالجامعة للتدريس فيها . . فالجامعة جامعتنا . . والطلبة أبناؤنا . . والطموح طموحنا . . وما كنا لنرضى بان تفشل الجامعة لاي سبب من الأسباب . .

انني اتذكر أولئك الشباب ممن تولى فيما بعد مسئوليات وزارية وغير وزارية وكانوا شديدي الحماسة لوطنهم ولجامعته ... منهم ، على سبيل المثال ، الأستاذ أحمد زكي يماني ، الأستاذ هشام ناظر ، الدكتور علوي درويش كيال ، الأستاذ حسن مشاري ، الأستاذ عبد الوهاب عبد الواسع ، الأستاذ عمر فقيه . . وغيرهم كثيرون ممن لا تحضرني اسماؤهم الآن . . لقد تولى

اولئك الشباب التدريس في الجامعة وفق تخصص كل منهم ، وبذلك اجتازت الجامعة تلك الازمة وخرجت منها مرفوعة الرأس ، بفضل ما هيأ لها الله من قدرة على مواجهة التحديات والتغلب عليها . .

وسرت بين الشباب همهمة فيها من الفخر والاعتزاز شيء كثير ، وقال واحد منهم :

ـ نحن فخورون بأننا شعب كتب له أن يواجه التحديات طول حياته . . وحدة المملكة تحد عظيم قاده مؤسس هذه المملكة المغفور له جلالة الملك عبدالعزيز طيب الله ثراه وانتصر فيه . . مواكبة التطور الحضاري العصري تحد نحقق فيه كل يوم ، بفضل الله ، نصراً جديداً ، البحث عن المياه . . التصنيع . . الرعاية الصحية . . الرعاية الاجتماعية . . شق الطرق . . انشاء المرافق . . كل هذه تحديات واجهنا فيها ما لم يواجهه سوانا ، وانتصرنا بحمد الله . . .

وبدا على الدكتور محمد الرضي وهو يسمع الشاب يتحدث بتلك الحماسة وقال بعطف :

ـ هذا صحيح يا بني . . . وهذا ما اريد من كل منكم أن يضعه نصب عينيه دوما . . فنجاح أي منكم هو نجاح للبلد كله . . ونجاح البلد إنما هو محصلة النجاحات الفردية التي يحققها كل مواطن في مجاله . . فأنتم وقد منّ الله عليكم بالنجاح . . واصبحتم ، الآن ، مهندسين ، عليكم أن تقدروا مدى مسئولياتكم في هذا المجال ، وأن تدركوا ما ينتظره وطنكم منكم ، لكي تكونوا جديرين بشرف مواطنيتكم ، وبفخر الانتساب إلى هذا البلد الذي هو محط أنظار العالم كله . . فأرجو لكم التوفيق والنجاح ، وآمل أن نسمع عنكم جميعاً أطيب الاخبار . .

٤

عندما أوى هشام وزميله عبد العزيز إلى غرفتهما المشتركة ، لاحظ عبدالعزيز أن هشام ساهم واجم ، وكأنه مشغول البال بأمر هام . .

وراح عبد العزيز يتأمل هشام ، وقد القى بنفسه على الفراش ، وعقد ذراعيه على صدره ، وبدا عليه التفكير . .

والواقع أن هشام كان يشعر بانزعاج داخلي عميق ، بسبب كلام زميله صلاح ، وكان يحدث نفسه بأنه كان يمكن أن يكون في موقف أفضل أمام صلاح وسواه لو أنه حصل على تقدير « جيد جداً » ، وانه مهما كان كلام صلاح قاسياً وصريحاً فانه لا يخلو من الحقيقة ، وأن امله في العمل كمعيد في الكلية قد بات بعيداً . . .

وانتبه هشام من أفكاره على عبد العزيز وهو يتأمله صامتا ، فرفع رأسه إليه متسائلا ، فقابله هذا بابتسامة عطوف وقال له برقة :

ــ هيا يا هشام . . أنا أعرف فيم تفكر . . مؤكد أنك تفكر في موضوع التقدير . .

ــ أبداً . . . أبداً . . .

رد هشام وهو يحاول أن يداري ارتباكه . . . ولكن عبد العزيز عاد يقول باصرار :

ــ لا . . بل إن الامر واضح جداً على محياك يا أخي . . اليس من عجائب الأمور أن تأتي « الحكمة » من زميل مثل « تركي » اعتاد المزاح والمداعبة والبعد

عن الجد ؟ . . أجل يا هشام . . لقد كان ما قاله تركي صحيحاً مائة بالمائة ، فان ولوجنا أبواب المستقبل يحتاج إلى مقومات عظيمة . . يحتاج أن نطرح العقد النفسية جانبا ، وان نتخلص من العوائق الذهنية التي كثيراً ما تصيب عقل الانسان بما يشبه الشلل ، فلا يكاد يعرف كيف يتصرف . .

واقترب عبد العزيز من هشام اكثر ، وسحب كرسيا قرب سريره وجلس عليه وهو يستأنف كلامه :

– إذا كانت مشكلة صاحبنا صلاح هي العجرفة والكبرياء ، وهي علة خطيرة ولا شك ، فان مشكلتك لا تقل عنها خطورة ، وان اختلفت نوعيتها . . مشكلتك هي التردد ، وعدم قدرتك على اتخاذ القرار الحازم ، والرأي الحاسم في الظرف المناسب . . صحيح أنه قد يكون من المستحسن ، بالنسبة للانسان ، أن يسأل الآخرين وان يستشيرهم ، ولكن ذلك يجب أن ينطلق من قناعة شخصية واضحة ، تكون هي القاعدة الأساسية لسلوكه وتصرفاته . . اعذرني يا هشام ، أنا لا أريد أن أجعل من نفسي تجاهك واعظا ، فانا مثلك بحاجة إلى من ينصحني ولكن النصحية شيء . . والعمل بكل ما يقال لنا شيء آخر . .

وبدا على هشام وكأنه قد تأثر لكلمات زميله التي كانت تندفع من فمه سريعة متلاحقة ، وقال له كتلميذ يسأل استاذه :

– ماذا ترى أن علي أن أفعل إذن ؟ . .

فاجاب عبد العزيز بسرعة :

– الامر واضح . . يجب الا تكون كسعفة في مهب الريح . . كلما مر أمر تحدث فيه الناس اندفعت إليه . . يجب أن تكون لك شخصيتك المميزة . . يجب أن تكون لك أفكارك وآمالك . .

ورد هشام :

– إن لي أفكاري وآمالي . . بل قل . . كانت لي أفكاري وآمالي فجاءت النتائج مخيبة لتلك الآمال . .

– آه . . هذه نقطة هامة أيضاً . . لقد بذلت ، أنت ، جهدك . . وعملت ما بوسعك فاذا لم يكن ما تريد فارد ما يكون . . المسألة ابسط من أن تسمح معها للكآبة أن تسيطر عليك بهذه الصورة المؤسفة . . نحن لا نزال في بداية الطريق ومعارك الحياة كثيرة ، ومشكلاتها كثيرة أيضاً . . وهي كلها تحتاج إلى صمود وإلى عمل في صمت . . وإلى صبر . . وصدق . . وإيمان . . هيا . . هيا يا أخي ابتسم . . وعد إلى مرحك . . واهم من ذلك اريدك أن تعدني بأن يكون لك رأيك الشخصي غير المتأثر بالآخرين . .

ففكر هشام قليلاً ثم تساءل بتردد :

– يعني . . لا تريدني أن استشير احداً ؟ . . يا أخي المرء باصدقائه . .

– أنا لم أقل لا تستشر احداً . . بالعكس . . أقرن رأيك بآراء الآخرين واستشر . . فالحق ، كما يقول الشاعر ، لا يخفى على اثنين . . بل إن الله سبحانه وتعالى قد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك . . « وشاورهم في الامر » . . أنا لم أقل لا تشاور الناس . . بالعكس . . شاورهم . . وتبادل الرأي معهم . . ولكن لابد وأن يكون لك رأيك المتميز . . ويجب الا تتأثر بآراء أي كان من الآخرين . .

– الحق معك . . . الحق معك . .

رد هشام على كلام زميله ، ثم استطرد :

– أنا أشعر بنقطة الضعف هذه ، وأحاول دائماً أن أتخلص منها . . هات يمينك لأعاهدك . . وسأبذل جهدي لأفعل كما تقول . . .

وقبل أن يرد هشام ، طرق باب الغرفة ، ودخل تركي بجثته الضخمة ، وضجيجه يسبقه كالعادة وصاح بهما بلهجة المنادي الذي يعلن نبأ هاماً على عدد كبير من الناس :

ـ يا اخواني . . يا اصدقائي . . الحاضر منكم يعلم الغائب . . والغائب منكم يعلم الحاضر . . كل من توجد لديه كتب مستعارة من مكتبة الكلية يجب أن ترد صباح غد . . وإلا فلن يعطوكم اخلاء طرف . .

ووقف تركي يلهث بعد المجهود الذي بذله في اعلانه هذا ، فتبادل هشام وعبد العزيز النظر ثم قال هشام :

ـ ولم العجلة ؟ . .

فوضع تركي يديه على خصريه وقال له بلهجة مرحة :

ـ لم العجلة ؟ . . لا أظنك تنوي استعارة هذه الكتب إلى الابد . .

ـ لا قدر الله . . أنا لا أقصد هذا . . ولكنني كنت أظن أن هناك أشياء أهم من ذلك . .

ـ أهم من ذلك ؟ . . مثل ماذا يا صديقي ؟ . .

ـ هناك اجراءات عديدة كما تعلم . . وعلينا الحصول على الشهادات الأولية . . واخلاء الطرف . .

وقاطعه تركي ساخراً :

ـ اخلاء الطرف ؟ . . تريد ان يعطوك اخلاء طرف ، وذمتك مشغولة

بكتب استعرتها من المكتبة ولا تريد أن ترجعها ؟ . . ما هذا الكلام يا باشمهندس ؟ . .

– بالله عليك يا تركي افهمني . . أنا لم أقصد هذا طبعاً . . ولا يعقل أن نترك الكلية وذمتنا مشغولة بشيء . . اطمئن . .

وفتح تركي فمه بعد أن ملأ صدره بالهواء استعداداً لجواب ساخر من إجاباته ولكنه لم يقل شيئاً ، فقد تناهت إلى اسماعهم أصوات ضجيج مرح ، وقرع على أدوات نحاسية ، فلمعت عينا تركي بالمرح وقال :

– آه . . حفلة أخرى . . الزملاء استأنفوا احتفالهم بعد مغادرة الأساتذة . . هيا بنا يا شباب . .

وتوجه الثلاثة مسرعين إلى القاعة ، وقد عزم هشام على أن يطرح هواجسه جانبا ، فوجدوا زملاءهم وقد أمسك كل منهم باداة من أدوات المطبخ ، من صحون وقدور وملاعق وسواها ، وجعلوا منها أدوات موسيقية كانت ترسل صوتها الرتيب المزعج بقوة تكاد تصيب المرء بالصمم ، ولكن الشباب المرحين وجدوا فيها وسيلة للتعبير عن ابتهاجهم بالنجاح ، واختتام مرحلة حاسمة من حياتهم . .

وبدون ادنى تردد ، « تحزم » تركي بغترته ، وراح يرقص على إيقاع زملائه ، الذين راحوا يصفقون له ويهتفون ويشجعونه على تحريك جسمه المكتنز الذي كان لا يستطيع الحركة إلا بصعوبة ، وإذا به الآن ، يتحرك برشاقة أثارت ضحك الشباب ، وزادت من مرحهم وحماستهم . .

٥

قضى هشام اليوم التالي في عمل متصل ، فهو قد أخذ الشهادات الأولية ، وسلم إلى المكتبة ما كان لديه من الكتب المستعارة ، وتابع معاملة اخلاء الطرف

وبذلك اصبح وجها لوجه أمام الخطوة التالية من حياته ، وهي اختيار الطريق الذي سيسير فيه . . هل يقدر له الحصول على العمل كمعيد في الكلية ، على ضوء التقدير الذي حققه ؟ . . ذلك أمر مستبعد وان كان هو بالذات ما كان يطمح إليه . .

هل يستطيع العمل كمهندس في مكة ، فيبقى بذلك في منزل اهله ، ويعيش في مرتع صباه الأول ؟ . . ذاك امر ليس مؤكدا ، فضلا عن أن كلمات زميلهم « عمر » قد هزته حين قال إن واجب الشباب السعودي يقتضيه العمل في أي مكان من ارجاء المملكة الشاسعة ، ليحملوا — هم بأنفسهم — عبء تعميرها ، وتحقيق نهضتها وتطويرها وازدهارها .

هل يستطيع الحصول على بعثة ؟ . . إنه يشعر بحاجة شديدة إلى تقوية لغته الانجليزية بصورة أفضل ، والبعثة إلى اميركة أو بريطانيا ، هي السبيل الاقرب إلى تحقيق ذلك . . هل . .

وأوقف هشام خواطره عند هذا الحد ، فقد احس بان عقله قد بات متعباً مكدودا ، وانه لم يعد باستطاعته التفكير بصورة مناسبة . . وعاد إليه إحساسه بالأسف لأنه لم يحصل على تقدير « جيد جداً » . . إذن لكان الموضوع قد انتهى ، وحقق أمله في العمل بالكلية كمعيد . . أما الآن ، وهذه الخواطر تتضارب في رأسه ، فخير ما يفعله هو أن يلقي بنفسه على السرير ، ليغط في اغفاءة عميقة ، بعد ذلك اليوم الحافل . .

ودلف إلى غرفته ، وفتح بابها — إذ كان زميله عبد العزيز غائباً — ولم يكد يهم بالدخول حتى وجد ورقة دفعت إلى الغرفة من تحت الباب . .

وقرأ الورقة ، فاذا بها من أحد زملائه ، وفيها يخبره بان خاله « علي » قد اتصل به من فندق « اليمامة » ، وانه قد وصل إلى الرياض صباح هذا اليوم

ولما كان هشام يعلم بان خاله لا يمكث عادة في الرياض كثيراً ، بحكم اعماله ، وانه يتردد عليها لفترات قصيرة ، فقد خشي أن يعود الخال من الرياض دون أن يراه ، ولذا فقد عزم على أن يتوجه إليه في الحال ، رغم ما هو عليه من تعب واعياء . .

وتنهد هشام باستسلام ، وعاد ادراجه مغادراً مبنى الطابة ليستقل أول سيارة تكسي صادفها ، طالبا من سائقهاأن يأخذه إلى الفندق . .



وفي صالة الفندق الواسعة ، دار هشام بعينيه باحثا عن خاله ، فوجده جالسا مع اثنين من اصدقائه . فتوجه نحوهم ، ولم يكد خاله يلمحه حتى هب يقابله بالعناق وهو يقول :

– مبروك يا ابن اختي . . . مبروك يا هشام . . مبروك يا باشمهندس . . . .

وبادل هشام خاله قبلاته وتحياته ، ولكنه علق بارتباك على الجملةالاخيرة :

– باشمهندس ؟ . . بدري يا خالي عليها . . أنا يا الله حصلت مهندس بالعافية . .

– فيك البركة يا هشام . . فيك البركة . .

وحيى هشام الرجلين اللذين كانا برفقة خاله فعرفه بهما :

– أقدم لك يا هشام الأخ صالح . . إنه أحد المسئولين عن الصيانة والشئون الهندسية في إحدى قواعد الدفاع الجوي في مكان ما من أرض الوطن . . وهذا هو الاخ عبد الرحمن . . إنه من كبار المهندسين في وزارة الدفاع . .

وشعر هشام برهبة وهو يرى اثنين من « المهندسين » يحملان مسئوليات مرموقة في وزارة الدفاع ، فاين هو — المتخرج هذا اليوم بالذات من كلية الهندسة — من المهندسين القدامى ؟ . .

وأمسك خاله بزمام الحديث ، وراح يتحدث عن هشام :

— إنه ابن اختي . . وهو من أحب اولادها إلي . . وكان لي دور في اختياره لكلية الهندسة بالتحديد . . فأنا أومن بان المستقبل هو للعلوم العصرية المتقدمة ، وأن بلادنا بحاجة إلى رجال تكنولوجيين في شتّى المجالات . .

وأمن الرجلان على كلام الرجل ، وقالا إن نظريته في محلها ، واستطرد الخال في كلامه قائلاً :

— إن هشام قد تخرج هذه السنة . . ما ذا كان تقديرك يا هشام ؟ . .

فقال هشام بخجل :

— جيد . .

— عظيم . . عظيم جداً . . قالها الخال بفخر . .

ولكن هشام قال وكأنه يعتذر :

— الحق أنني كنت أطمح في أن يكون تقديري « جيد جداً » ، ولقد بذلت جهدي من أجل ذلك . . ولكن . .

— وماذ به تقدير « جيد » ؟ . . خير وبركة . . اليس كذلك يا باشمهندس عبد الرحمن ؟ . .

واجاب المهندس عبد الرحمن بلهجة الخبير الواثق مما يقول :

— بكل تأكيد . . ان التقديرات التي يتخرج بها الطالب لاتعتبر ، بالضرورة

مقياساً حقيقياً دقيقاً لامكاناته العلمية والعقلية . . هناك ظروف كثيرة تلعب دورها في تقرير تلك التقديرات ، والعبرة هي بالتجربة العملية . .

وقال الخال ضاحكا :

– حقاً . . واذكر انني قرأت مرة ان آينشتاين ، صاحب نظرية النسبية التي قلبت علوم العصر رأساً على عقب ، كان أيام دراسته ضعيفاً جداً في الرياضيات بالذات . . تصوروا . .

وضحك الجميع ، وقال الخال :

– والله العظيم لست امزح . . وإنما قرأت هذا فعلاً . . أي أن الرجل الذي اعتبر اعظم « مخ » في القرن العشرين ، كان ضعيفاً في الرياضيات . .

وقال المهندس عبد الرحمن :

– هذا صحيح فعلاً . . وهو دليل على ما أقول . . ويبدو لي أن الأخ هشام متأثر لعدم حصوله على تقدير « جيد جداً » . .

واجابه هشام في أسف :

– فعلاً يا باشمهندس . .

واردف بابتسامة :

– ولكن كلام خالي الآن رفع معنوياتي قليلاً . .

وابتسم الخال وقال :

– الحمد الله . . لانني لا أريد أن انتقص شيئا من شعوري بالفخر عندما سمعت اسمك في الإذاعة بين ناجحي كلية الهندسة . .

ووجه المهندس عبد الرحمن كلامه إلى هشام :

ـ ماذا نويت أن تفعل إن شاء الله ؟ . .

فقال هشام بارتباك :

ـ لست أدري والله . .

ـ كيف ؟ . . اليس لديك خطة ؟ . .

ـ عندي بعض الأفكار العامة . .

ـ مثل ؟ . .

ـ إذا امكنني العمل كمعيد في الكلية فهذا ما افضله . . ولكنني استبعد ذلك . . لأنهم لا يأخذون لهذا العمل سوى اصحاب التقديرات العالية جداً . .

ـ وماذا أيضاً ؟ . .

ـ افكر في إمكانية العمل في مكة . .

وقال المهندس عبد الرحمن بلهجة فيها شيء من الاستغراب :

ـ الم يخطر ببالك العمل في وزارة الدفاع والطيران ؟ . .

ـ أنا ؟ . .

هتف هشام متسائلا بدهشة ، فدل بذلك على أن هذه الفكرة لم تخطر له ببال من قريب أو بعيد ، وانه قد فوجيء بها تماماً . .

ـ أجل . . أنت . . لم تستغرب ؟ . .

ـ الواقع . . الواقع . . أن هذه الفكرة لم تخطر ببالي ابداً . .

ـ لماذا ؟ . .

ـ لست أدري . .

ونظر هشام إلى خاله وكأنه يستنجد به كي يساعده في هذا الحديث ، بعد أن بدا على المهندس عبد الرحمن وكأنه مصمم على معرفة السبب الذي يجعل هشام يستبعد من تفكيره الالتحاق بوزارة الدفاع والطيران ، ولكن الخال قال مؤيداً المهندس عبد الرحمن :

— حقاً يا هشام يا ولدي . . لم لم تفكر في العمل بوزارة الدفاع والطيران ؟ . .

وارتبك هشام ، وشعر وكأن حصاراً قد ضرب حوله ، فالجميع — فيما يبدو — يؤيدون التحاقه بوزارة الدفاع والطيران ، ومن يدري ؟ . . فلعل هناك اتفاقاً سابقاً بينهم على ذلك . . ولعل اجتماع اثنين من المهندسين التابعين لوزارة الدفاع والطيران ليس صدفة . . ولعل خاله هو الذي دعاهما ، عامداً ، إلى هذه الجلسة ، ولعل خاله قد قرر شيئاً بشأن مستقبله دون أن يأخذ رأيه . .

وانتبه هشام من تصوراته وتخميناته على صوت المهندس عبد الرحمن وهو يسأل بلهجة هادئة ، ولكنها تدل على اصراره على معرفة الجواب :

— إنك لم تجبني يا أخ هشام على سؤالي . . لماذا ؟ . .

— لقد اجبتك . . انني لست ادري . . لم يخطر هذا ببالي من قبل . .

— وما هو رأيك الآن وقد جعلنا ذلك يخطر ببالك ؟ . .

فقال هشام بارتباك شديد :

— لست ادري . . لست ادري . . المسألة تحتاج إلى تفكير . . وبحث و . . .

وقاطعه خاله :

— انها لا تحتاج إلا إلى الاتكال على الله والإقدام على هذه الخطوة . .

ـ انني متكل على الله في كل أموري . . ولكنني فوجئت . . واعتقد انني بحاجة إلى مشاورة الوالد وبحث الأمر من مختلف نواحيه و . .

ورد عليه خاله على الفور :

ـ من ناحية الوالد اطمئن . . إنه موافق . .

ـ موافق ؟ . . قالها هشام باستغراب . .

ـ أجل موافق . . أمس كنت في مكة . . وزرت الوالد . . وهنأته بنجاحك . . ثم تحدثنا حول مستقبلك فقال إنه لا يستطيع أن يفرض عليك شيئاً . . فزمانه غير زمانك . . وانت ادري بمصلحتك . . ولما كنت اعرف المميزات التي يتيحها لك العمل في وزارة الدفاع والطيران بحكم صلاتي ببعض الاصدقاء فيها فقد اقترحت عليه أن تلتحق بهذه الوزارة ، فاستغرب الاقتراح مثلك ، في البداية ، ولما شرحت له الأمر ، تمنى أن تتاح لك هذه الفرصة . . وترك الاختيار لك . . فما رأيك . .

وتكلم المهندس صالح الذي كان يتابع الحديث صامتا طوال الوقت وقال موجها كلامه إلى هشام ، وفي هذا الكلام رنة المداعبة :

ـ بالمناسبة يا أخ هشام . . إن الالتحاق بوزارة الدفاع والطيران ليس سهلاً كما قد تعتقد ، فهناك شروط عديدة يبدو لي أنها تتوفر فيك ولكنها لا تتوفر في كل انسان . . أقلها اللياقة الصحية . . ومن الطريف حقاً أن اراك متردداً في الوقت الذي يقبل فيه آلاف من الشباب سواك على الالتحاق بالقوات المسلحة برية وجوية وبحرية ، وبعضهم ترفض طلباتهم لعدم حيازتهم على الشروط اللازمة . .

واضاف المهندس عبد الرحمن ضاحكاً :

– حقاً يا أخ هشام . . ولكن يبدو لي أن صحتك على ما يرام . . وان تقديراتك الجامعية مناسبة . . ولسوف تلتحق بالقوات المسلحة برتبة ملازم أول . . فماذا تريد أكثر من هذا . .

وقال الخال بحماسة :

– الله اكبر . . ملازم أول مرة واحدة ؟ . . وتتردد ؟ . .

ثم وجه الخال حديثه إلى المهندس عبد الرحمن قائلاً :

– حدثه بالله عليك عن المميزات التي سوف يحصل عليها بانتسابه للقوات المسلحة . .

واخذ المهندس عبد الرحمن يسرد تلك المميزات :

– خذ عندك يا سيدي . . أولاً الراتب . . وهو ليس بالقليل . . ثم بدل صنف . . وبدل سكن . . وبدل ملابس . . وبدل اعاشة . . وبدل خادم . .

وعلق الخال مخاطباً هشام :

– هل سمعت يا بني ؟ . . البدلات وحدها تعتبر راتباً قائماً بذاته . . وماذا أيضاً يا أخ عبد الرحمن ؟ . .

– هناك أيضاً البعثات . . إن الفرصة متاحة أمامك للابتعاث لدراسة اللغة . . وتحصيل الدراسات العليا . .

– البعثات ؟ . .

تساءل هشام بتمهل ، فقد وجد نفسه على باب احد الاحلام التي كان يفكر فيها وهو أن يكمل دراسته ويحصل على شهادة عليا في تخصصه . .

ـ أجل . . فهناك كثير من الضباط السعوديين الذين يتلقون دراسات عايا في ارقى الأكاديميات العسكرية في الولايات المتحدة واوربة . .

وكأنما اراد الخال ان يحسم الامر ، فقال لهشام :

ـ ماذا ترى الآن يا هشام ؟ . . هأنت قد سمعت بأذنيك كل جوانب الموضوع ممن يعرفون عنه كل شيء . . ولا شك في أن المعلومات التي أدلوا بها إليك تدل على انهم إنما يدلونك على طريق الخير . . ولك أنت ، على اية حال ، أن تختار . .

وبدون أن يشعر ، وجد هشام نفسه يقول :

ـ قد اخترت . . وتوكلت على الله . .

فابتسم المهندس عبد الرحمن ابتسامة عريضة وقال له :

ـ مبروك هذا الاختيار . . ومرحباً بك ، مبدئياً ، في القوات المسلحة . . أقول مبدئياً لان هذا متوقف على استكمال الاجراءات . .

وعلق الخال قائلاً :

ـ فيك البركة يا باشمهندس . واظن انك لا تمانع في مساعدته على استكمال الاجراءات وتقديم الأوراق . .

ـ بكل سرور . . ويستطيع الأخ هشام أن يراجعني غداً إن شاء الله في الوزارة وسوف نشرع في الاجراءات حالاً . .

وعلى هذا انفضت الجلسة ، فانصرف الصديقان ، وبقي هشام وخاله جالسين وحدهما في بهو الفندق . .

ولاحظ الخال أن هشام مستغرق في التفكير استغراقاً كليا ، فسأله :

– هيه . . وحدوه . . اين انت ؟ . .

– هه ؟ . . آه . . . آسف يا خالي . . فقط كنت . . كنت افكر . .

– فيم تفكر ؟ . . الحمد الله الذي قيض لنا هذين الصديقين اللذين استطاعا إيضاح المسألة لك من كل جوانبها ، كما ابديا استعدادهما لمساعدتك على استكمال الاجراءات اللازمة ، فماذا تريد أكثر من ذلك ؟ . .

– لم يكن هذا ما كنت افكر فيه . . وإنما كنت اعجب لتصاريف القدر . . كانت وزارة الدفاع هي آخر ما يمكن أن يخطر ببالي . . لا لشيء . . إلا لانني لم آنس في نفسي ميولا عسكرية في يوم من الأيام . .

– وهل هناك اسمى من خدمة الوطن عن هذا الطريق . . اسمع يا ولدي إن بلادنا وهي تبني نهضتها العظيمة التي نعيشها كلنا ، لم تغفل عن حماية هذه النهضة بالقوة الضاربة التي تدفع عنها كل سوء . . ونحن ، كما تعلم ، بلد له وضع خاص ومتميز . . إننا نعتبر أنفسنا مجاهدين في سبيل الله . . ونعتبر قواتنا المسلحة ، بل وكل مكاناتنا ، في خدمة دين الله . . وأنت تعلم أن اعداء الاسلام كثيرون . . وكل من عادى الاسلام والمسلمين فهو عدو لنا بصورة تلقائية . . ولهذا امرنا الله سبحانه وتعالى بان نعد لاعدائنا ما استطعنا من قوة . .

إن الدم السعودي الزكي ، استطرد الخال قائلا ، قد امتزج بأكثر من أرض اسلامية ، دفاعا عن اخوة لنا في فلسطين . . في مصر . . في الأردن . . في سورية . . وفي كل مكان نودي فيه للجهاد . . إن مسئوليتنا ، يا بني ، تقضي علينا أن نكون في مركز من القوة العسكرية يجعلنا جديرين بها . . ولقد اثبتنا ، ولله الحمد ، أننا في مستوى هذه المسئولية ، وأننا نضع أفعالنا موضع أقوالنا ،

ونقرن المبدأ بالجهاد في سبيله . . أنا ، يابني ، أحد الذين اشتركوا في الجهاد على أرض فلسطين مع افراد القوات السعودية التي حاربت في الجبهة المصرية أيام حرب فلسطين الأولى عام ١٩٤٨ الميلادي . .

ونظر هشام إلى خاله باهتمام ، وقد هزته كلماته هزاً عنيفاً ، وقال بلهجة رجاء :

– هللا حدثني ، بالله عليك يا خالي ، عن بعض ذكرياتك تلك ؟ . .

– لم لا ؟ . . الليل طويل . . ولست امل الحديث عن هذه الذكريات التي لا يعرفها ، للاسف ، كثيرون منكم يا ابناء هذا الجيل . .

واشار الخال إلى النادل ، وطلب إليه أن يأتيهما بفنجانين من الشاهي ، ثم راح يروي بعض ذكرياته تلك . . .



قال الخال وهو يمسح باصابعه على جبينه ، ليعود بذاكرته إلى الوراء ربع قرن أو يزيد :

– مع حلول العام ١٩٤٨م ، الميلادي ، كانت الاحداث في فلسطين تسير وفق المخططات الشريرة التي ساهم في وضعها وتنفيذها ثالوث اعداء الاسلام المعروف : الصهيونية والشيوعية والاستعمار ، لتقسيم فلسطين وانتزاعها من اصحابها الشرعيين ، واسكان شذاذ الآفاق الصهاينة في بلد أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ، ومسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لغايات تتفق ومطامع تلك الاطراف الثلاثة في الكيد للاسلام والمسلمين ، والعرب والعروبة . . ولست اريد ، هنا ، أن احدثك عن الملابسات السياسية للقضية ،

فهي ليست – الآن – موضوعنا . . ولكنني اريد أن انوه لك بان بلادنا كانت في طليعة الدول التي اهتمت بالقضية ، وتابعتها ، وبذلت من أجلها الغالي والنفيس . . .

ولعلك تعلم ، يا ولدي ، أن مؤسس هذه المملكة ، الملك عبد العزيز يرحمه الله ، كانت له جهود جبارة في الدفاع عن فلسطين ، وتذكر – طبعاً – اللقاء التاريخي الذي تم في اعقاب الحرب العالمية الثانية بين عبد العزيز ، طيب الله ثراه ، وبين الرئيس الأميركي روزفلت . .

لقد رغب الرئيس الاميركي في هذا اللقاء لكي يتعرف إلى مطالب عبد العزيز ولكنه فوجىء – كما اعترف هو نفسه – بان الملك ، يرحمه الله ، لم يطلب لنفسه ولا للمملكة أي شيء ، واقتصر حديثه على فلسطين ، وعلى حقوق شعب فلسطين ، لدرجة انتزع معها وعداً صريحاً من الرئيس الاميركي بان يمتنع هذا عن المساهمة في أي عمل يسيء إلى الحق العربي الصريح في فلسطين . . وهذا مثبت في وثائق وزارة الخارجية الاميركية التي نشرت قبل مدة .. واعتقد ، يابني انه لولا أن المنية قد عاجلت الرئيس الاميركي قبيل نهاية الحرب ، فلربما كان تغير وجه الاحداث . .

ما علينا . .

المهم ، أن المؤامرة العدوة قد بدىء بها ، وتقرر دخول الجيوش العربية إلى فلسطين . .

– عفواً يا خالي . . اعتقد أن الملك عبد العزيز ، يرحمه الله ، كان معارضاً في دخول الجيوش العربية إلى فلسطين . . اليس كذلك ؟ . .

– هذا صحيح . . وكانت له في ذلك نظرة غاية في النضج والعمق . . وهي

أن يتولى شعب فلسطين الدفاع عن بلاده وهو في أرضه ، والا يغادرها باية حال من الأحوال . . وان تحشد الدول العربية جيوشها على الحدود الفلسطينية ، وان تمد أهل فلسطين بالمال والسلاح والمتطوعين . . ولقد قال جلالته ، يرحمه الله ، إن الدول العربية اعضاء في الامم المتحدة ، وانها إذا دخلت جيوشها فلسطين فلن تلبث الامم المتحدة أن تتخذ قراراً بوقف القتال ، وسوف تلتزم الدول العربية بهذا القرار بحكم عضويتها في الامم المتحدة . . ولكن دولا عربية أخرى ، لاسباب خارجة عن موضوعنا الآن ، اصرت على دخول الجيوش العربية ، ورغبة من جلالته ، طيب الله ثراه ، في الحفاظ على وحدة الموقف العربي ، وافق – كارها – على الاشتراك في الحرب بالجيش النظامي ، واشهد من حوله إذ ذاك ، بأنه قد بذل جهده لاقناع الآخرين بوجهة نظره ، واعتقد أنه قال يومها والألم يعتصر قلبه « لقد ضاعت فلسطين » . . هكذا كتب الذين شهدوا لقاءه مع المسئولين العرب الذين جاؤوا لاقناعه بدخول الحرب . .

ورشف الخال من فنجانه رشفة ، ثم استطرد :

– كنت انا ، إذ ذاك ، جنديا في القوات السعودية النظامية التي امرت بالتوجه إلى الجبهة لتقاتل مع القوات المصرية والسودانية في الجبهة الفلسطينية الجنوبية الغربية ، وقد تجمعت الوحدات التي تقرر إرسالها إلى فلسطين في جده ، ومنها نقلنا جواً وبحراً إلى القاهرة والسويس وكان ذلك في شهر رجب عام ١٣٦٧هـ ، الموافق للعام ١٩٤٨م . .

بعد ذلك نقلنا إلى غزة بعد أن تم التنسيق بيننا وبين القوات المصرية والسودانية ولعلي ، ياهشام ، اكشف لك امراً لا تعرفه بحكم سنك الغضة ، وبحكم ما تسمعه من أننا قد « هزمنا » عام ١٩٤٨م . .

ابداً يا ولدي ، وها هي آثار جراحي تشهد ، وجراح زملائي واخواني

من المجاهدين السعوديين ، نظاميين وغير نظاميين ، وكذلك جراح إخواننا المقاتلين في الجبهات الاخرى . . .

كان هدفنا هو تل أبيب . . أجل تل أبيب . . ورغم كل ما جرى ، وما كان قد اعد ضد العرب وفلسطين من مؤامرات ، فقد كان هذا الهدف في متناول ايدينا أو يكاد . . إنك قد لا تصدق ذلك ، ولكنه — والله — هو الحقيقة . .

لقد كانت الخطة الموضوعة تقضي بان تلتقي القوات العربية المتقدمة في مختلف الجبهات مع بعضها بعد احتلال المستعمرات اليهودية القائمة في طريقها ، وقد سارت هذه الخطة ، في البداية ، بنجاح تام ، طمست انباءه — بعد ذلك — الأحداث التي تلت ذلك العام . .

لقد سارت قواتنا ، مع باقي القوات العربية مجتازة « دير سنيد » و «المجدل» واتجهنا حتى وصلنا إلى « اسدود » . .

وفي نفس الوقت اتجهت قوات أخرى شرقا بادئة من « المجدل » حتى دخلت « عراق سويدان » و « الحيفات » و « كراتيا » ثم « الفالوجا » ثم « عراق المنشية » فاتصلت بالقوات الأردنية المقاتلة شرقي فلسطين . . وبهذا فصلنا المستعمرات اليهودية القائمة في الجنوب عن المستعمرات القائمة في الشمال . . فصلناها فصلا تاما . . وفرضنا عليها حصاراً شديداً ، وقطعنا عنها التموين ، الامر الذي حاول العدو معه أن يزودها بالتموين جواً ، ولكن هذه المحاولة لم تنجح ، وظللنا نشدد الحصار على تلك المستعمرات لدرجة جعلتنا نتوقع استسلامها بين لحظة واخرى . .

كان هشام يصغي إلى حديث خاله مبهوراً ، حابس الانفاس ، فهو لم

يصل إلى علمه شيء من هذه الامجاد ، وكل ما كان يعرفه هو الحديث المعاد عن « الهزيمة » التي شكلت لدى الشباب العربي عقدة ثابتة ، ولذا فقد فوجيء بما يرويه له خاله ، ورغب في المزيد والمزيد من هذه المعلومات ، فسأله :

– هلا حدثتني عن تفاصيل احدى المعارك التي خاضتها القوات السعودية اذ ذاك ؟ . .

– استطيع أن احدثك عن كثير ، وكثير جداً ، من هذه المعارك . . إليك مثلاً قصة معركة « بيت طيحان » التي وقعت في أول شهر رمضان عام ١٣٦٧ الهجري . .

كانت الأوامر قد صدرت إلينا بالاتجاه من غزة إلى المجدل ، ومنها إلى قرية « بيت طيحان » التي كانت تعتبر نقطة استراتيجية هامة جداً بالنسبة للعدو . .

المعركة بدأت ، كما قلت لك ، في غرة شهر رمضان ، الساعة التاسعة ليلاً ، واستمرت اثنتي عشرة ساعة دون انقطاع . . بدأ العدو – بعدها – بالتراجع شيئاً فشيئاً رغم تحصيناته القوية ، ومع ظهور الخيوط الأولى للفجر كانت قواتنا تحتل آخر موقع من مواقع العدو وهو مدرسة القرية التي كانت أهم جيوب المقاومة ، وبعدها بحوالي نصف ساعة سقط في ايدينا مرتفع كنا نسميه « التبة رقم ١ » ، ويقع شرقي المدرسة ، وبعد ذلك بساعتين سقطت « التبة رقم ٢ » ، وفي نفس الوقت احتللنا الجبل الذي يشرف على المستعمرة ولم يأت عصر ذلك اليوم حتى كنا قد نفذنا المهمة بحذافيرها وسيطرنا على الطريق المؤدية إلى « عراق سويدان » و « بير سبع » . . .

آه يا ولدي . . إن جسدي ليقشعر إذ اذكر الحماسة التي كنا نقاتل بها في تلك المعركة المجيدة . .

ماذا تتوقع من جنود يرفعون الراية الخضراء ، وعليها شهادة أن « لا اله إلا الله محمد رسول الله » ، ويندفعون نحو حصون العدو وهم يرددون كما ردد اجدادهم من قبل « الله اكبر . . الله اكبر » ؟ . .

هكذا خضنا معركة « بيت طيحان » ، وهكذا استولينا على مواقع العدو كلها بعد أن كبدناه خسائر جسيمة من القتلى والعتاد والذخائر ، وكان شهداؤنا — على ضراوة المعركة — أربعة ، اذكر منهم ، الآن ، الشهيد المرحوم يحيي الصمان نائب فصيل الهاون ، وستة جرحى . .

لقد كان معنى سقوط « بيت طيحان » في ايدينا قطع الشريان الهام الذي كان يمد ستا وثلاثين مستعمرة يهودية بالتموين عبر خط الاسفلت الذي ينتهي إلى . . تل أبيب . . .

— إلى تل أبيب ؟ . .

هتف هشام بذهول وهو يسمع خاله يروي له القصة ، وهز الخال رأسه بأسى وقال :

— أجل يا ولدي . . إلى تل أبيب . .

— وماذا جرى بعد ذلك ؟ . .

— لقد عمد العدو ، في البداية ، إلى امداد المستعمرات المحاصرة جواً ، محاولا في نفس الوقت اجلاء قواتنا واستعادة « بيت طيحان » ولكن عبثا كان يحاول . . وكانت اعنف تلك المحاولات هي المعركة التي جرت في الثاني والعشرين من رمضان ، فقد وجه العدو قواته إلى « التبة رقم ٢ » التي كانت تحقق لنا السيطرة على الطريق ، ولكن قواتنا قاتلت ببسالة ودافعت بعنف وضراوة ، مما جعل العدو يرتد مخلفا وراءه ثمانين قتيلا وكميات كبيرة من



الا عتدة منها مدافع هاون ورشاشات من طراز « فيكرز » وثلاث سيارات وكان قائد الهجوم نفسه ، وهو برتبة « كابتن » ، بين القتلى . .

لقد حاولنا محاصرة العدو المتراجع ، ولكنه استطاع الفرار في غمرة الذعر واليأس ، في آخر لحظة . .

وبعد يومين اثنين ، حاول العدو ، مرة أخرى ، أن يستعيد الموقع ، واستمرت المعركة بيننا وبينه من الثامنة ليلا إلى الثانية عشرة ، واضطر للارتداد مرة أخرى تاركا وراءه — هذه المرة — ثمانية عشر قتيلا . .

وتوقف الخال عن الحديث كأنما ليلتقط أنفاسه بعد أن عادت إليه الذكريات فراح يرويها وكأنه يقرأ من كتاب مفتوح ، وكان هشام قد تحول كله إلى آذان صاغية ، فنسي تعبه واعياءه ، واستيقظت حواسه تلتقط من فم خاله ما لم يكن يعرفه ، أو يتصوره ، عن امجاد تمت قبل أن يرى نور الحياة ، وقبل أن يسأل خاله عما حدث بعد ذلك ، كان هذا قد أستأنف كلامه فقال :

— بعد هذا واصلت قواتنا تقدمها ، وكان هدفها هذه المرة احتلال مستعمرة صهيونية تدعى « كوكبة » ، وقد جابهنا العدو بالمصفحات ، فحطمنا له منها ثلاثا ، وصرعنا له خمسة وعشرين جنديا وغنمنا كميات كبيرة من الأسلحة والذخائر ، ولم تستغرق المعركة سوى ثلاث ساعات ، وبالتحديد ما بين الساعة الثانية عشرة ظهراً إلى الثالثة عصراً ، وبعدها كان كل شيء قد انتهى ، وانسحب العدو إلى مرتفع عال كنا نسميه — حسب خرائطنا — (التبة رقم ٤) ، ولكننا تبعناه بهجوم صاعق اسفر عن هزيمته ، وخلف وراءه محطة لاسلكية وبضع سيارات ومدافع وعددا من القتلى . .

لقد حاول العدو بعد ذلك بأسبوع أن يستعيد هذا الموقع الهام ، ولكن

فصيلين اثنين من القوات السعودية ردته بعنف في معركة ضارية بدأت في الثانية ليلاً ، واستمرت حتى الساعة الثامنة صباحاً . .

وطبعاً ما كان العدو ليطيق أن نسيطر على خط الاسفلت المؤدي إلى تل أبيب فأخذ يزود مستعمراته المحاصرة بالمؤن بواسطة الطائرات ، بينما كان يستعد للقيام بهجوم مضاد بدأه بعد أيام ، ولكننا كنا له بالمرصاد . .

لقد بدأ العدو هجومه في منتصف الليل ، واستمرت معركتنا معه حتى الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم التالي ، واسفرت عن اندحاره ، تاركا ثلاث دبابات دمرتها نيراننا ، إلى جانب عدد غير قليل من القتلى والذخائر والمعدات .

وهنا نظر الخال إلى ساعته ثم قال بدهشة :

ــ ياه . . لقد مضى الوقت بسرعة . . واعتقد انك في حاجة إلى الراحة والنوم مثلي . .

ولكن هشام قال له بلهجة أقرب إلى الرجاء :

ــ هذا لا يهم . . وبودي أن اسمع منك المزيد . .

ــ عندي من هذا شيء كثير . . وهي احداث عشتها بنفسي ، وشاركت فيها بجهدي المتواضع ، وتركت آثارها على جسمي إلى اليوم . . ولسوف استأنف حديثي غداً إن شاء الله . . اما الآن فعليك أن ترتاح قليلاً لكي تستطيع ملاحقة معاملاتك غداً في وزارة الدفاع والطيران . . ولعل الله يكتب لك التوفيق في الالتحاق بها . .

ونهض هشام مودعا خاله ، عائداً إلى غرفته ، وقد شعر بان رغبة جامحة قد باتت تجتاحه لكي يلتحق بوزارة الدفاع والطيران بالذات ، وان رغبته في العمل كمعيد في الكلية قد تضاءلت أوتلاشت ، لا لشيء ، إلا لأن ما سمعه

من خاله عن امجاد كتبتها القوات السعودية بدمائها وجهادها على أرض فلسطين قد ايقظت في اعماقه شعورا بأن الجيش هو مكانه الطبيعي ، وانه لن يحقق ذاته بغير أن يلتحق بالقوات المسلحة ، في سبيل الله والدين والمليك والوطن . .

٨

صباح اليوم التالي ، استيقظ عبد العزيز على صوت حركة وجلبة في الغرفة التي تضمه مع هشام ، ففتح عينيه واخذ يجيلهما فيما حوله ، ليرى هشام وهو يتحرك بسرعة وحماسة ونشاط ، فيفتح حقيبة أوراقه ، ويستعرض هذه الأوراق ويختار بعضها فيضعها جانبا ، ثم يتناول مظروفا كبيراً يضع فيه الأوراق التي اختارها . . ثم يتوجه إلى خزانة ملابسه ، ليفرغها في حقائبه وهو يطوي هذه الملابس بعناية ، ويجمع اشياءه التي زاملته اثناء سنوات الدراسة ، وخلال ذلك كانت تبدو في حركاته روح جديدة تتناقض مع ما كان عليه ،امس فقط ، من جمود وركود ، واغراق في التفكير . . وكان هشام يطلق من بين شفتيه صفيراً تبين فيه عبد العزيز لحن السلام الملكي ، وكان هشام يعيد اللحن ويكرره بدون انقطاع ، وهو يتنقل هنا وهناك في ارجاء الغرفة ليستكمل استعداداته لمغادرة المبنى بصورة نهائية . .

واستقام عبد العزيز في جلسته وقد بدت على وجهه معالم الدهشة ، وظل يتأمل هشام ويحاول أن يخمن سبب هذه الروح الجديدة التي تبدو فيه ، ولكن هشام كان منصرفا عنه كل الانصراف ، ولم ينتبه إلى استيقاظه . .

ودلى عبد العزيز ساقيه من السرير ، واسترخى في جلسته هذه وهو يلاحق هشام بانظاره في دهشة صامتة ، ويتوقع منه أن يراه ، ولكن هشام كان — على ما يبدو — في واد آخر تماماً . .

ولم يستطع عبد العزيز السكوت أكثر من ذلك ، فتنحنح بصوت مسموع وقال :

ـ ما شاء الله . . ما شاء الله . . ما هذه الموسيقى التي تتحفنا بها مع بداية الصباح ؟ . .

وتوقف هشام عما كان فيه ، والتفت بسرعة نحو عبد العزيز وقال بفرح :

ـ صباح الخير . . هل استيقظت ؟ . .

ـ صباح الخير . . استيقظت طبعاً . . إذ كيف استطيع أن استمر في النوم وأنا لااسمع سوى صوت خزانة تفتح ودولاب يغلق ، وحقيبة توضع على الأرض وكرسي يسحب . . ثم صفير متواصل . . خيراً ان شاء الله . . ايش الحكاية ؟

واشرق وجه هشام بفرح حقيقي ، واتجه نحو زميله ، وامسكه من كتفيه بكلتا يديه وقال له بحماسة :

ـ آه يا عبد العزيز . . اسكت . . لقد وجدت نفسي . . وجدت نفسي . .

وذهل عبد العزيز ، وبدا عليه أنه لم يفهم كلمات زميله ، وكاد أن يسأله عما يعنيه ولكن الحقيقة سطعت فجأة في ذهنه :

ـ آه . . هل حصل شيء امس ؟ . . بالنسبة للمعيدية و . . .

ـ معيدية ايش يا عمي ؟ . . لا . . لا . . حاجة ثانية . . حاجة تانية خالص . . .

ـ مدير شركة ؟ . .

ـ مدير شركة ايش انت التاني . . . باقول لك وجدت نفسي . .

ـ ياسيدي عارف . . وفاهم . . عارف انك كنت ضايع وتايه . . بس اللي ابغى افهمه هو انك وجدت نفسك فين ؟ . .

فشد هشام قامته بكبرياء وقال ببطء وتأن :

ـ في وزارة الدفاع والطيران . .

وهب عبد العزيز واقفاً وقد اذهله الخبر :

ـ ايش ؟ . . وزارة الدفاع ؟ . . ايش جابك انت لوزارة الدفاع ؟ . . عمرك ما جبت سيرتها . . ولا تكلمت عنها ابداً . . كانت كل احلامك انك يا اما تصير معيد بالكلية . . أو مهندس في مكة . . ايش حكاية وزارة الدفاع هاذي ؟ . .

وانطلق هشام يتحدث ، والكلمات تتدافع من فمه بسرعة وحماسة وإيمان . . تحدث إليه عن لقائه بخاله . . وبصديقيه المهندسين اللذين يعملان في وزارة الدفاع . . اعاد عليه بالتفصيل كل كلمة من الحوار الذي دار بينه وبين الثلاثة . . روى له شيئاً مما سمعه من خاله عن امجاد جهاد القوات السعودية في حرب فلسطين الأولى . . وكان عبد العزيز يصغي إليه صامتا مذهولا ، لم يقاطعه بحرف واحد ، بل اتجه إليه بكل جوارحه ، وهو يزداد اقتناعا ـ شيئاً فشيئاً ـ أنه يرى في هشام إنسانا جديداً عليه ، وان الاتجاه الذي اختاره ليس نزوة طارئة ، وإنما عن قناعة عميقة ، وتصميم أكيد . .

وختم هشام كلامه قائلاً لزميله :

ـ هه . . والآن ؟ . . ما رأيك ؟ . .

وتمشى عبد العزيز في الغرفة مطرقا يفكر ، فهو قد فوجىء تماماً بهذا الاتجاه الجديد الذي اختاره هشام ، وشعر وكأن الحماسة التي كان هشام يتحدث بها قد انتقلت إليه . .

وكان هشام يتابعه بنظراته مرتقباً جوابه بلهفة :

ـ هه . . ما رأيك ؟ . . لم تقل لي . .

وهز عبد العزيز رأسه في حيرة وقال :

ـ الحقيقة انك قد فاجأتني تماماً . . ولست ادري ما أقول . . وطبعاً كان اختيارك موفقاً . . وارجو أن توفق في مسعاك . .

وشعر هشام بالارتياح لكلام زميله فقال له بلهفة :

ـ إذن . . هل تأتي معي ؟ . .

فمد عبد العزيز يده إلى نظارته السميكة ، وخلعها وراح يديرها بيده وهو يقول بمرارة :

ـ وهذه ؟ . . اين اذهب بها . . لعلك لا تعلم أن درجة النظر عندي ضعيفة إلى حد لا يمكن أن يقبلوني معه في القوات المسلحة . . وإذا قبلوني فلن يلحقوني باحدى الوحدات المقاتلة كما اتمنى . .

وتنهد عبد العزيز بأسف وقال :

ـ ما علينا . . المهم الآن هو أنت . . انني اكرر لك تمنياتي بان توفق في مسعاك . .

وشكر هشام لزميله عواطفه ، واكمل الاستعداد للخروج ، وحمل أوراقه معه ، واتجه نحو الباب وهو يسأل عبد العزيز :

ــ متى ستسافر ؟ . .

ــ لم اقرر بعد . . ربما بعد يومين أو ثلاثة . . وأنت ؟ . .

ــ أنا ؟ . . هذا متوقف على نتيجة مسعاي الآن في وزارة الدفاع والطيران إلى اللقاء إذن . . .



وسار كل شيء على ما يرام . . . فالمهندس عبد الرحمن قد ابدى اهتماماً كبيراً عندما جاءه هشام ، وقام بعدد من الاتصالات الهاتفية ، وارسل هشام عدة مرات إلى جهات عديدة في مبنى الوزارة ، وارشده كيف يملأ الاستمارات التي اعطيت له . وتابع معه الموضوع بصورة قطع معها هشام اشواطا بعيدة على طريق الالتحاق بوزارة الدفاع والطيران ، ولم يبق عليه سوى اجراء الكشف الطبي ، واستكمال بعض الوثائق التي يستدعي استخراج بعضها ذهابه إلى مكة . .

وكان وقت الغداء قد حان ، فغادر مبنى وزارة الدفاع والطيران متوجها إلى الفندق ، حيث تناول الطعام مع خاله ، ثم جلسا في الصالة التي كانت شبه خالية تقريباً ، واحاط الخال بكل ما حدث مع هشام في يومه هذا ، واعرب عن امله في أن تكلل هذه الخطوة بالنجاح ، بعد الشوط الذي قطعه . .

واسترخى الخال في مقعده ، يرشف الشاهي بتلذذ ، وكان هشام شديد

اللهفة على أن يكمل له خاله حديثه الذي بدأه بالأمس ، ولذا لم يلبث أن قال :

ـ الا تكمل لي الحديث الذي بدأته بالامس يا خالي ؟ . .

ـ أي حديث ؟ . .

ـ ذكرياتك عن حرب فلسطين الأولى . .

ـ لم لا . . إلى أين وصلنا أمس ؟ . .

ـ حدثتني عن معركة « كوكبة » وعن اندحار العدو مخلفا وراءه عدداً من الدبابات . .

ـ نعم . . . نعم . . . ثلاث دبابات مع عدد كبير من القتلى والذخائر والمعدات . .

وصمت الخال بعض الوقت ، وكأنه يحاول أن يستجمع ذاكرته ، ثم تكلم فجأة وكأنه تذكر قصة معينة :

ـ آه . . تذكرت الآن شيئاً هاماً . . هل تعلم أن السرية السعودية التي اشتركت في معركة « بيرون اسحق » قد سميت « سرية النصر » من قبل القوات الشقيقة التي اشتركت في المعركة ؟ . .

وابتسم هشام واجاب :

ـ بالطبع لا أعلم . . بل انني لا أعلم أي شيء من هذا الذي ترويه . .

وروى الخال القصة :

ـ كانت قواتنا مسئولة عن القطاع الايسر من الهجوم الكبير الذي كانت القوات العربية قد قررت القيام به على مستعمرة « بيرون اسحق » . . كانت

هذه القوات مصرية وسعودية تساندها مدفعية ميدان وتدعمها دبابات ثقيلة ومصفحات مصرية وسعودية أيضاً . .

– هل أفهم من هذا أن « بيرون اسحق » هذه كانت قوية التحصين حتى استخدمت كل هذه القوات في مهاجمتها ؟ . .

– كانتْ أقوى مستعمرة صهيونية في ذلك القطاع كله . . وكانت تقع في منطقة مكشوفة ولا يحيط بها سوى حقول مزروعة بالقمح . . وقد احيطت المستعمرة كلها باسلاك شائكة عرضها عدة أمتار . . وبعد أن مهدت مدفعيتنا الثقيلة بقصف مركز شديد ، بدأ الهجوم الكبير . .

وكما قلت لك ، كنا نقاتل في القطاع الايسر . . وما ان توقف قصف مدفعيتنا حتى اندفعت فصائل الاقتحام السعودية لتدمير تحصينات العدو واسلاكه الشائكة . . ولكن العدو كان يسيطر على المكان لسببين . . . أولهما أن الأرض كلها مكشوفة من حوله . . وثانيهما هووكر مدفع رشاش ثقيل اقيم فوق خزان المياه . . وكان هذا الوكر في « موقف حاكم » – حسب التعبير العسكري – الامر الذي اوقف تقدم قواتنا . . وهنا تسلل أحد ضباط السرية السعودية . . انني ما زلت اذكر اسمه . . إنه الملازم عبد الله الطاسان . . تسلل الملازم عبدالله إلى أسفل الخزان وتسلقه حتى وصل إلى حيث اقيم المدفع الرشاش وأطلق النار على جنود العدو الذين كانوا يستخدمون ذلك المدفع . . وبهذه الطريقة زال المانع الذي كان يحول دون تقدم قواتنا التي ما لبثت أن طهرت القطاع كله من قوات العدو ، ورفع الملازم عبد الله العلم السعودي على سارية الخزان ، فمضى يخفق ويرفرف ، بينما ارتفعت تكبيراتنا ونحن نرى رايتنا الخضراء تعلن انتصارنا . .

كان العدو يقاوم بعنف ، كما أن سقوط القطاع الايسر في ايدينا قد جعل

العدو يستميت في الدفاع عن القطاعات الاخرى ، ويأتي بنجدات جديدة ، الامر الذي جعل اخواننا الجنود المصريين ينسحبون بانتظام ، وبهذا استطاع العدو أن يحكم الطوق على القوات السعودية ، ويشدد عليها الحصار ، ولكننا كنا نقاتل بضراوة ، ونرد الهجوم تلو الهجوم ، حتى نفد ماؤنا وجاءتنا اوامر القيادة العامة بالانسحاب . . خاصة وان العدو اخذ يستخدم الطائرات في هجومه علينا ، ويلقي بقنابل حارقة . .

وبدت رنة من الأسف في صوت الخال وهو يستطرد في حديثه :

– أظن أن لديك فكرة عن القيادة العامة التي فوتت كثيراً من الفرص كان يمكن الاستفادة منها . . كانت القوات السعودية تتبع هذه القيادة ، بعد أن تم التنسيق بيننا وبين اخواننا المصريين والسودانيين . . ولو استطاعت القيادة العامة أن تستثمر النصر الذي حققته القوات السعودية في القطاع الايسر ، لتغيرت نتيجة المعركة كليا . . ولكن هذا لم يمنع من استحقاق سريتنا للقب « سرية النصر » على أثر معركة « بيرون اسحق » . . وبالمناسبة كانت المستعمرة خالية تماماً من المدنيين ، أي أن حاميتها كانت مؤلفة جميعها من العسكريين . . كانت فيها كتيبتا مشاة مزودتان بالأسلحة الأتوماتيكية ، وتساندهما بطارية مدفعية ميدان وكتيبة مدرعات وفصيل هاون . .

وفي الوقت الذي كنا نستعد فيه لمعاودة الهجوم على المستعمرة ، صدر قرار مجلس الامن بفرض الهدنة لمدة أربعة أسابيع . . فتوقف القتال ، نسبياً ، على جميع خطوط النار . .

– أي كما توقع الملك عبد العزيز يرحمه الله . .

– بالضبط . . وكن على ثقة أنه لولا تلك الهدنة التي كانت متوقعة ومرسومة

سلفا لتغير وجه التاريخ في المنطقة ، ولما قامت لليهود دولة في فلسطين . . لقد استغل الصهيونيون فرصة الهدنة ليحصلوا على السلاح الذي انهال عليهم من الدول الشيوعية ، وخصوصاً تشيكوسلوفاكيا ، رغم أن قرار مجلس الامن قد حظر تصدير السلاح إلى المنطقة . . ولكن هل ينتظر من اليهود أن يحترموا قرار مجلس الامن أو غيره ؟ . . لقد قتلوا الوسيط الدولي ، برنادوت ، الذي أرسلته الامم المتحدة لدراسة المشكلة على الطبيعة واقتراح الحلول المناسبة . . وحين شعر اليهود بأن برنادوت قد وضع مقترحات لم تعجبهم ، ولم تنصف العرب طبعاً ، قتلوه ، وانكروا معرفتهم بقاتله . . مع أن القتلة معروفون لدى القاصي والداني . .

— هل تغيرت الأوضاع بعد المعركة الأولى ؟ . .

— بوجه عام نعم . . وهذا أمر تجده فيما كتب عن القضية الفلسطينية ، وأنا انما اروي لك ما لم تقرأه في كتاب ، ولا دون فيما اعلم حتى الآن . .

كانت القوات السعودية ترابط في مواقعها المحددة ، وكانت الأوامر الصادرة الينا هي اتمام ما كنا قد بدأناه قبل الهدنة . . كانت مستعمرات العدو في النقب الجنوبي معزولة تماماً . . وكان العدو يحاول بشتى الطرق امداد تلك المستعمرات بالمؤمن . . لقد خاضت السرية الثالثة من الفوج الأول معركة تسمى « معركة الحليفات » ، وقد حقق جنودنا الهدف المنشود . . وردوا هجمات العدو ، واكملوا محاصرة جميع المستعمرات الواقعة في قطاعهم وابدوا كفاءة في استخدام السلاح ، بصورة قللت كثيراً من خسائرنا ونفذوا المهمة الموكلة إليهم . .

ورغم العون العسكري القوي الذي تلقاه العدو ، فقد ظلت قواتنا السعودية تواجهه وتنتصر عليه . .

هناك مثلا المعركة المسماة « معركة الدنقورُ » .. والدنقور ، هذه ، مستعمرة يهودية قائمة جنوبي غزة على مسافة أربعين كيلو مترا منها ، لقد قامت المصفحات السعودية بهجوم كاسح على هذه المستعمرة فور استئناف القتال ، وابدى العدو مقاومة عنيفة جداً ولكنه لم يلبث ان هزم ، بعد معركة استمرت بضع ساعات ، واستولينا على المستعمرة بعد فرار من بقي حيا من المدافعين عنها ، وغنمنا كميات كبيرة من مدافع الهاون والبنادق والذخائر ، أما خسائرنا — رغم ضراوة المعركة — فكانت جريحا واحداً ، والسبب هو كفاءة المقاتل السعودي وحسن تدريبه وإجادته لقواعد القتال . .

ماذا اذكر لك ايضاً يا ولدي ؟ . . هناك ، مثلا ، مستعمرة « النجبة » التي دارت حولها سلسلة من المعارك التي شاركت فيها القوات السعودية والمصرية والسودانية . . كانت « النجبة » حاضرة لست مستعمرات يهودية أخرى ،فكان من الضروري تطهير المنطقة منها لتأمين الاتصال ما بين القوات العربية عبر طريق المجدل — الفالوجا . .

لقد تمكنا من تطهير المنطقة من كل أثر للعدو ، عدا مستعمرة النجبة هذه . . وكانت قواتنا تتمركز في « كراتيا » و « دير سنيد » وهما مستعمرتان يهوديتان كنا قد استولينا عليهما من قبل لحماية الطريق المؤدي إلى غزة ، فشن العدو هجمات متلاحقة على « دير سنيد » بقصد اجلائنا عنها ، ولكنه لم يتمكن إلى أن يئس من ذلك وتوقف عن محاولة الاستيلاء على الموقع . .

بعد ذلك اجرت القيادة العامة تنقلات في مواقع القوات السعودية ، وكنت أنا بين الذين نقلوا إلى قطاع « كراتيا » ، بينما نقلت قوات أخرى إلى قطاع المجدل . . آه يا ولدي إن جسدي ليقشعر إذ اتذكر تلك الايام ، لاسيما ليلة معركة « كراتيا » . . لقد كان احتلالنا لهذا القطاع معناه فصل المستعمرات

الصهيونية الشمالية عن المستعمرات الجنوبية ، وهذا ، طبعاً ، ليس في صالح العدو ، ولذا فقد حشد لنا قوات ضخمة مدعومة بالمدرعات والمدفعية الثقيلة ، وقام بهجوم عنيف صددناه بقوة . . وارتد العدو ثم ما لبث أن كر علينا مرة ثانية فرددناه . . وتكرر هجوم العدو وارتداده مرة ثالثة . . ورابعة . . وخامسة . . وسادسة ولكن جند هذا البلد ظل صامداً في مثل صلابة الصخر . .

ثم كانت تلك الليلة التي هاجمنا فيها العدو مستغلا الظلام في محاولة للتسلل إلى مواقعنا . . ولكن انى له ذلك ونحن له بالمرصاد ؟ . .

يا لها من ليلة لا انساها ما حييت . .

لقد دار القتال في الظلام بعنف وضراوة اعجز عن وصفهما . . والتحمت قواتنا بقوات العدو مرات عديدة في القتال وجها لوجه . . واخيراً كلل الله تعالى جهادنا بالنصر ، ورددنا العدو على اعقابه مهزوما مدحورا ، بينما كان الصباح يرسل خيوط انواره الأولى ، ولم تكد المرئيات تتضح امامنا حتى تبين لنا اية معركة هائلة خضناها . .

والله يا ولدي لا ابالغ لو قات لك أننا رأينا حطام أسلحة العدو وقتلاه يملأون أرض المعركة على مدى البصر . . دبابات محطمة . . مصفحات ممزقة . . قتلى . . مدافع . . بنادق . . ذخائر . . كلها تركها العدو وولى هاربا . .

لقد تبين لنا أن احدى قنابل الهاون التي اطلقتها قواتنا سقطت داخل احدى مصفحات العدو . . صدفة نادرة ولكنها وقعت . . وبطبيعة الحال قتلت كل من كان في المصفحة ، وانفجرت بما فيها من ذخائر . .

انني ما زلت اذكر ذلك اليوم جيداً . . كان أول شوال . . أي أول أيام

عيد الفطر . . فكانت فرحة العيد مضاعفة في نفوسنا . . فاحتفلنا به . . واستولينا على ما تركة العدو المهاجم من كميات قليلة من المواد الغذائية دلتنا على أن مستعمرة « النجبة » المحاصرة كانت في اسوأ حال من حيث قلة الطعام والذخيرة . .

واخلد الخال علي إلى الصمت بعد أن وصل في حديثه إلى هذا الحد . . وطال صمته ، الامر الذي دعا هشام إلى النظر إليه نظرة متسائلة ، ولكن الخال ظل على صمته . . .

ولم يجد هشام بدا من السؤال :

ــ ثم ماذا ؟ . . هل هذا هو كل شيء ؟ . .

ــ كل شيء ؟ . . ماذا أقول لك بابني ؟ . . . إنني لم ارو لك سوى سطور قلائل من سفر الملاحم البطولية الرائعة التي خاضتها القوات السعودية على أرض فلسطين ، وحتى عندما اتخذ مجلس الامن قراره باعلان الهدنة إلى أجل غير مسمى ، استطعنا أن نضيف إلى ذلك السفر صفحات أخرى من الامجاد . .

ذلك أن ما توصل إليه الوسيط الدولي الآخر « رالف بانش » من عقد اتفاقيات للهدنة ، لم تشترك المملكة في محادثات أي منها ، كان يستدعي إدخال تعديلات واسعة في مواقع القوات العربية في فلسطين ، وهكذا اصدرت القيادة العامة اوامرها بسحب القوات من بعض المواقع إلى مواقع أخرى يمكن معها الدفاع عن الأراضي التي ظلت تحت السيطرة العربية ، تجاه عدو اعتاد على الغدر والطعن في الظلام . . وبالفعل . . لم تكد القوات العربية تبدأ تحركاتها حتى استولى العدو على موقع رئيسي في منطقة « الحليقات » التي تسيطر على الطريق الرئيسية بين المجدل والفالوجا والمستعمرات اليهودية

الشمالية والجنوبية ؛ وكان هذا الموقع هو « تبة الجيش » الذي كانت استعادته ضرورية لسلامة القوات العربية . .

ولما كانت القوات السعودية هي أقرب القوات العربية إلى ذلك الموقع ، فقد كلفت بمهمة استعادة « تبة الجيش » ، فقام الفوج الأول من القوات السعودية بالمهمة ؛ واستطاع اجلاء العدو عن الموقع بعد معركة ضارية وتمركز فيه إلى أن تم تطبيق خطة الانسحاب . كذلك اسندت للقوات السعودية ، ومعها وحدات سودانية ، مهمة حماية مؤخرة القوات المنسحبة من المجدل إلى غزة ، وقد قامت قواتنا بعمليات اعاقة نموذجية استعملت فيها مختلف أنواع الاسلحة الثقيلة والخفيفة . .

ولقد تبين لنا فيما بعد ، ومن خلال ما تجمع لدى القيادة السعودية من معلومات ، أن التعليمات كانت قد صدرت لقوات العدو بتحاشي الصدام مع القوات السعودية ، وعدم الاشتباك معها في أية معركة ، فانت تعلم — ولا شك — كم يخشى العدو على جنوده ، ويحاول الحفاظ عليهم بشتى الطرق ، وما طريقته في الغدر والمباغتة إلا بقصد التقليل من خسائره البشرية . . إنني ، يا ولدي ، استطيع أن أقول لك ، من واقع ما عشت من احداث تلك الحرب وما عاشه اخواننا العرب في مختلف الجبهات ، أن العدو الصهيوني يتحاشى المواجهة ، ويخشى المجابهة ، وانه لا يخوض حروبه إلا متسللا ، وغادراً . .

أجل يا ولدي ، تنهد الخال وهو يصل في حديثه إلى هذا الحد ، لقد عدنا من فلسطين وما هزمنا قط في معركة واجهنا العدو بها ، بل لطالما رفرفت رايتنا خفاقة في اعالي المستعمرات والمواقع العدوة التي استولينا عليها . عدنا بعد أن خلفنا نفرا كريما من شهدائنا الابطال الذين رووا أرض فلسطين بدمائهم الزكية ، واثبتوا أننا جديرون بالمسئوليات الجسام التي القتها المقادير على

عواتقنا ، واننا في مستوى شرف الانتماء إلى هذا البلد الطاهر ، الذي نذر نفسه فداء للاسلام ، وعلى كل أرض اسلامية . . .

١٠

اسند هشام رأسه إلى أعلى مقعده ، وارخى يديه على جانبيه ، ومد ساقيه إلى الأمام ، وراح في شبه اغفاءة ، تدل على أنه قد وجد ـ أخيراً ـ مجالا لكي يختلي بنفسه ، ويراجع أفكاره ، ويعيد ترتيب خواطره ، بينما كانت الطائرة النفاثة الضخمة تشق الاجواء على ارتفاع اربعين ألف قدم في طريقها من الرياض إلى جده . . .

هذه أول مرة يجد نفسه فيها وحيداً ، ويستطيع أن يفكر بهدوء ، بعيداً عن ضجيج زملائه ، واحاديثهم ومرحهم ، وبعيداً ـ كذلك ـ عن التنقل بين دوائر حكومية ، حاملا اوراقه هنا وهناك ، ليستكمل الاجراءات كي ينتسب إلى الجيش ، ويصبح في عداد منسوبي وزارة الدفاع والطيران . .

الجيش ؟ . .

وزارة الدفاع والطيران ؟ . .

وارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيه حين وصل بافكاره إلى هذا الحد . . لقد عادت إلى ذهنه الضجة الهائلة التي احدثها قراره بالانتساب للقوات المسلحة ، كمهندس ، بين زملائه . .

وازدادت ابتسامته اتساعا وهو يتذكر ما حدث صباح اليوم . .

كان نائماً في سريره ، مستغرقا في سبات عميق ، اثر ما بذل من مجهود

في اليوم الفائت ، واستيقظ على صوت ضجة زملائه المعتادة ، حين اقتحموا عليه غرفة النوم وهم يقهقهون في مرح ، وصاح به احدهم :

– ما هذا ؟ . . تنام في وضح النهار ؟ . . ماذا اصابك ياهشام ؟ . .

فقال تركي على الفور :

– يا جماعة حرام عليكم . . سيبوه . . لعله وفق إلى العمل كعسة . .

وارتفعت الضحكات مرة أخرى ، والتف الزملاء حول هشام الذي نهض من سريره ، واتجه إلى الحمام ليغسل وجهه ، بينما استمر زملاؤه في لغطهم ومرحهم . .

قال عبد العزيز معلقا على كلام تركي :

– عسة .؟ . . عسة مين ياعم . . صاحبنا دخل وزارة الدفاع . .

– صحيح ؟ . .

هتف الزملاء جميعاً بصوت واحد ، بلهجة فيها من الدهشة وعدم التصديق الشيء الكثير . . . وتدافع الزملاء نحو عبد العزيز والتفوا حوله يريدون أن يفهموا منه الحقيقة . .

وحك تركي رأسه حائرا وقال :

– إذا كانت الحكاية فيها وزارة الدفاع والطيران فمعنى هذا أن أخانا هشام سوف يتدرب على اطلاق النار . .

وقهقه الزملاء مرة أخرى من لهجة تركي الخاصة التي اعتاد أن يضحكهم بها دائماً . .

وخرج هشام من الحمام وهو يجفف وجهه ويديه بالمنشفة ويقول :

– ايش فيه ؟ . . ليش الضجة والصجة هاذي . . غريبة يعني انه الواحد يدخل وزارة الدفاع . .

فقال صلاح :

– طبعاً ليست غريبة . . بل بالعكس . . هذا شرف عظيم . . ولكن بالنسبة لك . . لم تأت مرة واحدة على ذكر وزارة الدفاع كهدف من اهدافك بعد التخرج . . كنت تركز دائماً على المعيدية . . أو على العمل كمهندس في مكة . . فماذا جرى يا ترى حتى غيرت رأيك ؟ . .

ورد هشام باقتضاب :

– قناعة شخصية . .

– مفهوم أنها قناعة شخصية . . ولكن ما الذي غيرك . . هذا هو السؤال . .

وعلق هشام المنشفة في مكانها ثم جلس على كرسيه وهو يقول ببساطة :

– هذه قصة طويلة . . ولكن المهم هو . . ما رأيك في ذلك ؟ . .

– رأيي ؟ . . انه اختيار موفق ولا شك . . إن خدمة الوطن في أي ميدان هي شرف للمواطن . . فكيف إذا كان ميدانها هو القوات المسلحة بالذات ؟ . . ان جميع فرص الحياة متاحة امامك ، في وزارة الدفاع ، بشكل أفضل . . التدريب . . امكانات العمل . . البعثات . . السكن . . البدلات . . الحق انها فرصة ذهبية . . .

وكان تركي يتابع الحوار صامتا ، وهو يوجه نظرة إلى المتحدثين . . تارة إلى صلاح . . وتارة إلى هشام ، وإذا به يتدخل قائلاً :

ـ يا جماعة . . يا أخ صلاح . . الدين النصيحة . . لا تودوا الولد في داهية . . مالك ومال الدفاع يا هشام . . دفاع ؟ . . دفاع ماذا ياهشام ؟ . . قنابل . . صواريخ . . دبابات . . طائرات . . رادارات . . معارك . . إلى آخره . . إلى آخره . . ايش لك أنت ياهشام في هذا كله . . وما الذي ورطك .:

فضحك هشام ضحكة هادئة وقال :

ـ ورطني ؟ .. بل قل بمن اصطبحت يوم قررت أن اتخذ هذا الاتجاه ... انني سعيد جداً به . . سعيد وشديد الارتياح . . .

فتأمله تركي غير مصدق وقال له :

ـ هل تدري أنهم قد يعينونك في أقصى الشمال . . أو في اقصى الجنوب هل نسيت رغبتك في العمل بمكة ، قرب الوالد . . والبيت . . والأهل . .

ـ صحيح انني اتمنى لو اعين في مكة . . ولكن الجندية هي الجندية . . وعلي أن اطيع الأوامر ولو قذفوا بي إلى الربع الخالي . .

ووضع صلاح يده على كتف هشام بتأثر وقال :

ـ اهنئك يا هشام . . أنت اليوم انسان جديد تماماً . . لم اكن اتصورك هكذا . . لا تؤاخذني . . ولكنني اقول الحق . . لم أكن اتصورك هكذا ابداً . . ألف مبروك . . واتمنى لك النجاح من كل قلبي . .

وقضى الشباب الوقت بعد ذلك في استكمال اجراءات انفكاكهم عن الجامعة بصورة نهائية ، وليس لهم من حديث سوى عن المستقبل . . هذا يتمنى بعثة والثاني يتمنى الالتحاق بالدفاع الجوي . . والرابع عزم على الالتحاق بالقوات الجوية الملكية . . والخامس ينوي فتح مكتب . . وكان هشام اقلهم كلاما ،

فهو قد اختار بعد أن توكل على الله ، وهو مطمئن إلى حسن اختياره ، وهو – فوق ذلك كله – قد قطع شوطا بعيداً على طريق الالتحاق بوزارة الدفاع والطيران . وتنهد بارتياح ، وراح يصغي إلى احاديث زملائه ، وهم يودعون بعضهم بعضاً ، ويتبادلون العناوين وارقام التليفونات . . ويتواعدون على استمرار اللقاء في كل مناسبة . .

* * *

وصحا هشام من خواطره على صوت مضيف الطائرة وهو يقول :

– أيها السادة . . اننا نقترب من مطار جده الدولي . . وقد اضيئت أشارة ربط الاحزمة . . نرجو ربط الاحزمة استعداداً للهبوط . .

وربط هشام حزامه ، ورفع ستارة نافذة الطائرة ، ليلقي نظرة على مدينة جده ، وقد تلألأت بالأنوار ، والطائرة تهبط في سمائها شيئاً فشيئاً . .



وفي مكة كانت فرحة اللقاء الغامرة ، بين هشام واهله . .

عندما وصل إلى المنزل ، فتح الباب بمفتاحه الخاص فقد كان يريد أن يفاجىء اهله بقدومه . . وكانت امه أول من رآه . . فجمدت برهة وهي تنظر إليه بذهول ، ثم شع وجهها بفرح طاغ ، واطلقت زغرودة حارة بينما كان هشام يندفع إليها ليعانقها ، ويتبادل معها القبلات ، وكانت الزغرودة كافية لكي تتفتح أبواب الغرف دفعة واحدة ، ليخرج من احدها ابوه ، ومن الاخرى اخواته . .

وهاج البيت وماج ، فالكل يقبله ويعانقه ، والكل ترتسم الفرحة التي

لا توصف على وجهه ، وقد اختلطت كلمات التهاني بكلمات الترحيب ، وامتزجت الضحكات بالدموع . .

وقال الاب بفخر وهو يشد ولده إلى صدره معانقا :

- مرحباً بك يا ولدي . . مرحباً بمهندسنا الكبير . . والله يا ولدي ربنا سبحانه وتعالى قد اكرمنا وفرحنا . . ولكن كان عليك أن تخبرنا بقدومك لكي نعد لك حفلة تليق بك . .

وقالت الام والفرحة تلمع في عينيها :

- الناس كلهم في الحارة يبغوا يفرحوا بك . . وكمان عمك وخالاتك . . كل الناس بيسألوا عنك . . والله يا ولدي فرحتنا كبيرة . . . الحمد لله الذي اكرمنا بنجاحك . .

واجاب هشام وقد اختنق صوته بالتأثر :

- الحمد الله . . هذا كله ببركة دعائكم . . الله يحفظكم جميعاً . .

وتوجه الجميع إلى غرفة الجلوس ، حيث راحوا يكررون ترحيبهم به وتهانيهم بنجاحه . .

وقال الوالد :

- بالمناسبة . . خالك اتصل بنا امس من الرياض . . واخبرنا بما تم معك ... مبروك مرة أخرى يا بني . .

وبدا على الأم وكأنها غير مقتنعة بما قاله الخال ، إذ لزمت الصمت اثر عبارة الوالد ، فلاحظ هشام ذلك فقال لها :

ـ هه . . . لم تقولي لي مبروك على العمل في وزارة الدفاع . .

وردت الام حائرة :

ـ والله ما ادري ايش اقول يا ولدي . . مسألة وزارة الدفاع هاذي ماني فاهماها . . . أنا كنت عارفة انك تبغى تشتغل هنا عندنا في مكة . . وخالك يقول انهم يمكن بنقلونك في أي مدينة تانية . . .

وضحك هشام وهو يجيب :

ـ الله اعلم فين ينقلوني . . الواحد صار في الجيش . . والجيش حاجة تانية . . اوامر . . وطاعة . . ما في غير كده . . .

وتنهدت الام وردت بسذاجة :

ـ برضه ما انا فاهمة حاجة يا ولدي . . بس خالك يقول انهم راح يعملوك ظابط . .

وصفقت اخته الكبيرة رجاء وقالت باعجاب :

ـ يا سلام . . ظابط . . يا ترى بكم نجمة ؟ . .

فقال هشام باسما :

ـ مبدئياً . . .بنجمتين . .

ووجهت رجاء حديثها إلى أمها :

ـ ايش تبغين احسن من كده يا أمي ؟ . . وتشوفي ابنك ، اسم الله عليه ، وهو حاطط على كل كتف نجمتين . .

ولم يبد على الام أنها قد اقتنعت بعد ، فعادت تتنهد وهي تقول :

– كل اللي يقدره ربنا طيب . .

ونهضت رجاء ، وجذبت هشام من يده وقالت له ضاحكة :

– داحين جاء دورنا . . . تعال معانا . . . عندنا حديث طويل معاك . .

فقالت لها امها محتجة :

– لسه دوبنا شفناه . . خليه معانا شوية . .

فقالت رجاء وهي تجذب اخاها من يده بقوة اكثر :

– لا . . لا . . ياللا . . تعال معانا . .

ونهض هشام وهو يقول ضاحكا :

– امري لله . . عن اذنكم . .

ودخل مع اخواته إلى الصالة الداخلية ، فاحطن به وهن يرددن عبارات الترحيب والتهاني . .

وقالت رجاء :

– والله رفعت راسنا يا شوشو . . رفعت راسنا . .

– قلت لك أكثر من مرة . . لا تناديني شوشو ومو شو . .

– ايش تبغانا نناديك اجل ؟ . .

– نادوني باسمي . . هشام . . أو بالاصح . . المهندس هشام . .

– الله الله . . ابتدينا نتكبر . . .

– استغفر الله . . هذا ليس كبرياء . . انه حق من حقوقي . . وإذا كنتم تبغوا تدلعوني صحيح . . لازم تنادولي باشمهندس . .

– حاضر يا . . باشمهندس . .

وضحكت البنات . وشاركهن هشام الضحك . .

وقالت له اخته الوسطى سناء :

– اين ستعمل يا . . باشمهندس . . ؟

– لا ادري بعد . . انني ما زلت في مرحلة اجراءات الالتحاق . . ولكن مكان العمل ليس بيدي . .

فعلقت رجاء :

– اينما عينت خير وبركة . . والله لو خلقني الله شابا لما عملت إلا في وزارة الدفاع . .

– ايش السبب ؟ . .

– كده . . لانني اشعر بالفخر كلما قرأت شيئاً عن قواتنا المسلحة . . وأشعر بقلبي يتوثب بين ضلوعي كلما رأيت عنها اخبارا أو مواضيع في التلفزيون . . . شيء يهز النفس حتى الاعماق . . الف مبروك يا خوي . .

– يعني . . لو عينوني في شرورة أو تبوك . . أو بالظهران . . ما تزعلي ؟ . .

– ليش ازعل ؟ . . كله وطننا . . وكلها أرضنا . .

– بس ما راح اقدر اشوفكم دايما . .

– ياسيدي ربنا يصبرنا . . ايش نسوي . . المهم انك تدور على مستقبلك وتشوف شغلك . .

وطال الحديث وتشعب ، وراح هشام يجيب على اسئلة اخواته اللائي كن يصغين إليه بكل جوارحهن ، إلى أن دخلت الام وهي تقول ضاحكة :

– ايش هاذا . . هو هشام لكم وحدكم وإلا ايه ؟ . . ياللا يا ولدي . . أنا حضرتلك حاجة تاكلها . . ولو كنا عارفين انك جاي الليلة كنا عملنا لك حاجة ثانية . .

– تسلم ايديكي يا امي . .

ونهض هشام مغادرا الغرفة ليتهيأ لتناول الطعام ، واومأت الام إلى البنتين أن تخرجا بعد أن تبادلت نظرة خاصة مع رجاء ، وما ان انفردتا حتّى قالت الام بلهفة واهتمام :

– هه . . كلمتيه ؟ . .

– لا والله . .

وبدا الكدر على الام فسارعت رجاء إلى تبرير موقفها :

– ايش اسوي . . البنات موجودين . . وانا كان قصدي لما سحبته من يده اني اجي هنا انا واياه وحدنا . . لكن انتي شفتّي . . البنات دخلوا معانا . .

– خسارة . . .

– ولا يهمك يا امي . . أنا اكلمه . . .

– ضروري . . لانه داحين بعد ما امن مستقبله . . صار لازم يتزوج ويعمل عيله زي الناس . .

– أنا اكلمه . . ولا يهمك . .

وخرجت الام وابنتها ، وهمست الام وهي تتنهد :

ـ ربنا يقدم ما فيه الخير . .

١٢

ولم ينم هشام تلك الليلة . .

فبعد الطعام ، عادت العائلة لتلتف من جديد حوله ، الاب يكرر الحمد والشكر لله إذ من على هشام بهذا التوفيق ، والام تؤمن على كلام زوجها بحرارة ، والبنات يتحدثن بصوت واحد ، يردن أن يعرفن كيف كانت حياة هشام في الجامعة ؟ وكيف ستكون في وزارة الدفاع والطيران ؟ وهشام يرد على هذه ، ويجيب على سؤال لتلك ، ولكنه كان يشعر في قرارة نفسه انه مشتت الفكر ، موزع القلب ، فاذا كان قد اتكل على الله واختار طريقه ، وهيأ نفسه للقبول بأن يبدأ حياته في أي مكان من أرض الوطن ، فان هذه المشاعر الفياضة التي لمسها في أهله جميعاً ، عادت توقظ في نفسه امنيته القديمة في أن يعيش مع العائلة في مكة ، وان يستأنف في كنفها حياته الوادعة التي الفها واحبها ، وراح يتساءل في سره عما إذا كان من المحتمل أن يصدر امر تعيينه في مكة ؟.. آه لو حدث هذا . . إذن لشعر بأن حياته قد اكتملت ، وانه لم يعد ينقصه في دنياه شيء . .

وانتبه من خواطره على صوت اخته رجاء وهي تسأله بلهجة هي بين الجد والمداعبة :

ـ انت ما انت حاسس يا خوي انه حياتك صارت داحين ناقصها شيء ؟..

ونظر إليها باستغراب ، فهل نفذت إلى ما كان يدور في ذهنه ، وعرفت

أنه يفكر بما تقول تماماً ؟ . . وان النقص الذي يشعر به هو انه قد يضطر للابتعاد عن عائلته لمدة لا يدري مداها هذه المرة ؟ . .

وقال لها ببساطة :

– أنا في الحقيقة لا ينقصني سوى أن استأنف حياتي في مكة معكم . . أجل . . هذا هو الذي ينقصني . .

وتساءلت رجاء بلهجة ذات معنى :

– بس ؟ . .

فرد هشام حائراً :

– ما ادري ايش تقصدي . . .

وكانت الام تتابع حديث رجاء مع اخيها باهتمام شديد ، وابعد الاب مبسم الشيشة عن فمه مترقبا الجواب ، أما « البنات » فلم يبد لهن في السؤال شيء غريب . .

وقالت رجاء بنفس اللهجة :

– يعني . . ما تشوف انه صار لازم نزوجك ونفرح بك ؟ . .

وهتف هشام بدهشة شديدة :

– تزوجوني ؟ . . وتفرحوا بي ؟

وضحك الجميع . . .

وقالت الأم بحرارة :

– أي والله يا ابني . . غايتي ومنى عيني اني اشوفك كده متزوج وافرح بعيالك قبل ما اموت . .

ـ بعيد الشر عنك يا امي . .

وعادت رجاء تتساءل باصرار :

ـ هه . . ايش قلت ؟ . .

وقلب هشام شفته ، وهز رأسه في حيرة شديدة ، فهذا الموضوع لم يخطر بباله بصورة جدية ابداً :

ـ والله . . ما ادري ايش أقول . . على كل حال أنا من رأيي انه الواحد ما لازم يتزوج قبل ما يؤمن مستقبله . . ويوضع اساس لحياته . .

وقالت الام بسرعة :

ـ هو ده اللي بنقوله . . انت داحين ماشاء الله صرت مهندس قد الدنيا . . وبكره تتعين في . . هذي الوزارة اللي قات عليها . . يعني صار ماينقصك غير عروسة حلوة . . .

واضاف الاب :

ـ الحقيقة يا ابني انا اهنيك على التفكير ده . . ده يدل على انك صرت رجل ناضج . . وتقدر المسئولية . . أنا في رأيي انه الواحد لازم يتزوج في وقت مبكر حتى يفرح بأولاده . . ويشوفهم وهم بيكبروا قدام عينه . . زيي أنا مثلا . . أنا ولله الحمد ربنا اكرمني اني اشوف ابني رجّال وبناتي صبايا . . ده سببه اني تزوجت في وقت مبكر . . .

واستلمت رجاء زمام الحديث :

ـ لك عندي عروسة انما . . ايش ؟ . . روعة . . .

وقالت الأم بسرعة :

ـ أصل العروسة زميلتها . . وتقرب لنا من بعيد . . اسمها فاطمة . .

وارتفعت اصوات التأييد من البنات بصورة ادهشت هشام ، فراح يجيل بصره في ابيه وامه واخواته وقد ارتسم على وجهه تساؤل واضح :

ـ فهموني ايش الحكاية . . كأنكم مدبرين المسألة . . وطابخينها . .

ـ طابخينها ومهيئينها كمان . . وما ناقص إلا انك تقول ايوه . . .

قالت رجاء ذلك وهي تنظر إلى اخيها باسمة . .

وقال الاب :

ـ هيه . . ايش قلت . . أنا من جهتي موافق . . المهم انك توافق انت . .
واطرق هشام مفكرا . .

ان ما يسمعه شيء جديد عليه ، ولم يسبق للعائلة قط أن تحدثت في هذا الموضوع ، وإذا بها الآن ـ أبا واما واخوات ـ تطرحه بصراحة وبساطة مترقبة جوابه . .

وقالت الأم وكأنها تستحثه على الجواب :

ـ ايش قلت يا ولدي الله يهديك . .

ورفع هشام رأسه وقال ببطء :

ـ الحق انني فوجئت تماماً . . والله فوجئت . . لم يخطر هذا ببالي . . كنت مستغرقا في الدراسة استغراقا كليا . . وكنت ابعد عن ذهني أي خاطر غير النجاح والحصول على الشهادة . .

وصمت هشام ، وظلت العيون معلقة على شفتيه بانتظار ما سيقوله بعد ذلك ، ولكنه لم يقل شيئاً . .

ولعله حسب أنه قد قدم الإيضاح الكافي ، وعرض وجهة نظره بصورة لاتحتاج إلى بيان . .

– هه . . وبعدين ؟ . .

تساءلت رجاء وقد بدا شيء من القلق يتسلل إلى قلبها . .

– ابداً . . بس . . .

وضربت الأم صدرها بحركة عفوية وقالت بدهشة :

– ايش يعني يا بني . . ما تبغى تتزوج ؟ . .

– لسّه بدري على الزواج يا أمي . . .

وساد الصمت الغرفة ، فإن اللهجة الحاسمة التي تكلم هشام بها ، لم تترك مجالا لأي تعليق ، واتجهت الانظار إلى رب الأسرة وكأنها تنتظر كلمته . .

وتكلم الاب بتؤده :

– والله يا ابني . . أنا طول عمري كنت أقول أن زمننا غير زمنكم . . وكنت معاهدا نفسي منذ السنوات الأولى من زواجي على أن أترك لأولادي حرية اتخاذ قراراتهم ضمن حدود ما اراه في مصلحتهم . . فانا وافقتك دون تردد حين اخترت دراسة الهندسة . . وقبل أيام عندما فاتحني خالك في أمر التحاقك بوزارة الدفاع قلت له إن الامر متروك لك ، فاذا وافقت فلا مانع عندي . . والآن اجدني امام موقف مماثل . . عليك ، أنت ، أن تتخذ فيه قرارا . . وهو على اية حال قرارك . . فاذا رغبت في الزواج فانني ساقدم لك كل عون ممكن . . وإذا كان لك رأي آخر . . فأنت حر . .

وعاد الصمت يسيطر على الغرفة بعد أن انهى الأب كلماته ، حتى رجاء التي كانت شديدة الحماسة لمشروع الزواج ، وعرضته على اخيها بلهجة تساوى فيها الجد والمزاح ، شعرت بأن المسألة جدية أكثر مما كانت تتصور ، وأنها تحتاج إلى بحث وتفكير ، مع أنها لم تكن تتوقع اطلاقاً أن يتردد اخوها لحظة واحدة في الموافقة ، لاسيما وانها تثق بأنها قد احسنت الاختيار حين رشحت صديقتها « فاطمة » لتكون زوجة لهشام ، وفاتحت ابويها في ذلك . .

وحمدت رجاء ربها في سرها على أنها لم تسر في الموضوع خطوات فعلية وان حديثها مع « فاطمة » حوله كان — كحديثها الآن مع هشام — أقرب إلى المداعبة منه إلى الجدية ، وان عليها — ومعها امها — معالجة الموضوع بأسلوب آخر . .

وقالت الأم لهشام بلهفة :

— ما تتكلم يا ابني . . الله يهديك . .

ولم يجد هشام ما يجيب به ، فاكتفى بان قال لامه بهدوء :

— ما زلت أقول ، يا اماه ، انه لسّه بدري عليّ . . .

وتبادلت الام والأخت الكبيرة نظرة ، فهمت الاثنتان معناها على الفور ، وهو أن عليهما أن تعالجا هذا الموضوع بأسلوب آخر . .

وعاد للسهرة مرحها وجوها الأليف ، واستأنف الجميع احاديثهم وقد عزموا — كما قالوا — على احياء السهرة حتى الفجر ، حيث ابدى هشام رغبته باداء الصلاة في رحاب الحرم المكي الشريف . .



١٣

وفي رحاب بيت الله العتيق ، طاف هشام وصلى ، ثم انتحى ركنا من الحرم الشريف ، اخذ يستعيد فيه ذكرياته في المدينة الطاهرة ، وفي مسجدها الحرام ، إذ كان يجد في اروقة المسجد ملاذا يفيء إليه وهو يستذكر دروسه ، لقد قطع المسافات في اروقة المسجد مئات المرات وهو يستعد لامتحان الشهادة الثانوية ، مؤديا الصلاة هنا وهناك من صحن المسجد ، طائفا بالبيت ، مقبلا الحجر الأسعد ، متوجها — من ثم — إلى الامتحان ، مطمئن النفس ، منشرح الصدر ، مستبشرا بتوفيق الله الذي ما خذله ولا خيب له املا . .

وأحس ، مرة أخرى ، كم يكون سعيداً لو أتيح له المجال للعمل في مكة والعودة إلى مرابع صباه ، ومراتع ذكريات فتوته ، والحياة مع ابيه وامه واخواته ، ولكنه عاد فتشدد ، وحدث نفسه بانه لا يجوز له أن يبدأ معركة الحياة الحقيقية بامنية قد تتحقق وقد لا تتحقق ، وان عليه أن يواجه الحياة بقوة وصلابة ، وان يختار قراره بارادة وعزيمة .

وقضى هشام نهاره في استخراج الأوراق الرسمية التي طلبت منه ، لاستكمال اجراءات تعيينه في القوات المسلحة ، وعاد إلى البيت ليجد خاله هناك . .

ولم يكد الخال يره حتى اقبل عليه معانقا وهو يقول :

— مبروك يا بني . . لقد انتهى كل شيء على خير ما يرام . . .

ونظر هشام إلى خاله متسائلا ، فاردف هذا قائلا بابتسامة عريضة :

— لقد نجحت في الكشف الطبي . . هذه كانت اصعب عقدة كنت اتخوف

منها . . ولكن . . الحمد لله . . ابلغني المهندس عبد الرحمن بأن النتيجة جاءت في صالحك ، وان اجراءات تعيينك لن تستغرق وقتاً طويلاً ، وان عليك استكمال اوراقك في مكة والعودة سريعاً إلى الرياض . .

واصغى هشام إلى خاله والفرح يعتمل في نفسه ، إذن فهو صالح للخدمة في القوات المسلحة ، وان بينه وبين ذلك مسافة غير طويلة . .

واستفاض الخال في الحديث وهو يحاول اعطاء هشام اكبر قدر ممكن من المعلومات عما ينتظره في الايام القليلة المقبلة . . قال له إنه سيعين برتبة ملازم أول في سلاح المهندسين ، وأنه سيلتحق بدورة تدريبية في كلية الملك عبد العزيز الحربية ، لاعداده للحياة العسكرية ، وتأهيله للخدمة في القوات المسلحة ، وختم الخال حديثه قائلاً :

– من حسن حظك يا ولدي أن موعد بدء الدورة التدريبية قريب جداً . . فهي دورة خاصة بالمدنيين المتخصصين من حملة المؤهلات العالية كالأطباء والمهندسين والحقوقيين ، إلى غير ذلك من التخصصات التي تحتاج إليها القوات المسلحة . . إنهم يحددون موعدها كلما تجمع لديهم عدد كاف من هؤلاء المتخصصين ، ليصار إلى تدريبهم وتأهيلهم للحياة العسكرية ، وتوزيعهم من ثم على الوحدات حسب تخصصاتهم . .

وتساءلت الأم بسذاجة وهي تستمع إلى كلام أخيها :

– يعني ايش راح يسوي في هاذي الدورة اللي تقول عنها ؟ . .

فقهقه الخال وهو يجيب :

– يصير رجل عسكري . . يتعلم كيف يمشي مشية عسكرية . . كيف يؤدي التحية . . يتعلم انظمة الجيش . . يتعلم على استعمال الأسلحة . . وضرب النار . .

وشهقت الام وهي تقول :

– ضرب النار ؟ . .

وعاد الخال يضحك وهو يجيبها :

– أجل كيف يصير عسكري إذا ما تعلم الحاجات هذه ؟ . .

وقالت الام وهي تشعر بأنها لا تفهم كل ما تسمع :

– عسكري ؟ . . ما قلتوا انه راح يصير ظابط . .

– ايوه يا ستي . . ضابط . . بس عسكري دي بيقولوها على كل اللي بيشتغلوا بالجيش والقوات المسلحة التانية . . فهمتي . .

وتمتمت المرأة :

– والله ما انا فاهمة حاجة . . بس بادعي ربنا انه يوفقه . . ويأخذ بيده ويهديه . . ويجعل بنت الحلال اللي تريحه من نصيبه . .

١٤

وقف هشام في الصف مع زملائه في الدورة ليستلم المهمات التي سيحتاجها خلال الدورة التدريبية في كلية الملك عبد العزيز الحربية . .

وراح الجندي المكلف بتسليم العهد ، يكدس امام هشام عهدته : بطانيات... خوذ . . قبعة ميدان . . بيريهات . . خوذة ميدان . . جعب . . بسطار . . ملابس رياضية . . ملابس داخلية . . . بيجامات . . أوفرهول . .

وحمل هشام عهدته ، وتوجه بها إلى العنبر ، وهو لا يكاد يرى طريقه إلا بصعوبة ، لضخامة الحمل الذي يحمله . .

أجل . . . لقد بدأ هشام حياته العسكرية . . استكمل اجراءات التعيين . . والتحق بهذه الدورة التدريبية التي سوف تستمر أربعة اشهر ، يتم خلالها اعداده للحياة العسكرية ، وبذلك يستقبل حياة جديدة كل الجدة ، وتختلف تماماً عن حياته السابقة . .

كان هشام بالأمس عند المهندس عبد الرحمن الذي ابلغه بالجهة التي سيلتحق بها بعد تخرجه من الدورة :

ـ حائل . .

هكذا قال له المهندس عبد الرحمن ببساطة تتفق مع السنوات الطويلة التي قضاها في الخدمة ، فهو كعسكري لم يكن يشعر بأن اية بقعة من أرض الوطن تختلف في شيء عن اية بقعة أخرى . .

ولاحظ المهندس عبد الرحمن ان هشام قد اجفل عندما سمع اسم المكان الذي سيعمل فيه ، فابتسم قائلاً :

ـ ماذا بك ؟ . . ألم يعجبك المكان . ؟ !

وحار هشام كيف يجيب ، ثم تمتم بصوت خافت :

ـ حائل ؟ . . اعتقد انها بعيدة . . .

ـ بعيدة عن ماذا ؟ . .

ـ عن الرياض . . عن مكة . . . عن . .

ـ اسمع يا هشام . . نحن العسكريين ليس عندنا قريب وبعيد . . كل الأماكن سواسية لدينا . . . ولكل بقعة من أرض الوطن قوة مسلحة تحميها وتذود عنها . . برا أو بحرا أو جوا . .

– هذا ما اقوله انا . . بل لقد قلته لأهلي عندما تساءلوا عما إذا كان هناك احتمال بان اعمل في مكة . .

– لم بدت عليك الدهشة إذن ؟ . .

– لقد فوجئت . . هذا كل شيء . . ولكنني ارتحت الآن . . فقد عرفت اخيراً في أي مكان سوف تكون خدمتي . .

– قل لي . . هل لديك فكرة عن حائل ؟ . .

– ليس أكثر من معلومات بسيطة . .

– ستعرفها جيداً إذن فيما بعد . . اسمع . . أستطيع أن ازودك الآن بمعلومات أولية إذا شئت . . انها تبعد عن الرياض حوالي ثمانمائة وسبعين كيلو متراً . . وتقع وسط منطقة زراعية خصبة في سهل منبسط . . تسقط فيها الامطار بكثرة في الشتاء ، وتحيط بها هضاب قليلة الارتفاع من الجهة الشمالية كما تحيط بها الاشجار والنخيل من كل جانب . . ماذا تريد أن تعرف أيضاً ؟ . . آه . . جوها معتدل في الصيف ، أي أنك لن تحتاج إلى مكيف ، وتشتهر بالزراعة وتربية الماشية ولذا فاللحوم والخضار رخيصة جداً فيها . . . وهناك برك وآثار من أيام السيدة زبيدة زوجة الخليفة العباسي هارون الرشيد . . . وفيها ايضاً آثار قديمة أخرى . . . ماذا تريد أن تعرف أيضاً . .

ووجد هشام نفسه يجيب المهندس عبد الرحمن باسما :

– سوف استكمل باقي المعلومات بنفسي عندما اذهب إليها . .

وتوقفت أفكاره عند هذا الحد ، فقد وصل إلى العنبر ، وراح يرتب العهدة التي صرفت له في الدولاب الذي خصص له . .

ولاحظ هشام أن الصمت يخيم على المكان ، فكل من زملائه منشغل

بنفسه ، يرتب عهدته ، ويبدأ في ارتداء « الأوفرهول » و « البسطار » وقد ارتسم الجد على وجوههم ، ومع أن بعضهم كانوا اصدقاء وزملاء دراسة ، إلا أن احداً ما لم يخاطب زميله ، وإنما انشغلوا جميعاً في الاستعداد للسير شوطا آخر على طريق الحياة العسكرية . .

١٥

اصطف الطلبة في إحدى ساحات الكلية ، وكان الارتباك يبدو في كل حركة من حركاتهم ، فبعضهم يدير عنقه في ضيق ، وآخرون يحاولون ضبط وقفتهم وهم يرتدون « البسطار » الثقيل ، وبعضهم قد ثنى اكمام الاوفرهول لانها اطول من يديه ، ولكن أيا منهم لم يحاول أن يرى إلى حال زميله لأن همومه الخاصة كانت تكفيه . . .

وشد الشباب قاماتهم ووقفوا في حالة « تأهب » حين سمعوا ايعازاً بذلك من الرقيب الذي توجه نحوهم في الساحة وهو يمشي بخطوات عسكرية واسعة . .

ودبت الرهبة في قلوب الشباب ، فهذا الرقيب هو الذي سوف يدربهم على ما يسمى « تدريب المشاة » ، ومع انهم يعتبرون ضباطا ، فانهم كانوا ملزمين بطاعته وتنفيذ تعليماته . .

ووقف الرقيب أمام الطلبة ، وادى التحية ، ثم راح يجيل بصره فيهم واحدا واحدا ، في الوقت الذي اخذوا فيه ، هم ، يتأملونه بدقة ويستعرضون قامته العسكرية المنتصبة . .

ـ هذا رجل عسكري من قمة رأسه إلى اخمص قدميه . . انه نموذج فريد للجندي المحترف . .

هكذا حدث هشام نفسه وهو يتأمل الرقيب « حميدان » الذي كان متقدماً في السن بعض الشيء ، وقد عني بشاربيه ولحيته عناية واضحة ، واطلت عيناه الحادتان كعيني الصقر تتأملان الشباب واحداً واحدا وتستعرضانهم وقد ران على المكان صمت تام . . .

وكان الرقيب « حميدان » يفكر هو الآخر . . .

– هذه دورة جديدة من الشباب ذوي المؤهلات العالية ، وعليّ أن ادربهم على تدريب المشاة ، لأجعل منهم رجالا عسكريين . . إنهم بعد انتهاء الدورة سوف يحملون رتبة الضباط ، لاستقبل أنا سواهم وادربهم . . . ايه . . كم مرّ على يدي من أمثال هؤلاء ممن يحملون اليوم في القوات المسلحة رتباً عالية . .

وتعلقت أبصار الشباب بالرجل العسكري الصارم ، تريد أن تعرف الخطوة التالية . . هل يبدأ التدريب في الحال ؟ . . . أم يلقي فيهم كلمة ؟ . . هل سيأخذهم بالرفق واللين أم سيقسو عليهم ؟ . .

صحيح إنهم ضباط ، ولكنهم الآن ليسوا سوى جنود مستجدين . .

وتنحنح الرقيب « حميدان » ووضع يديه خلف ظهره ، وراح يتمشى جيئة وذهابا وهو يتكلم :

– اسمعوني جيداً . . أنتم الآن جنود مستجدون . . وستظلون كذلك لمدة أربعة أسابيع اعلمكم خلالها تدريب المشاة . . ولكنكم في الحقيقة ضباط . . ومتعلمون تعليماً عالياً . . يعني كل واحد فيكم عنده شهادة طولها من طوله فلا تحرجوني . . لانني اتوقع منكم أن تتجاوبوا معي ، وتستوعبوا التدريبات بسرعة . . واود أن أقول لكم منذ الآن أنه لا شيء في العسكرية بدون سبب . .

كل شيء . . كل حركة . . كل خطوة . . لها سبب ، ولها أصول وقواعد وبدونها لا يمكن أن تصبحوا عسكريين . . إنها اربعة اشهر ليس غير ، تقضونها في كلية الملك عبد العزيز الحربية ، لتتعلموا اصول الجندية ومبادئها وانظمتها ، ولتلتحقوا بعد ذلك بوحداتكم ، وليس بينكم وبين زملائكم الذين سبقوكم أي فارق . . .

وتمهل الرقيب حميدان ، واكتست نبراته شيئاً من الحدة والصلابة وهو يختتم كلمته التي اعتاد أن يكررها على مسامع افراد كل دورة جديدة بالكلمة والحرف :

– اني اتمنى عليكم أن تكونوا عند حسن الظن بكم . . وان تستوعبوا ما سوف تتلقونه بعناية واهتمام ، لانه لا مجال في الحياة العسكرية لأي اهمال وللإهمال عقوبات كثيرة . . ارجو لكم الا تجربوها . . .

وهكذا بدأ هشام وزملاؤه حياتهم العسكرية ، والتقوا وجها لوجه مع نموذج فذ للجندي المحترف ، وكان لهم من مستواهم الثقافي المتقدم ما جعلهم يتحاشون الوقوع في الأخطاء ، كما كانوا يستوعبون تدريباتهم ودروسهم بسرعة . .

وشيئاً فشيئاً ، كانت النفوس التي اعتادت على دعة العيش واللامبالاة ، تكتسب رجولة فوق رجولتها ، وصلابة فوق صلابتها ، وصار للمسئولية والنظام معناهما الدقيق الذي لا مجال للخطأ فيه . .

ومضت الايام ، والأسابيع ، والشباب يكتسبون كل يوم أشياء جديدة ، تقربهم من الجو العسكري البحت أكثر فأكثر . .

لقد قسم الشباب كل عشرة في « حضيرة » وبدأوا يعتادون على الطراز الخاص للحياة العسكرية ، ويتعلمون اشياء واشياء . .

تعلموا « تدريب المشاة » . . السير . . والتوقف . . والتحية . .والاستدارة . . تعرفوا على جميع أنواع الاسلحة المتوسطة والخفيفة . . مدافع . . رشاشات . . بنادق . . مسدسات . . واتقنوا الرماية بها . . وتعلموا تفكيك الأسلحة الخفيفة وتركيبها وهم مغمضو الاعين . .

تعلموا قواعد الاشارة . . وعبارات المخاطبة . . والرموز اللاسلكية . .

تعلموا الطبوغرافيا . . ومبادىء الاستخبارات والامن . . والثقافة الاسلامية والنظم العسكرية . .

وهكذا مضت اشهر الدورة الأربعة ، وقد تحولّ الشباب من حال إلى حال : ثقافياً ، وجسدياً ، وفكرياً . . . فلقد أصبحوا عسكريين بكل معنى الكلمة ، واصبحوا – من ثم – قادرين على الانسجام مع الحياة في وحداتهم .

والحق أن هذه الفترة قد حفرت في ذاكراتهم كواحدة من أجمل فترات حياتهم ، إذ كانوا يعيشون كأسرة واحدة . . ينامون معا في وقت واحد . . . ويستيقظون معا في وقت واحد . . ويؤدون الصلاة جماعة في وقت واحد . . ويدرسون معا . . ويأكلون معا . . وكانوا يقيمون حفلات للسمر ، يشاركهم فيها بعض ضباط الكلية من الاداريين والمدرسين ، حتى الفوا الكلية وجوها وتمنوا لو أن فترة بقائهم فيها تطول أكثر مما هو مقرر لها . .

ولكن الدورة انتهت أو كادت ، وبدأوا الاستعدادات لحفل التخرج . .

وجاءهم الرقيب حميدان في إحدى الليالي يخبرهم بأن حفل التخرج سوف يكون برعاية سمو وزير الدفاع والطيران والمفتش العام . .

قال لهم :

– لقد ابى سموه رغم مشاغله إلا أن يرعى حفل تخرجكم المقرر ، تكريما منه لكم وانتم من نخبة المتعلمين في البلاد . .

وفرح الشباب بهذه اللفتة من سمو الوزير ، وراحوا يوصون بعضهم بأن يكونوا في مستوى الثقة بهم . . ثم دعوا الرقيب حميدان إلى كوب من الشاهي بعد أن فرغوا من واجباتهم ، وتهيأوا للسهر والسمر . .

وقبل الرقيب حميدان الدعوة شاكراً ، وجلس وسط الشباب يتبسط معهم في الحديث ، وفجأة قال له هشام :

— الا قل لي . . منذ متى وأنت في الجيش ؟ . .

فلوح الرقيب بيده وهو يقول :

— منذ أن وعيت على الدنيا تقريباً . .

وسأله طالب آخر بتشوف :

— تعني أنك قضيت حياتك كلها في العسكرية ؟ . .

— أجل . . كلها . . لقد التحقت بالجيش وأنا صغير السن . . وحاربت في فلسطين مع المتطوعين السعوديين و . .

وهنا قاطعه هشام باهتمام :

— حاربت في فلسطين ؟ . .

— نعم . . في فوج المتطوعين السعوديين . . كان ذلك في حرب فلسطين الأولى . .

— وهل خضت كثيراً من المعارك ؟ . .

— طبعاً . .

– هللا حدثتنا عن شيء من ذكرياتك هذه . .

– هذا حديث يطول . .

– ليكن . . ليس وراءنا شيء . .

– على رسلكم اذن . . .

ورفع الرقيب حميدان رأسه ينظر إلى لا شيء ، وكأنه يستقرىء ذكرياته العزيزة التي لا ينساها . . هناك على أرض فلسطين . .

وقال له هشام يستحثه على الكلام :

– هه . . إننا نصغي . .

وتحدث الرقيب حميدان . .

١٦

« عندما تأزمت الاحوال في فلسطين ، وانتشرت الاضطرابات مع قرب موعد خروج الانجليز منها ، ونشاط العرب واليهود ، كلاهما ، في شن الهجمات على بعضهم ، أمر جلالة الملك عبد العزيز ، يرحمه الله ، بفتح باب التطوع في الجهاد لمن يشاء من السعوديين ، بما في ذلك رجال القوات المسلحة . .

وكنت انا ضمن الذين التحقوا بقوات المجاهدين السعوديين الذين قاتلوا في عشرات المعارك مع اخوانهم من ابناء البلاد العربية والإسلامية الاخرى . .

لقد الحقوني بالسرية الأولى ، بقيادة سعدون حسين ، وكان مركز هذه

السرية في « باب الواد » بالقدس ، ولست ادري ما إذا كان بينكم من قرأ عن معارك باب الواد تلك الايام . . كانت معارك طاحنة بكل ما في الكلمة من معنى ، استمرت ثلاثة اشهر . . ثم جاءتنا الاوامر بالانتقال إلى « جنين » حيث بقينا فيها شهرين نقاتل اليهود ، ثم نقلونا إلى سورية عن طريق عمان ، وهناك استقلبنا احسن استقبال ، وامضينا أربعة ايام في « كامب القابون » وجاءنا السفير السعودي ابن زيد واقام لنا حفلة تكريم ، ثم جاءنا الامر بالتوجه إلى حدود فلسطين عن طريق لبنان ، والهجوم على قرية « صالحة » التي كان اليهود قد احتلوها ، فاستعدناها منهم ، وتركنا بعض زملائنا لحمايتها ، وتقدمنا نحو « الناصرة » واشتبكنا هناك مع اليهود ، وبقينا نقاتل ما بين « الناصرة » و « النقب » جنوب بحيرة طبريا مدة ثلاثة اشهر ، ثم انتقلنا إلى « المنارة » و« نجمة الصبح » واشتركنا في معاركهما، وبقينا هناك شهرين ، والواقع أننا لم نتوقف عن القتال ، وبينما نحن فيها جاءنا شخص من طرف الوسيط الدولي وطلب منا الانسحاب قائلاً : « انكم خرقتم الهدنة » . . . ورفضنا الانسحاب وظللنا في مواقعنا إلى أن جاءتنا الأوامر من قيادة الجامعة العربية في سورية بالانسحاب ، فانسحبنا وعدنا إلى « كامب القابون » في سورية وبقينا هناك شهرين . .

لقد اشترك المجاهديون السعوديون في معظم المعارك التي دارت في مختلف انحاء فلسطين ، منها على ما اذكر : معركة البروة ، معركة النقب ، معركة الزراعة ، معركة زرعين ، معركة السيروان ، معركة الشيخ جراح ، معركة يافا ، معركة باب الواد ، معركة رأس العين ، معركة اللد ، معركة كفر عنه ، معركة الرملة ، معركة تل الريش ، معركة حيفا ، معركة القدس ، معركة عكا معركة علبون ، معركة الحدبا ، معركة صفد ، معركة المالكية . .

وبعد الهدنة الثانية ، وما آلت إليه الامور على النحو الذي تعرفونه ، عدنا

إلى بلادنا ، حيث امر جلالة الملك بتقرير معاشات تقاعدية لاهالي الشهداء ، ولمن اصيب منهم اصابات تمنعه من كسب عيشه . . . » .

وصمت الرقيب حميدان ، وقد بدا عليه ان ذكريات تلك الايام أثارت في نفسه شيئاً من الشجن . .

وكان الشباب يرقبونه صامتين ، منتظرين أن يستأنف حديثه ، ولكنه ظل صامتا ، وهو يحتسي الشاهي ، وكأنه قد انشغل عما حوله في عالم آخر من الافكار . .

وقطع هشام حبل الصمت قائلا للرقيب حميدان وهو يبتسم :

– هكذا ؟ . . توجز لنا جهاد اشهر طوال في بضع جمل ثم تصمت ؟ . . انك لم تحدثنا بالتفاصيل . . ولا يكفي أن تقول بقينا شهرين أو بقينا ثلاثة أشهر ونحن نقاتل دون أن تروي لنا ولو قصة معركة واحدة على الأقل . . .

وابتسم الرجل الذي قلما يبتسم ، وقال لهشام :

– يا حضرة الملازم أول مهندس . لو بدأت في رواية التفاصيل لما انتهيت في ساعات . . وأنا لا استطيع أن أفعل ذلك . . فاشغلكم عن واجباتكم .

واشترك الشباب جميعهم في توجيه الرجاء إلى الرقيب حميدان كي يتحدث فما زال الوقت امامهم فسيحا ، وليس امامهم شيء يذكر بعد أن اوشكوا على التخرج . . وعاد الرجل الذي قلما يبتسم ، يهش في وجوه اولئك الشباب الذين سيطرت عليهم الحماسة ، وقال لهم وهو يتنهد :

– سأروي لكم قصة معركة . . معركة واحدة ليس غير . .

فقال هشام على الفور :

ـ ما يخالف . . احسن من بلاش . .

وعاد الرقيب حميدان يتذكر :

ـ الحق انني حائر . . أية معركة اتحدث عنها ، وأية معركة ادعها . . فتلك المعارك التي خضناها لها في نفسي ذكريات لا تنسى . . اقدام يفوق حد الوصف من قبل المجاهدين العرب ، على قلة امكاناتهم وضآلة ما لديهم من سلاح وذخيرة . . وهزائم نلحقها بالعدو الذي كان الانجليز جاهزين دائماً وابداً لنصرته وانجاده كلما ساء موقفه ، وما اكثر ما كان يسوء ، والحجة في ذلك ـ أيضاً ـ جاهزة . . فالانتداب الانجليزي لم ينته بعد ، والقوات الانجليزية ما زالت مسئولة عن حفظ الامن . . أما إذا كان اليهود هم الذين بدأوا الهجوم ، فاستطاعوا تحقيق شيء من خططهم العدوانية ، فالانجليز يتحولون ، إذ ذاك ، إلى صم وبكم وعمي ، لا يسمعون ولا يتكلمون ولا يرون . .

انني اتذكر الآن المعركة التي نسميها معركة الشجرة . .

وكان ذلك في الجبهة الشمالية الفلسطينية ، حيث كانت للمجاهدين السعوديين صولات وجولات .

في جنوبي بحيرة طبريا دارت تلك المعركة الضارية التي اشترك فيها « الفوج السعودي » كله ، واسفرت عن انتصارنا واستيلائنا على احد مراكز العدو الهامة ، ولكن الصليب الاحمر الدولي تدخل في الامر ، إلا اننا لم نهتم لتدخله في بادىء الامر ، بل صببنا نيراننا بعنف وغزارة على مواقع العدو إلى أن ابدنا الحامية اليهودية بأكملها تقريباً ، وعاد الصليب الاحمر الدولي يتدخل

مرة أخرى ، وحجته في ذلك أن الهدنة الأولى قد اعلنت وان علينا أن نوقف عملياتنا الحربية . .

ماذا اروي لكم أيضاً ؟ . . قصة معركة « البصة » ؟ . . لقد طردنا العدو من هذا الموقع ، واستولينا على احدى عشرة مدرعة من مدرعاته . . وقتلنا اثنين وتسعين فردا من العدو ، أما شهداؤنا – عليهم رحمة الله – فكانوا خمسة وعشرين من السعوديين إلى جانب تسعة جرحى . .

أأحدثكم عن معركة « صحنين » ؟ . . لقد جابهنا فيها خمسمائة من جنود العدو ، هاجمونا ساعات كاملة في وضح النهار . . لقد اضطررنا ، في البداية إلى التراجع عن الخط الأمامي بسبب عنف الهجوم ، ولكننا لم نلبث أن قمنا بهجوم مضاد ساندتنا فيه مدفعيتنا الثقيلة وتحقق لنا ، بعون الله ، النصر ، واجبرنا العدو على الانسحاب تاركا وراءه اشلاء جنوده ومعداته ، وكميات كبيرة من الذخائر والأسلحة . .

وادار الرقيب حميدان عينيه في سامعيه المشدودين إلى كلماته ، ثم ختم كلامه قائلاً ببطء :

– اصغوا إلي واذكروني بهذه الكلمات . . ان كل ما يدعيه العدو عن قوته الخارقة ، هذه الايام ، وعن شجاعة جنوده وصلابتهم ، ماهي إلا اكاذيب ... ان مجابهتهم لا تتطلب أكثر من الثبات والصمود ، وبعدها ترون روحه قد انهارت ، وخطوط هجومه قد تشتتت ، فهو ما اعتاد أن يقاتل الا غدرا ، وتسللا ، وطعنا في الظلام ، أماحين يكون القتال وجها لوجه ، فالغلبة – عندها – للصابرين الصامدين المؤمنين ، ونحن – باذن الله – الصابرون ، ونحن الصامدون ونحن – من قبل ومن بعد باذن الله – المؤمنون . . .

١٧

الآن اصبح هشام يدعى – رسمياً – الملازم الأول المهندس هشام . لقد بات ، أخيراً ، في عداد منسوبي القوات المسلحة ، وصدر المرسوم الملكي بتعيينه بهذه الرتبة بعد أن انهى دورته التدريبية في كلية الملك عبد العزيز الحربية ، واقسم اليمين على كتاب الله ، وتلقى امر التحاقة بوحدته في حائل . .

وحين صعد إلى طائرة النقل العسكرية ، التي اصطلح على الإشارة إليها في أحاديث العسكريين جميعاً باسم « طائرة السلاح » أي القوات الجوية الملكية لاحظ هشام في نفسه انسجاما لم يكن يتوقعه مع كل مظاهر الحياة العسكرية وسبب هذه الملاحظة أنه لم يكن يفكر – إلى خمسة اشهر خلت ليس غير – في انه قد يصبح في يوم من الأيام رجلا عسكريا ، مع ما في الحياة العسكرية من نظام دقيق ، ومن خشونة . ودهش إلى اقصى حدود الدهشة ، كيف لم يخطر هذا الاتجاه بباله من قبل ، وكيف حصر آماله واحلامه في نطاق ضيق ، وكيف لم يهيء نفسه لمختلف الاحتمالات فيما لم لو اخفق – كما حدث فعلا – في تحقيق آماله الأولى . .

انه يبتسم الآن وهو يتذكر الصدمة العنيفة التي اصابته حينما لم يحصل على تقدير « جيد جداً » وكيف شعر إذ ذاك بان الابواب كلها قد سدت في وجهه وكيف استغلقت مسالك تفكيره حتى لم يعد يفكر بالبديل وكأنما الحياة عملا في مكة بالذات ، أو معيداً في الكلية ليس غير . .

إنه يجلس الآن على أحد المقاعد الطويلة التي جهزت بها الطائرة الهائلة التي كانت تأخذ طريقها إلى الشمال ، لتمر في حائل وفي سواها من المناطق ، حاملة شحنات مختلفة تخص القوات المسلحة ، إلى جانب العديد من العسكريين

المتوجهين إلى اماكن مختلفة ، بعضهم مكلف بمهمة ، وبعضهم – مثل هشام – ذاهب للالتحاق بوحدته ، وكلهم يعتبرون انهم يمارسون حياتهم العادية ، رغم صلابة المقاعد التي جهزت بها الطائرة ، والتي لا تقاس بها مقاعد الطائرات المدنية الوثيرة ، والاجواء المترفة التي تحاول شركات الطيران احاطة ركابها بها . .

هنا ، في هذه الطائرة العسكرية ، لا مجال للترف ونعومة العيش . .

هنا رجولة ، وصلابة ، وشدة بأس . .

هنا رجال قد عاهدوا الله والمليك والوطن على أن يبذلوا الانفس رخيصة في سبيل مبادئهم السامية . .

إن قصص البطولات ، وملاحم الجهاد التي سمعها هشام من خاله ، ومن الرقيب حميدان ، ومن كتب التاريخ الإسلامي ، لتتوثب في اضلعه ، لتلهب إرادته بالحماسة والاندفاع لاداء الواجب الملقى على عاتقه ، من خلال حياته الجديدة ، حياته المتوثبة – كل يوم – بعوامل تجعله يطمئن إلى أنه قد قام بالاختيار الصحيح ، وان الله قد منّ عليه إذ يسر له الالتحاق بالقوات المسلحة ، وانه قد بات – منذ تخرجه – رجلا عسكريا ، بكل ما تحمل الكلمة من معاني القوة ، والرجولة والفداء . .

ولم يدهش إذ انتبه إلى أنه لم يسأل – ولم يتساءل – عن نوع الحياة التي سوف يعيشها في حائل ، فهو قد اكتسب من المقدرة على مواجهة الحياة ، لاسيما من الناحية النفسية ، ما يجعله مستعدا للتكيف مع أي ظرف يمر به ، فليس يهمه والحالة هذه ، أن يحاول تخيل طراز الحياة ونوعيتها ، تلك التي تنتظره في المكان الذي عين فيه . . .

وتوقفت أفكاره عند هذا الحد ، فالطائرة قد بدأت بالهبوط ، والمرئيات من خلال نوافذ الطائرة العريضة قد باتت أكثر وضوحا . .

وها هو ، اخيرا ، قد وصل إلى حائل . . .

١٨

العمل كثير ، وكثير جداً ، في حائل . .

هذا أول انطباع واجهه هشام وهو يبدأ عمله في هذه المدينة ، فالقوات المسلحة تعيش نهضة واسعة ، وهي في حاجة إلى جهد وامكانات كل منسوبيها من مختلف الوحدات والرتب . .

ولم يكن احب إلى هشام من العمل مهما كان مرهقا ومضنيا ، فهو يجد متعة عميقة في الاستغراق بعمله حتى التفاني ، فكان يبـدأ في الصباح الباكر ، وينتهي منه قبيل المغرب . .

وكان لاخلاقه العالية ، وطباعه الرضيّة ، أثر كبير في نفوس زملائه ، رؤساء ومرؤوسين ، فاحبوه ، وقدروا فيه صفاته تلك ، وعاملوه بكثير من المحبة والمودة والاحترام . .

وكان هشام راضيا كل الرضى عن حياته الجديدة هذه ، يحمد الله ويشكره باستمرار ، فلقد أفاء الله عليه – من فضله – أن هداه إلى الاتجاه الذي يرضي طموحه ، وفي نفس الوقت انعم عليه بذلك الجو الحميم من الصداقة والصفاء ، يحيط به في أي مكان يحل فيه . .

كذلك كانت صلته باهله على قوتها وعمقها ، فهو يراسلهم بانتظام ،

ويدخل السعادة والطمأنينة على قلوبهم ، بما يذكره لهم من اخباره ، وارتياحه وسعادته بما هو فيه ، وانه إن كان ينقصه شيء ، فهو ان يراهم ، ويطمئن عليهم دائماً . .

وكانت اخته رجاء تتولى كتابة معظم رسائل اهله إليه ، فتصف له في صفحات عديدة كل صغيرة وكبيرة من حياتهم اليومية ، وتورد له أخبارهم بادق تفاصيلها ، فكانت الأوقات التي ينفرد فيها برسائل رجاء من امتع اوقاته فهو يقرأها بعناية وبطء ، يبتسم تارة ، ويضحك تارة أخرى ، ويعبس في بعض الاحيان ، وعيناه تتابعان أسطر الرسائل كلمة كلمة . .

ولم تكن رجاء قد يئست بعد من اتمام مشروعها الخاص بتزويج اخيها من صديقتها « فاطمة » ، ولكنها – وعلى ضوء التجربة السابقة – كانت تلمح للموضوع من بعيد ، وكأنها تحاول ان تختبر مشاعره واحاسيسه بعد أن استقرت حياته ، واتخذت مسارها الطبيعي . . . فهي تقول له في احدى رسائلها أنها شديدة القلق عليه ، ولا تدري كيف يدبر اموره وهو يعيش وحيداً في حائل . . وتقول في رسالة اخرى ، أنها ما زالت ترى أن هناك نقصا في حياته ، وان هذا النقص لا يكتمل إلا إذا تزوج واستكمل أسباب حياته كما يفعل جميع الناس . . وتعرب له في رسالة ثالثة عن توقها لأن تصبح « عمة » ، وان تسمع اولاده ينادونها « عمتي . . عمتي » ، ثم تبدي له اسفها – بخبث محبب – لانها لا ترى أي دليل يجعلها تأمل بتحقيق هذا الامل في وقت قريب . .

ولكنها في كل رسائلها ، لم تذكر فاطمة على الاطلاق . . ذلك أنها ادركت أنه لا يجوز لها أن تأتي على ذكرها ما دام هشام لم يبد تجاوبا كافيا يوم أن صارحته بالامر مع امهما ، وان كانت قد ارتاحت بعض الشيء لان هشام لم يرفض فاطمة بالتحديد ، وإنما اعرب – فقط – عن عدم تفكيره بالزواج في الوقت الحاضر . .

ولكن رجاء لم تنثن قط عن تصميمها على أن تكون فاطمة زوجة لهشام ، فهي معجبة بها ، جمالا واخلاقا وثقافة وعائلة ، وترى أنها ستكون خير زوجة لاخيها العزيز . . إلا أنها كتمت عزمها هذا ، فلا هي عادت للحديث عن هشام أمام فاطمة ، ولا هي عادت للحديث عن فاطمة في رسائلها إلى هشام . . .

كانت ـ كما حدثت نفسها ـ ترقب « الموقف » بانتباه ، وتترقب شارة البدء ، منتظرة جملة واحدة من هشام تشعرها بان فكرة الزواج قد بدأت تخطر له . . . وعندها سوف تقوم ـ كما كانت تقول لنفسها ـ بهجوم صاعق يحقق لها املها في أن ترى اخاها وصديقتها زوجين سعيدين . .

ولكن انتظار رجاء طال ، وطال أكثر مما كانت تتوقع . .

فهشام كان يؤكد لها في رسائله بأن حياته تسير سيراً طبيعياً ، وانه لا يشعر بحاجته إلى شيء . . وان عمله يأخذ عليه كل مشاعره وتفكيره واهتمامه . .

وكان هشام في ذلك صادقا كل الصدق ، ولم يخطر له أن يفهم تلميحات اخته واشاراتها العابرة بأكثر من القلق عليه ، والرغبة في الاطمئنان إلى أن كل شيء في حياته على ما يرام . .

١٩

وكما هي العادة في مثل ظروف هشام ، كان قد اصطفى من بين زملائه ، صديقاً في القسم الإداري ، اسمه ناصر ، ارتاحت إليه نفسه أكثر من سواه ، وبادله ناصر هذا الارتياح بمثله ، حتى بات الاثنان معروفين لدى الجميع بصداقتهما العميقة وعلاقتهما الوثيقة . .

كان ناصر من ابناء حائل نفسها ، وكانت طبيعة عمله تقتضي أن يلتقي

بهشام كثيراً ، الامر الذي اوجد بين الاثنين شيئاً من الالفة والتجاوب ، تطور على مر الايام إلى صداقة ، ثم ما لبثت هذه الصداقة أن ازدادت مع الأيام حتى باتت مضرب المثل بين زملائهما في العمل . .

وكان الاثنان يتبادلان الزيارات باستمرار ، ناصر يزور هشام في مسكنه ، وهشام يزور ناصر في بيت أبيه الذي يعيش فيه مع العائلة . .

كان الاب من الشخصيات المرموقة في حائل ، يتمتع باحترام الجميع وتقديرهم ، ويعودون إليه في مشكلاتهم الخاصة ، ويحتكمون لديه عند الاختلاف فيما بينهم ، وكان له من حسن التقدير ورجاحة العقل ما يجعله مسموع الكلمة ، ومقصداً لكل طالب حاجة . . .

ولقد سعد هشام كثيراً بلقاء هذا الاب ، الشيخ عبد الله ، وطالما اصغى بكثير من الاهتمام إلى حكاياته الكثيرة عن ذكرياته أيام شبابه ، وعن الاحداث التي مرت به ، وشهدها ، أو كان طرفا فيها ، وكان الرجل راوية جذاب الحديث ، جميل التعابير ، وله اسلوبه الخاص في اجتذاب سامعيه الذين كانوا يصغون إليه حابسي الانفاس ، مبهورين ، وهو يروي ذكرياته باسلوبه المشوق . .

وكما هو الشأن لدى المتقدمين في السن ، في مختلف انحاء المملكة ، كان الحديث عن الملك عبد العزيز ؛ وذكريات جهاده وكفاحه من أجل توحيد المملكة ، ومزاياه ومناقبه ، هي الحديث المفضل الذي كان الشيخ عبد الله يرويه لجلسائه ، فيأخذ عليهم الباهم ، ويزيد في اعجابهم وتقديرهم للرجل العظيم الذي اقام هذا الملك الشامخ بايمانه وشجاعته وحكمته . . .

وكان هشام ، في معظم الاحيان ، احد مستمعي الشيخ عبد الله وزواره ،

يرتاد داره بدعوة من صديقه ناصر الذي لم يكن يفترق عنه ، في النهار والليل اكثر من ساعات معدودات . .

٢٠

وذات يوم رآها . . .

كان ذلك بصدفة بحتة ، وهو يجتاز الرواق الطويل الممتد ما بين باب البيت وباب المجلس الذي اعتاد زوار البيت أن يجلسوا فيه . .

وكانت تمر من ساحة البيت الداخلية لتختفي وراء باب احدى الغرف . . ولم يكن قد رأى منها أكثر من قوامها الاهيف ، ومشيتها السريعة ، وجانب من وجهها ، فاشاح بوجهه خجلا وتأدبا ، وسارع إلى الدخول لقاعة المجلس . .

وكان ذلك اليوم ، هو اليوم الأول الذي يشعر فيه بانه وحيد ، رغم ازدحام المجلس كالعادة بالزوار والضيوف . . .

فمع أن رؤيته لها لم تتعد بضع ثوان ليس غير ، اختفت بعدها عن عينيه كالظبي النافر ، إلا أنه لم يستطع أن يبعد صورتها عن خياله ، فكان يستعيد هـذه الصورة مرات ومرات ولغط القوم يملأ القاعة كعادتهم كل يوم ، ولكنه لم يكن – في واقع الأمر – يسمع شيئاً . . .

كان شارد الذهن ، يحس بأن شيئاً ما في داخله قد تغيّر ، وان شعوره هذا بالوحدة شعور جديد لم يألفه من قبل . .

من هي ؟ . . ومن تكون ؟ . .

أهي من أهل البيت . .

أتراها تمت بصلة قرابة إلى صديقه ناصر ؟ . . اهي ــ مثلا ــ اخته ؟ . . اهي قريبته . . ام هي مجرد زائرة لعائلته ؟ . .

اتراه يراها مرة أخرى . . أم أن هذه هي المرة الأولى والأخيرة . .

ثم هذا الشعور الذي انتابه وهزه حتى الاعماق . . ماهو ؟ . . هل هو الحب من أول نظرة كما يقولون في القصص والروايات ؟ . .

وهل هذا معقول ؟ . .

هل يمكن أن تحدث نظرة خاطفة ، لم تتجاوز بضع ثوان ، كل هذا التأثير في نفسه ؟ . .

وما هي نتيجة ذلك كله ؟ . . وكيف يمكن أن يعرف اجابات تساؤلاته هذه ؟ . .

وادهشه أن تفاصيل ما رآه قد حفرت في ذاكرته وكأنها صورة فوتوغرافية يستطيع أن ينظر إليها ساعة يشاء . .

وجهها البريء ، وعيناها السوداوان ، ووجنتاها الموردتان ، ومشيتها السريعة التي يميس معها قدها برشاقة عجيبة . .

وتذكر كلام اخته رجاء . . عندما تساءلت بلهجة خاصة عما إذا كان يعتقد بأن هناك شيئاً ما ينقصه . .

الآن عرف جواب ذلك السؤال . . .

أجل . . هناك شيء ينقصه . . إن الذي ينقصه هو . . . . هو ماذا ؟ . . . اهي تلك الظبية النافرة التي لم يرها سوى لحظات ؟ . .

وحاول أن يقنع نفسه بأنه واهم في كل ما يفكر فيه . . وان من غير المعقول أن تحدث نظرة خاطفة كل هذا الذي يشعر به . .

وراح يؤنب نفسه . . كيف يسمح لافكاره أن ترود هذه الآفاق جميعاً وهو في البيت الذي يضم تلك الفتاة ؟ . . اليس هذا خطأ في حق أهل البيت . . ولكن ما ذنبه هو ؟ . . لقد رآها صدفة وعلى غير تعمد . . . وإذا كان الامر كذلك فلماذا يحس بذلك الشعور الجارف بانه يتمنى لورآها مرة أخرى ؟ . .

كل هذه الخواطر دارت في ذهنه وهو جالس ، كعادته ، في مجلس الشيخ عبد الله ، يرى إلى الناس وهم يضحكون ، ويفتحون افواههم بالكلام ، ويتناول القهوة والشاهي ، ولكنه – وياللغرابة – لم يكن يسمعهم . . لم يكن يسمع اصوات ضحكاتهم ، ولا أصوات كلامهم . . كان في عالم آخر تماماً . . كان وحيداً وسط مجموعة كبيرة من الناس . . فكيف . . كيف حدث ذلك ؟ . .

وانتبه هشام ، اخيراً ، على صوت الشيخ عبد الله وهو يسأله بلطف كعادته كلما تحدث إليه :

– وانت . . ياباشمهندس . . ما رأيك ؟ . .

ورفع هشام رأسه ، ونظر إلى الشيخ عبد الله حائراً ، فهو لا يعرف عمّ يسأله الشيخ ، وليست لديه ادنى فكرة عن الحديث الدائر . .

ووجد نفسه يهمهم بارتباك :

– انا . . . انا . . الحق اني كنت شارداً قليلاً فلم انتبه إلى حديثكم . .

وسأله الشيخ في قلق :

ـ سلامات . . خيرا ان شاء الله . . عسى ما تكون مريضاً لا سمح الله . .

ـ لا . . لست مريضاً . . ولكنني . . ولكنني اشعر . . اشعر بشيء من الصداع . .

ونهض هشام على الفور وهو يقول :

ـ لو تأذنون لي . .

فقال الشيخ عبد الله :

ـ تذهب هكذا وانت مصاب بالصداع . . هل نأتيك بقرص من الاسبرو؟

فقال هشام :

ـ لا . . شكراً لك يا عماه . . اعتقد انني متعب . .

فقال الشيخ عبد الله مسايرا :

ـ على راحتك . . .

وودع القوم ، وركب « الجيب » الذي يستخدمه في تنقلاته ، وقفل عائداً إلى مسكنه ، وصورة الظبية النافرة ـ كما سماها ـ لا تفارق خياله . . .

٢١

كان اشد ما ادهش هشام أن تحدث « نظرة » خاطفة كل هذ التأثير في نفسه ، وكان يعتقد انه قد اكتسب ، منذ تخرجه ، خبرة بالحياة تجعله اكثر هدوءا وواقعية ، لاسيما في مسألة بسيطة كهذه المسألة . . .

ولكنه كان يشعر في قرارة نفسه أن المسألة ليست « بسيطة » كما يقول وان هناك شيئا ما قد حدث . . لقد شعر – فجأة – بأن في حياته فراغا هائلا ، وانه – خلافا لما قال لاخته وعائلته ذلك اليوم – في حاجة إلى شيء ينقصه . .

الآن عرف هذا الشيء . .

انه في حاجة « إليها » . . إلى نصفه الآخر . . إلى شريكة لحياته . . إلى رفيقة لعمره . . . ولكن . . لماذا لم يشعر بهذا النقص ، أو هذه الحاجة إلا اليوم ، وعلى أثر تلك النظرة الخاطفة التي تمت صدفة ؟ . .

وهل يعقل أن يعتبر تلك « الظبية » هي ما يحتاج إليه ، وهو لا يعرفها ، ولا يعرف أي شيء عنها ، وربما كانت متزوجة ، وربما كانت مخطوبة . . افتراه يشعر بالحاجة إلى اية شريكة ، أم إلى هذه الفتاة بالذات ؟ . .

وانتقل بافكاره إلى مكة ، فهناك فتاة قد اختاروها لتكون زوجة له . . فاطمة . . صديقة اخته التي تمت إليهم بصلة قرابة بعيدة . .

لقد بدت له اخته شديدة الثقة من نفسها وهي تحدثه عن فاطمة ، وتصف له جمالها ، وادبها ، وثقافتها ، ومميزاتها التي جعلتها تختارها له زوجة . . فاين نصفه الآخر يا ترى ؟ . . هنا في حائل . . أم هناك في مكة . .

وراح يوازن بين الحالتين ، ليكتشف أن كفة فاطمة هي الراجحة إذا هو أخذ الامور بالعقل والمنطق . . وان كفة تلك الفتاة المجهولة هي الراجحة إذا هو اخذ الامور بالشعور والعاطفة . . فايهما التي ستسد النقص القائم في حياته . . وايهما ستكون من نصيبه ؟ . .

لقد وجد نفسه عاجزاً كل العجز عن أن يقرر وان يختار ، ولكنه قرر – بينه وبين نفسه – شيئاً . .

قرر أن يستدرج صديقه « ناصر » للحديث بشكل ما . . وان يحاول التوصل إلى شيء من المعلومات عن تلك الفتاة . . فاذا ما بدا له أن هناك املا ، سار في هذا الطريق ، أما إذا تبين أن الفتاة لن تكون له ، لسبب أو لآخر ، فعليه أن يضرب صفحا عن المسألة كلها ، وان يبحث امر « فاطمة » بصورة جدية . .

وشعر – إذ وصل بافكاره إلى هذا الحد – بشيء من الراحة ، فأطفأ النور القائم بجانب سريره ، وسرعان ما غرق في سبات عميق . .

٢٢

عندما ما وقع نظر هشام على ناصر في اليوم التالي ، احس بشيء من الرهبة والتخوف ، فهو قد اعدّ في ذهنه الطريقة التي سوف يسلكها لاستدراج ناصر للحديث بحيث يوحي إليه بما يريد من غير أن يصرح بذلك ، ولكنه كان يخشى أن تكون تلك الفتاة ، كما سبق أن حدث نفسه ، متزوجة ، أو مخطوبة ، أو أن ناصر لا يعرفها فقد تكون مجرد زائرة ، وكان يقول لنفسه انه سوف يتألم اشد الالم إذا ما تبين له انه لا سبيل إلى تلك التي اسرت لبه وعقله بمجرد نظرة خاطفة لم تدم إلا ثوان . . .

ولكنه فكر ، من جهة أخرى ، انه لن يستطيع أن يظل مشغول البال بهذا الموضوع دون أن يحسمه بشكل أو بآخر ، فاذا جاءت الامور كما يشتهي ، فهذا ما يريد وما يتمنى ، وان خابت آماله واخفق فاليأس – علي اية حال – احدى الراحتين . .

وبدأ هشام خطته بأن أخذ يبدي تذمره من حياته امام ناصر، وهو يرقبه بانتباه شديد . .

قال وهو يزفر في ضيق :

ـ تدري يا ناصر ؟ . . لقد بدأت اضيق ذرعا بالحياة التي أعيشها . .

ـ غريب . . هذه أول مرة اسمعك تقول فيها هذا القول . . إذ كان يبدو لي انك شديد الارتياح لها وانك سعيد . . . و . . .

وقاطعه هشام قائلا بسرعة :

ـ انني لا أتكلم عن العمل . . فأنا سعيد جداً في عملي ، ولا أشكو من شيء منه . .

ـ إذن ما الذي يجعلك تشعر بالضيق كما تقول ؟ . .

ـ الوحدة . . لقد بدأت أضيق بالوحدة . . أنت تعلم أن اهلي في مكة . . وانني اعيش هنا وحيداً . . صحيح أن لي ، ولله الحمد ، كثيراً من الأصدقاء ـ وانت في مقدمتهم ـ وان مشاغل العمل لا تكاد تترك لي شيئاً من الفراغ . . . ولكن . . رغم هذا فان شعورا غريباً بالوحدة قد اخذ يتسلل إلى قلبي في المدة الأخيرة . .

واطرق ناصر طويلا وهو يعبث بقلم كان في يده ، وهشام يرقبه بلهفة يحاول كتمانها ، ثم رفع رأسه وقال بتردد :

ـ هل . . هل افهم انك . . تريد الزواج . . مثلا . .

ـ أجل . . هذا ما يخطر لي . . لقد بدأت الفكرة تغزو فكري منذ مدة قصيرة . .

ـ هذا من حقك . . شباب . . وتعليم . . ورتبة . . ومستقبل . . حقا لا ينقصك إلا الزواج . .

ـ ماذا تقترح عليّ أن أفعل في هذه الحالة ؟ . .

ونهض ناصر ، وراح يتمشى في الغرفة جيئة وذهابا وهو يتكلم :

ـ اتريد الحق يا هشام ؟ . هذا الموضوع الذي تتحدث عنه قد خطر لي قبلك منذ شهور . .

ـ تعني . . زواجي أنا . . أم زواجك أنت ؟ . .

ـ زواجك أنت بالطبع . . فانا متزوج كما تعلم . .

وضحك الاثنان ، وعاد ناصر إلى الحديث :

ـ انت تعلم اننا جميعاً نحبك ونحترمك . . أنا شخصياً أقول لك بكل صراحة انني اعتبرك في منزلة اخي . . .

ـ وانا أيضاً يعلم الله . . .

ـ شكراً . . وانت تعلم ايضاً عاداتنا وتقاليدنا . . وبخاصة هنا . . في حائل . .

ـ اعرف طبعاً . . . ولكن ماذا تريد أن تقول ؟ . .

ـ اريد أن اقول اننا ، لاسيما في عائلتنا ، ماتعودنا قط على أن نعرض بناتنا على احد . .

وقفز قلب هشام إلى حلقه ، فقد فهم من كلام زميله وكأنه يلمح له بانه لا أمل له في الزواج من احدى بنات عائلته . . فقال بصوت مضطرب :



– انني لا ادري عم تتكلم يا ناصر . . هل حصل شيء لا قدرّ الله ؟ . .

– لا . . ليس هناك شيء . . ولكنني ، فقط ، اردت أن اوجه انتباهك إلى هذه النقطة ولو سمعني احد اخاطبك بما اخاطبك فيه لاعتبر ذلك عاراً عليّ . . .

– اؤكد لك ياناصر انني لا افهمك . . الا توضح ما تريد أن تقول ؟ . .

– لقد اوضحته على ما اعتقد . . فانت ، هنا ، محبوب من الجميع ، ومن جهتي انا ، لم اوثرك كصديق واخ إلا بعد أن اختبرتك جيداً ، وتبين لي طيب معدنك واصالة اخلاقك . . . ولقد كنت اتوقع اليوم الذي اسمعك فيه تعلن ضيقك من حياة الوحدة التي تعيش فيها . . وفكرت ، من ثم ، ماذا استطيع أن افعل من اجلك في هذه الحالة . . .

– بارك الله فيك يا اخي . .

– ما كنت اتمنى لك الا أن يوفقك الله إلى زوجة صالحة . .

– وهـــذا عين ما اتمناه . . بل واتمنى أن يكون لي النصيب في . . في مصاهرتك . . ولكنك تقول الآن انكم ، في العائلة ، لم . . .

– لقد فهمتني خطأ يا هشام .. انما اردت أن أقول انه رغم اننا لم نعتد على أن نعرض بناتنا على أحد ، فانني اعرض ، أو اقترح : عليك أن تتزوج اختي هيا . .

– هيا ؟ . .

ردد هشام الاسم بما يشبه الهمس ، وفي عقله يضج السؤال الكبير . . هل هي تلك التي لمحتها . . أم . . .

وقطع عليه ناصر افكاره بقوله وهو يستطرد في حديثه :

ـ ان عمرها ثماني عشرة سنة .. وقد تخرجت هذا العام من الثانوية العامة فاذا اردت أن تتقدم إلى الوالد وان تخطبها منه فانني سأساعدك بكل قواي . . واغلب ظني انه لن يرفض . . واود أن اؤكد لك مرة أخرى انني ما فعلت مثل هذا ابداً . . ولا حدث في عائلتنا . . ولكنني ، محبة مني لك ، اقترح عليك هذا الاقتراح . . . فماذا تقول ؟ . .

ـ لقد فاجأتني تماماً بما تقول يا ناصر . . وانا اعلم انكم ما اعتدتم ، في حائل ، أن تفعلوا ذلك . . ولذا فانني شديد التقدير لهذا التكريم الذي تحيطني به . . ولكن . . ولكن هناك امورا ربما لم تبحثها . . هل تقبل هيا . . اعني الآنسة هيا بي ؟ . .

ـ انني اتوقع أن تقبل . . ولولا ذلك ما فكرت في هذا الامر . . وما الذي يمنعها من القبول وانت ولله الحمد شاب مثالي من مختلف النواحي . .

ـ وإذا افترضنا أن الله قدّر وكان لي في هذا الزواج نصيب . . كيف يكون الحال إذا أنا انتقلت من حائل . . لا يخفاك أن العسكريين معرضون للتنقل باستمرار . . فهل تقبل ذلك ؟ . .

ـ يا اخي . . يا اخي . . أنت تقفز إلى البعيد البعيد في افكارك . . ما دامت زوجتك فهي ستصحبك إلى أي مكان تذهب إليه . . هل نسيت أن هناك مئات من الزوجات السعوديات يرافقن ازواجهن المبتعثين ، إلى اقاصي الأرض ، على مبعدة آلاف الأميال من المملكة ؟ . .

ـ انني اشكر لك هذا التشجيع يا ناصر . . هذه هي الصداقة الحقيقية وإلا فلا . . . ولقد فاجأتني بكل ماذكرت . . واريدك أن تترك لي فرصة قصيرة . . إلى الغد فقط ان شاء الله . . كي افكر . .

٢٣

انطلق هشام بسيارة « الجيب » واتخذ طريقه إلى خارج المدينة ، إلى مكان خلوي اعتاد أن يقضي فيه بعض أوقات راحته ، مختليا بنفسه ، مفكراً في أموره ، لا يرافقه سوى أفكاره التي زادها حديثه مع ناصر لهيبا وسعيرا . . .

وإذ وصل إلى مكانه المعتاد ، اوقف السيارة ، وانزل منها بعض الاشياء التي اعتاد ان يأخذها معه إلى هذا المكان . . كرسي من القماش ، ترموس فيه شاهي ساخن ، وكوب . . واتخذ جلسة مريحة يستطيع معها ان يطلق العنان لافكاره كما يشاء . .

انه لم يكن يتوقع أن تنجح خطته كما نجحت ، وان يجر حديث اعده بعناية لان يعرض عليه ناصر تزويجه من اخته « هيا » . . ولكن السؤال الذي كان يحيره ، هل « هيا » هي تلك الفتاة التي لمحها تلك اللمحة الخاطفة ، والتي أخذت عليه – منذ ذلك الحين – لبه ؟ . .

إذا كانت هي ، قال لنفسه ، فهذا اقصى ما يتمنى وما يرجو . . أما إذا لم تكن هي فما يكون العمل يا ترى ؟ . .

ووجد نفسه يبتسم رغماً عنه ، وهو يفكر فيما سيكون عليه موقفه سواء كانت « هيا » هي الفتاة التي لمحها ام لا . . فاذا كانت هي ، فيا لها من صدفة غريبة ، وان لم تكن هي ، فهل يكون عليه أن ينسى تلك « الظبية » – حسب تعبيره – التي ايقظت في اعماقه شعور الوحدة ، والحاجة إلى من تشاركه حياته ؟ . .

هنا ، تذكر ما سلف من مواقف حياته ، لاسيما بعد ظهور نتيجته في الجامعة ، وكيف كان قد عقد العزم على أن يتخذ قراراته الحاسمة بدون تردد

ووجد انه الآن يقف على مفترق طرق قريب جداً من ذلك المفترق ، وان عليه ان يحسم الامور وان يختار . .

وتنهد بشيء من الارتياح . . فلقد قرر واختار . .

قرر أن يتقدم لخطبة « هيا » وان يكون عمليا وواقعياً ، فاذا قبل به ابوها امكنه أن يخبر اهله في مكة بقراره ، أما إذا رفض الاب أو الفتاة – وهذا على اية حال ليس مستبعداً – حفظ لنفسه خط الرجعة ، فلا يحرج موقفه امام اخته رجاء التي تريد تزويجه من صديقتها فاطمة . .

وركب السيارة ، وقفل عائدا إلى المدينة ، وقد شعر بمثل الراحة التي شعر بها يوم حسم اموره واختار الاتجاه للقوات المسلحة ، بعد ان كانت الافكار تتضارب في رأسه ، حول اتجاهات اخرى . .



– لقد اخترت ، وتوكلت على الله . . .

بهذا افتتح هشام حديثه وهو يلتقي بصديقه ناصر في اليوم التالي . .

ونظر إليه ناصر متسائلا ، ولكنه استطاع ان يقرأ الجواب على وجهه قبل أن يستطرد قائلا :

– لو تكرمت بأخذ موعد لي من الوالد . .

– مبروك . . . ألف مبروك . . وربنا يتمم بخير . . .

– هل . . هل تتوقع ان يرفض ؟ . .

– لماذا التشاؤم يا اخي ؟ . . ولماذا يرفض ؟ . . إن فيك ، ولله الحمد ،

كل الصفات التي لا يطمع أي أب في خير منها . . واظنني قلت لك ذلك من قبل ام انك تريدني ان امدحك واشيد بك مرة اخرى ؟ . . .

وضحك هشام وهو يجيب :

– المسألة ليست مسألة مديح واشادة . . . ولكنني اشعر بأنني سأقوم بخطوة هامة . . واريد ان اطمئن . . .

– لو لم اكن على ثقة من ان الوالد سيوافق لما تحدثت إليك في الموضوع بهذه الثقة . .

– ربنا يطمنك . . تبقى ناحية اخرى . .

– ماذا ايضاً ؟ . . .

– والدي ووالدتي . . اعني اهلي في مكة . . انهم كثيراً ما تحدثوا عن عزمهم على أن يقيموا لي حفلة زواج كبيرة جداً . . هذا هو تعبيرهم .. وهم سيقيمونها في مكة طبعاً حيث اغلب الاهل والاصدقاء والمعارف . .

– هل هذه هي المشكلة التي تحيرك ؟ . . يا سيدي تستطيع أن تقيم الحفلة كما تشاء في مكة بعد عقد القران . .

– اتكلنا على الله إذن . . . وسأزور الوالد مساء هذا اليوم ان شاء الله . .

وقبل ان يجيبه ناصر ، دخل عدد من زملاء هشام من المهندسين وهم يحملون معهم خرائط وتصاميم للمطار الجديد للمدينة ، وانهمك هشام في دراستها معهم ، وقد نسي كل شيء سوى العمل الذي بين يديه . . .

٢٥

وفي المساء كان هشام يدخل إلى قاعة الاستقبال الخاصة في منزل الشيخ عبد الله ، والد ناصر ، وقبل أن يأتي الاب إلى القاعة للترحيب بضيفه ، تبادل هشام مع ناصر حديثا خاطفا ، اراد هشام به أن يطمئن إلى أن لدى الوالد ولو فكرة عامة عن الموضوع . .

ولكن ناصر ابتسم وهو يقوده إلى قاعة الاستقبال ويشير له بالدخول وهو يقول :

ـ ابداً . . لم اقل له سوى انك تريد مقابلته في موضوع خاص . .

ـ ولكن . . أما كان يستحسن لو انك اعطيته فكرة . . .

ـ هذه مهمتك انت يا عم . . وعلى كل حال اطمئن . . الوالد لديه انطباع حسن عنك . . وسوف اتدخل في الوقت المناسب لا تولى (اسنادك) إذا اقتضى الامر . .

وضحك الشابان للتعبير العسكري الذي استخدمه ناصر ، وجلس هشام وحده في انتظار قدوم الشيخ عبد الله . . .

وكان مما ادهش هشام ، انه وجد في نفسه هدوءا غريباً ، واطمئنانا عميقاً لم يشعر بمثلهما منذ أن طرأت فكرة الزواج على باله ، وزال كل ما كان يشعر به من توتر وانفعال . .

وان هي لحظات ، حتى دخل الشيخ عبد الله بقامته المهيبة ، ورحب بهشام في عطف ابوي اثلج صدره ، ثم جلس الاثنان ، وراح الشيخ عبد الله يردد عبارات الترحيب مرة أخرى ، وهشام يجيب شاكراً . . .

وساد صمت خلال قيام الصبي بتقديم الشاهي ، حتى إذا خرج ، نظر الشيخ عبد الله إلى هشام وقال له :

– قال لي ناصر انك تريدني في موضوع خاص . . خيراً ان شاء الله ؟ . .

فاطرق هشام لحظة ، ثم رفع رأسه وقال :

– لن اطيل عليك يا عمي . . وانني لاشعر مما المسه منك باستمرار من عطف ان حاجتي إليك مقضية ان شاء الله . . .

فردد الشيخ وهو يعبث بحبات سبحته :

– ان شاء الله . . ان شاء الله . . تكلم يا ولدي . .

– لقد جئتك يا عمي طالبا القرب منك . . في كريمتك هيا . .

وبدا وكأن الشيخ عبد الله لم يفاجأ بهذا الطلب ، فسكت بعض الوقت ثم قال ببطء :

– هذا يسرني كثيراً يا ولدي . . وانني ارحب بك . . فانا شديد الاعجاب بك . . وباخلاقك . . بل انني اعتبرك في منزلة ولدي ناصر . . واكاد لا أفرق بينكما . .

– اشكرك . . اشكرك كثيراً يا عمي . . وارجو ان اكون عند حسن ظنك دائما إن شاء الله . . .

– ان لنا ، يا ولدي ، في امور الزواج عادات وتقاليد كما تعلم . . وانني سأعاملك وفق ما أمر به ديننا الحنيف . .

ونهض الشيخ عبد الله وهو يقول :

ـ عن اذنك . . لحظة . .

ثم غادر الغرفة ، وهشام واقف يتساءل فيما بينه وبين نفسه عن سبب خروج الشيخ ، ثم عاد للجلوس وهو يقول في سره ، لاشك في انه يريد ان يسألها عن رأيها . . .

ودخل ناصر القاعة وهو يقول :

ـ هيه يا عم . . ما هي الاخبار ؟ . .

واعاد هشام عليه الحديث الذي دار بينه وبين والده ، وابتسامة ناصر تتسع كلما ذكر هشام جملة من ذلك الحديث ، ثم ضرب ناصر بيده على فخذ هشام بخفة وهو يقول :

ـ مبروك يا عم . . كل شيء تمام . .

ـ كيف ؟ . .

ـ سوف ترى . . .

وقفزت إلى ذهن هشام في الحال صورة الفتاة التي لمحها ، وعاد السؤال يلح على خاطره من جديد . . هل تلك الظبية هي هيا . . ام أنها اخرى . . هل هي اجمل منها . . هل هي اقل جمالا . . هل هي . . . .

وتوقف بخواطره ، وأسئلته ، فلقد عاد الشيخ عبد الله ، ووراءه فتاة ملتفة في عباءة سوداء ، ولا يبدو منها سوى وجهها الوضاء . .

ـ يا لله . . انها هي . . ما اكرمك يا رب . . .

هكذا هتف هشام في داخله وهو ينهض احتراما للشيخ عبد الله الذي قال وهو يجلس :

– هذه هي ابنتي هيا يا ولدي . .

واحمر وجه الفتاة التي جلست على كنبة قصية ، بينما اطرق هشام خجلا وقلبه يرقص بين ضلوعه ، فيا له من كرم الهي ان تكون الفتاة التي هفا إليها قلبه ، وايقظت فيه مشاعر الحب وهو الذي لم يرها اكثر من لمحة خاطفة ، هي نفسها الجالسة على مسافة بضع خطوات منه ؛ وهي لا تقل خجلا وارتباكا عنه . . .

وانتبه هشام من خواطره على صوت الشيخ عبدالله وهو يستطرد في كلامه :

– إن لك يا ولدي الحق في أن تراها وفق ما امر به الشرع الحنيف ؛ مقبلة مدبرة ، وان تقول رأيك النهائي بعد ذلك بصراحة . . وان تراك هي كذلك وتقول رأيها . . فاذا تزوجتما من ثم ؛ كان ذلك عن رغبة مشتركة . . . أما الباقي فهو لله وعلى الله . . وما التوفيق ، اولاً وآخرا ؛ إلا من عند الله . .

وصمت الشيخ عبد الله برهة ، لم يتكلم خلالها احد ، ثم استأنف كلامه قائلاً :

– هذا هو ما امر به الشرع الحنيف كما قلت . . فاذا وقعتما من بعضكما موقعا حسنا فهذا ما اتمنى . . وان لم يحصل النصيب فانا لا احب ان يعلم احد بما جرى . . هذا هو طلبي الوحيد منك يا ولدي . .

ونظر هشام نظرة سريعة إلى هيا ، ففاجأها تختلس – هي الاخرى – إليه نظرة ، وتلاقت عيناه بعينيها السوداوين اللتين اخترقت نظراتهما الخاطفة – من قبل – صميم فؤاده ، فحول نظره بسرعة والتفت إلى الشيخ عبد الله قائلاً :

ـ لقد قلت يا عماه كل شيء بحيث لا اكاد اجد ما ازيده على ما قلت . . فقط اريد ان اقول لك بانني شديد الاعتزاز بثقتك وتقديرك . . وانني إذ اتقدم لخطبة كريمتك المصون فانني اتقدم في الوقت ذاته إلى الاسرة كلها . . إليك وإلى السيدة ام ناصر . . والأخ ناصر . . لكي تعتبروني فرداً منكم وتعاملوني على هذا الاساس . . والكلمة لكم ، وللآنسة ، فاذا كنتم ترون في الكفاءة لهذا ، فليس عندي ما اضيفه إلى ما قلت حين ازجيت لك ، يا عماه ، بطلبي عند مجيئي . . .

وبدا السرور على وجه الشيخ عبد الله ، وهو يستمع إلى هذه الكلمات النابضة بالصدق والاخلاص وهي تتدافع من فم المهندس الشاب ؛ فقال باسما :

ـ على خيرة الله إذن . . . هه . . ما رأيك يا هيا ؟ . .

واضطرم وجه الفتاة بمزيد من الحمرة وهي تطرق إلى الأرض ، ثم نهضت فجأة وانفلتت خارجة من القاعة بخطواتها الرشيقة التي جعلت هشام ـ يوم لمحها ـ يشبهها بالظبية النافرة . .

وضحك الشيخ عبد الله ضحكة هادئة وهو يقول :

ـ مبروك يا ولدي . . اعتقدت أنها قد اجابت على سؤالي . .

وتصافح الرجلان ، وتعانقا ، ثم عانق ناصر صديقه هشام مباركا ومهنئا ثم قال هشام :

ـ تأذن لي يا عماه ؟ . .

ـ مع ألف سلامة . . ارجو ان نراك غداً ، ان شاء الله على العشاء . .

– ما يحتاج يا عماه . . انني ، كما تعلم ، عندكم دائماً . .

– صحيح ، ولكن عشاء الغد – ان شاء الله – سيكون عشاء خاصا . . وربما اعدته « هيا » لك بنفسها . . .

وضرب ناصر جبهته بحركة مرحة وقال مخاطبا اباه :

– ياه . . يا بوي . . . هذا انذار لي كي اتعشى غداً خارج المنزل . .

وضحك الشيخ وهو يقول :

– انت تعرف طبخ « هيا » يا ناصر . . وإذا كان هشام سيتناول طعاما من طبخها فهذا ماسيحكم عليه بنفسه . .

فرد ناصر بنفس اللهجة المرحة :

– هشام لا يعرف ، بعد ، طبخ هيا . . ولكنني اعرفه . . فما ذنبي ؟ . .

فهز الشيخ عبد الله رأسه يمنة ويسرة في حركة عتاب وقال لولده :

– يا ناصر يا ولدي اشكر الله . . انت تعرف مقدار خدمة هيا لك ، ولكن الحقيقة انك دائماً نكار . . . وسوف يحكم هشام بنفسه فيما بعد . .

وابتسم هشام ، ولم يعلق بشيء ، ولكن قلبه كان يركض بين ضلوعه ، فغدا ، غداً إذ اراد الله وشاء ، سيأكل من طهوهيا ، التي ستصبح زوجته . .

فما اكرمك يا رب . . .

٢٦

لم يصدق هشام أن يتم الامر بهذه السرعة الخاطفة ، والسهولة الفائقة ، فقد كان يتوقع أن تكون دون ذلك صعوبات كثيرة ووقت طويل . .

كذلك لم يصدق أن تصبح الفتاة التي لم يكن قبلها يؤمن بما يسمى « الحب من أول نظرة » هي نفسها زوجته ، وان تكون هي « هيا » ابنة الشيخ عبدالله ، المعروفة بأدبها وتعليمها ومثاليتها . .

وتوجه بذهنه إلى مكة ، حيث اهله الذين لايتوقعون منه مثل هذه الخطوة بتلك السرعة والطريقة ، ولكنه كان واثقا من انهم سيوافقون لأسباب عديدة . .

فوالده قد عوده ـ وعلمه ـ أن يتخذ قراراته الحاسمة بنفسه ، وهو الذي اباح له حق اختيار الاتجاهات الفاصلة في حياته ، وكان فخورا بذلك ، بل انه نوه عن تركه حرية اختيار هشام لزوجته ، لان الحياة حياته ، والقرار قراره ، وما على الاب إلا ابداء الرأي ضمن الحدود التي يراها في مصلحة ولده . . .

وامه لا يهمها سوى أن يكون ولدها سعيداً ، وما دام هو راضياً عن اختياره ، فهي ستوافق وقد لا تخلو موافقتها من شيء من عدم الارتياح لأن الزواج لم يتم على يديها وبمساعيها . . ولكنها لن تلبث ان ترضى متى رأت الفتاة التي اختارها . .

تبقى رجاء ، التي اعتبرت زواج اخيها مسئولية تهمها هي بالدرجة الأولى، والتي حاولت ـ من اجلها ـ أن تختار له عروسه بنفسها ، ولم تيأس عندما وجدت لديه عزوفا عن اختيارها ، ولكن غايتها الاساسية سوف تتحقق باذن الله ؛ وما غايتها الاساسية ـ كما قالت وكما تذكر هشام وهو يبتسم ـ إلا أن

تصبح عمة . . ولسوف تصبح عمة ، سواء كانت أم اولاده صديقتها فاطمة ، أو أخت صديقه ناصر ، فهو حين هفت هيا بقلبه ، واخذت عليه مجامع تفكيره ، إنما كان ذلك رغما عنه ، وبما يسمونه « الحب » هذه العاطفة التي لم يكن يعرفها هشام قبلا ، ولا خطرت له في السابق على بال . .

وتنهد هشام بارتياح ، فالصعوبات المتوقعة ليست بذات شأن ، وما دام أهله جميعاً ، لاسيما ابوه وخاله ، يريدون منه أن يكون حاسما في اتخاذ قراراته ، وان يكون هو — وقبل سواه — مطمئنا إلى تلك القرارات ، فهو قد قرر واختار ، وهو يشعر ، في داخله ، بارتياح عميق لهذا الاختيار . . .

وفي اليوم التالي . . شعر هشام انه اصبح انسانا جديداً ، فقد اقبل على عمله بهمة اكثر ، ونشاط اكبر ، واحس بأن المسئولية التي اختارها ، تفرض عليه أن يسعى بكل قواه لكي يكون افضل مما هو عليه ، وان يسعى باستمرار للتقدم والارتقاء ليكون جديراً بهذه المسئولية . .

كان يحس بطيف « هيا » وهو يدفعه إلى الامام ، ولما يمض على لقائه بها — إن صح أن يسمى ذلك لقاء — سوى ساعات معدودات . . .

وايقن أن صفحة جديدة قد فتحت في حياته ، وان عهداً جديدا من هذه الحياة يفتح له ذراعيه . . .

وادهشه انه حينما التقى بناصر ، اثناء العمل ، لم يشيرا إلى الموضوع ، كلاهما ، بحرف واحد ، وجرى تعاملهما الرسمي كعادته ، ومن غير ان يذكر احدهما للآخر ان هذا اليوم سيكون كذلك ، صفحة جديدة في علاقتهما معا ، إذ يرتبطان برباط المصاهرة ، بعد ان ارتبطا برباط الصداقة والزمالة . ..

وكان هناك شيء من القلق يخالج نفس هشام ، فهو لم يتحدث مع الشيخ عبد الله ، ولا مع ناصر ، في مسألة المهر ، وعهده بالناس يبالغون في هذه الناحية ، ويشترطون شروطا تفوق طاقة من كان مثله ، في مطلع حياته العملية ، ولم يكن يرغب في أن يحمل ابوه عنه هذا العبء ، فهو منذ أن تخرج ، وبدأ عمله ، قد بات مسئولا عن نفسه ، وكان بوده الا يطلب من ابيه مساعدته في هذا الشأن ، وتمنى ان يتمكن من تدبر هذا الامر بامكاناته الخاصة ، ودونما حاجة إلى اللجوء لمساعدة ابيه ، لاسيما وانه قد ادخر من رواتبه وتعويضاته مبلغا غير ضئيل ، لان طبيعة حياته في حائل لا تكاد تتطلب منه شيئاً يذكر من المصاريف . .

وقرر أن يترك موضوع المهر إلى حينه ، وان يتعرف إلى رغبات الشيخ عبد الله ، ومن ثم يرى ما يمكنه ان يفعل . . .

ومضى يتعجل مرور الوقت بانتظار موعده في بيت الشيخ عبد الله هذا المساء . . .



٢٧

عندما دخل هشام قاعة الاستقبال في بيت الشيخ عبد الله ، وبرفقته ناصر الذي فتح له الباب ، وجد مع الشيخ اخاه ، وخال ناصر ، فسلم على الجميع وجلس ، دون ان يدهشه وجود هذين الرجلين فهو يعرفهما من قبل ، وكثيراً ما التقى بهما خلال تردده على منزل الشيخ عبد الله . . .

وبعد ان اديرت القهوة والشاهي ، انضم إلى القوم قادم جديد ، هو الشيخ حمود ، قاضي المحكمة ، الذي سلم على الجميع وجلس وكأنه يقوم بزيارة

عادية . . وبعد ان شرب الشيخ حمود القهوة والشاهي ، التفت إليه أبو ناصر قائلاً :

– اسمع يا شيخ حمود . . انت تعرف طبعاً المهندس هشام . .

– طبعاً . . طبعاً . . كثيراً ما التقيت به هنا من قبل . . . انعم واكرم . . .

– لا اريد ان اطيل عليك . . وانما اخبرك بانه قد تقدم إلي طالبا يد ابنتي هيا ، وقد قبلت ان ازوجها له على سنة الله ورسوله . . .

– ونعم القبول يا شيخ عبد الله . . وربنا يتمم بخير . .

– ولقد طلبت منك الحضور هـذه الليلة ومعك اوراقك لكي تعقد القران الآن . . .

فضحك الشيخ حمود وقال :

– ايه . . الا تصبر إلى أن نتعشى اصلحنا الله . . .

فرد عليه الشيخ عبد الله ضاحكا :

– عشاء هذه الليلة هو بمناسبة القران . . ولن نتعشى قبل أن يتم ذلك . . وخير البر عاجله . . .

– على خيرة الله يا شيخ عبد الله . .

والتفت الشيخ حمود إلى هشام يسأله بعض الاسئلة ، ليدونها في سجل كان يحمله معه حين قدومه ، ثم التفت إلى الشيخ عبد الله يسأله اسئلة اخرى ، وبعدها تناول باحدى يديه يد الشيخ عبد الله ، وبالأخرى يد هشام ، وراح يتلو آيات من القرآن الكريم ، وعقد له قرانه قائلاً :

ـ زوجتك وانكحتك مخطوبتك المصونة هيا بنت الشيخ عبد الله على ما تراضيتما عليه من المهر ، وعلى سنة الله ورسوله . . .

وبعد ان انتهى القاضي من اجراءات القران ، صافح هشام مهنئاً ، كما هنأه والد الفتاة وعمها وخالها وأخوها . . ، ثم توجه الجميع إلى العشاء الذي اعدته هيا بيديها ، ولم يتمالك هشام ، مع أول لقمة دخلت فمه من طهو زوجته أن ابتسم وقال لناصر مداعبا :

ـ سامحك الله يا أخ ناصر . . لقد اخفتني بالأمس وأنت تتحدث عن طهو هيا ، وإذا بي اكتشف الآن انك ظلمتها . . .

وضحك الاب وقال :

ـ الم اقل لك ؟ . . ولكن ناصر هكذا . . ناكر للجميل . .

وقال ناصر باسما :

ـ اردت ان اجعلها مفاجأة لك . . والواقع انني سأفتقد هذا الطعام ، كما سافتقد الاخت التي كانت لي اما ثانية . . .

ولم يفهم الشيخ حمود شيئاً من هذا الحديث الدائر بين الثلاثة . .

وكانت هيا تصغي من وراء الباب بلهفة ، تريد أن تعرف رأي هشام في طهوها ، خاصة وان اباها قد اخبرها ، امس ، بما قاله ناصر ، وكأية انثى يهمها رضى زوجها كانت شديدة الرغبة في معرفة ذوقه ، ومدى انسجامه مع ذوقها واسلوبها في الطهو . .

وبعد هذا الحفل المتواضع ، غادر الشيخ حمود المكان مكرراً دعواته

وتمنياته للعروسين ، والتأم جمع العائلة بأكملها مع صهرها الجديد . . واقبلت هيا على استحياء تصحبها امها التي تعرف هشام عليها لأول مرة ، وجلس الجميع في سهرة عائلية حميمة ، كان الارتياح خلالها سائداً جو المكان . . .

ولم يكن يشغل هشام ، إذ ذاك ، سوى أمرين . . أولهما شعوره بأنه كان من الواجب أن يكون اهله حاضرين هذه الليلة لتكتمل بوجودهم سعادته ؛ وثانيهما مسألة المهر الذي نوه عنه قاضي المحكمة وهو يعقد القران ، مع أن أمره لم يبحث على الاطلاق بينه وبين اهل الفتاة . .

ولاحظ الشيخ عبد الله ، ما يبدو على هشام بين الحين والآخر من سهوم ووجوم ، فسأله بلطف :

ــ ايه يا هشام . . . تبدو وكأن شيئاً يشغل فكرك . .

فقال هشام بلهجة فيها رنة الأسف :

ــ أجل والله يا عمي . .

ــ خيرا ان شاء الله . .

ــ كنت افكر في الوالد والوالدة والأخوات في مكة . . . وكم كنت أتمنى لو أنهم كانوا حاضرين هنا الآن . . واقمنا حفلة . . كبيرة . . .

فابتسم الشيخ عبد الله في لطف وقال :

ــ اهذا ما يشغل فكرك ؟ . . هيّن . . من جهتي انا لا اريد حفلات . . وقد أردت ان اضرب المثل بنفسي في هذا الشأن . . انك لتعلم يا ولدي كم يتكلف الناس على أمثال هذه الحفلات . . . وبعضهم يستدين هذه التكاليف

ليقضي بعد ذلك سنوات طويلة وهو يسددها . . في رأيي انا ان مثل هذه الامور يجب أن يوضع لها حد . . وان ينفق العريس ماله على بيته بدل ان يذبح الذبائح ويقيم الحفلات التي لا تلبث ان تنقضي وينساها الناس . .

ـ كلامك صحيح يا عماه . . أنا اعرف ان احد زملائنا باع قطعة الأرض الوحيدة التي يمتلكها . . بمائة وخمسين ألف ريال انفقها كلها في ليلة واحدة على حفلة زواجه . .

ـ هذا لا يجوز . . هذا تبذير واسراف ليس له معنى . . والله تعالى لا يحب المسرفين . . .

وهكذا قضى هشام بضع ساعات في منزل الشيخ عبدالله، ثم ما لبث أن نهض مستأذنا ، وهو يقول لناصر :

ـ لا ادري إذا كنت مستعداً لايصالي بسيارتك . . ان « الجيب » في ورشة الصيانة اليوم . .

وخرج هشام مع ناصر ، وركب معه في سيارته ، وكان هشام يتحرق رغبة في الافصاح عما في باله فقال لصديقه :

ـ هناك مسألة تشغل بالي يا ناصر . . واردت ان اخاطبك فيها . .

ـ الم تنته بعد من المسائل التي تشغل بالك ؟ . .

ـ بقيت هذه المسألة . .

ـ هات لنشوف . .

ـ مسألة المهر . . اني ، كما لعلك تعلم ، لا املك الكثير . . ولا اريد أن اطلب مساعدة احد . .

– يا شيخ . . هذه مسألة بسيطة . . ألم تسمع الوالد ماذا قال ؟ . . . ان ما يهمنا هو الاخلاق والسمعة الحسنة . . أما المظاهر الفارغة فهي اشياء زائلة ولا قيمة لها . . لقد سمعت الوالد وهو يقول انه اراد ان يضرب المثل بنفسه . . وانت تعلم مكانته في حائل . . ولذا فالمهر مسألة تافهة . . لاتشغل بالك بهاابداً . .

– الحق يا ناصر انني لا ادري ما أقول . . لقد غمرتموني بعطفكم ولطفكم . . .

– ليس بين الاهل تكليف . . واكرر لك تمنياتي بحياة زوجية سعيدة ان شاء الله . . .

– بقيت مسألة . . .

– ماذا ايضاً . . الم تقل انها واحدة فقط ؟ . .

– مسألة اهلي . . انني اشعر بشيء من تأنيب الضمير على انني لم استشرهم أو لم اخبرهم على الاقل . . .

– وايضاً هذه مسألة لا تستحق الانزعاج . . . فلقد فهمت من احاديثك السابقة معي أن هناك تفاهما بينك وبين والدك على أن يترك لك حرية اتخاذ قراراتك بنفسك . . .

– صحيح . . .

– انتهينا إذن . . فما دمت انت مطمئنا إلى انك قد اتخذت القرار المناسب فان امامك مجالا واسعا كي تخبر اهلك ، وتقيم فرحك في مكة كما تشاء . . المهم هو انه اصبح بوسعك الآن ان تأتي إلى بيتنا كواحد من العائلة دون أن يعرضك ذلك ، أو يعرضنا ، لأي كلام أو انتقاد . . وامامك الايام تستطيع ان تخطط فيها امورك ومستقبلك انت وهيا على النحو الذي يروق لكما . .

وبدا على هشام انه قد اقتنع بكلام ناصر ، فصمت واطلق لخواطره العنان يفكر في الكيفية التي سيبلغ بها اهله النبأ ، وماذا سيكون موقف اخته رجاء . . .



لم يكن هشام يظن ان ابلاغ اهله بنبأ قرانه سيكون صعبا على عكس ما كان القران نفسه سهلا . .

وغادر إلى مكة ، بعد ان حصل على إجازة لمدة أسبوع ، واستقبله اهله استقبالا حاراً على عادتهم ، حتى بدأ يشعر بأنه كان من المستحسن لو لم يتعجل وحصل على موافقتهم رغم ثقته من انهم سوف يقرون اختياره ويباركونه . . .

وذهل عندما استقبلته رجاء بالترحاب وهي تقول في مودة واضحة :

– اهلا بك يا باشمهندس . . اهلا بك يا عريسنا . .

وتبادر إلى ذهنه في الحال أن النبأ قد وصل إليهم بطريقة ما ، وان رجاء انما تهنئه على عقد قرانه على هيا ابنة الشيخ عبد الله ، وقبل أن يسألها جلية الامر ، جاءه التفسير من والدته التي قالت له ضاحكة :

– اصل رجاء مصممة انها ستزوجك رغم انفك في أول مرة تزور فيها مكة . . وها قد جئت . . .

وضحك الجميع ، وجاراهم هشام في الضحك بافتعال ، إذ تبدت له – إذ ذاك – صعوبة ابلاغهم بالنبأ بعد أن قرر ونفذ قراره من غير أن يكون لديهم علم بشيء . .

وهكذا رأى ارجاء الموضوع إلى أن يجد الفرصة المناسبة ..

وقضى ليلته تلك مع ابيه وامه واخواته ، يسامرهم ، ويحدثهم عن حياته

الجديدة ، ويلمح – عامدا – بين الحين والآخر إلى زميله ناصر ، وابيه الشيخ عبد الله ، وعن عائلتهم الاصيلة ، ومنزلتها المرموقة في حائل . .

وقالت له رجاء :

– كل هذا الذي تقوله ، يجعلني ازداد اقتناعا بانه لم يبق عليك سوى ان تتزوج ، وبهذا تكتمل حياتك وتتخلص من حياة العزوبة . .

وشعر هشام بالحرج ، فرد عليها بكلمات غامضة ، ولكن رجاء لم تيأس بل عادت تقول :

– العروس جاهزة . . وبكلمة واحدة منك استطيع ان انهي لك الموضوع في أربع وعشرين ساعة . .

فقال لها ابوها ضاحكا :

– الا تتركين هذه السيرة ابدا ؟ . . الولد دوبه واصل مكة وانتي تبغي تجوزيه بالعافية ؟ . .

وضحك الجميع ، وردت رجاء :

– اصلي خايفة تضيع فاطمة من ايدينا . . دى بنت زي السكرة . .

وحار هشام كيف يرد ، لولا ان انقذه في تلك اللحظة صوت المؤذن يدعو للصلاة ، فهب واقفا على الفور قال :

– ياه . . حل وقت الصلاة ونحن منهمكون في الحديث . . .

وكعادته ، كلما جاء إلى مكة ، توجه إلى الحرم الشريف ليؤدي الصلاة فيه ، برفقة والده ، ولاحظ الأب ان ولده لم ينطق بكلمة واحدة سواء في الذهاب أو الإياب ، ولكنه لم يعلق على ذلك بشيء . .

٢٩

مضى يومان بعد ان وصل هشام إلى مكة ، وهو لما يجد الفرصة لكي يفاتح اهله فيما جاء من اجله ، وكان اشد مايضايقه — في داخله — ان رجاء كانت تفوت عليه فرصة الحديث ، باصرارها على الاشارة باستمرار إلى « فاطمة » وإلى نيتها الاكيدة على أن تزوجهما قبل ان يعود هشام إلى مقر عمله في حائل . . .

ووجد هشام أن من الضروري ان يضع حداً لذلك كله ، وان يتخذ الخطوة اللازمة ، وان الارجاء لن تكون نتيجته اكثر من زيادة الامور تعقيداً . . .

ودخل على والده عصرا ، وكان مختليا بنفسه في مكتبته ، وهو يقول :

— هل تسمح لي ، يا ابي ، بحديث خاص بضع دقائق ؟ . .

فرفع الاب رأسه عن الكتاب الذي بين يديه ، وخلع نظارته ببطء ، وقال له بهدوء :

— إلا ! . . كنت انتظر ذلك منذ وصولك . . .

ولم يفهم هشام ما قصده ابوه ، ولكنه خطا بضع خطوات داخل الغرفة فقال له ابوه بنفس اللهجة الهادئة :

— الا ترى ان من المستحسن ان تقفل الباب كيلا يقطع علينا حديثنا احد؟..

وتوقف هشام مترددا ، ثم تذكر ان من المحتمل ان تأتي رجاء في اية لحظة فتحول ، مرة أخرى ، بينه وبين غرضه ، فاستدار ، وادار المفتاح في القفل ثم جلس قرب ابيه مطرقا . .

وطال الصمت ، وابوه لا يسأله عن شيء منتظرا منه ان يبدأ الحديث ، إلى ان تكلم هشام قائلا بارتباك :

– الواقع يا ابي انني جئتك في موضوع . . احببت ان أخاطبك فيه بصراحة كما عودتني ، ولا اريد ان يتدخل احد فيه قبل ان تبدي رأيك وتعطيني قرارك .

فقال الاب بهدوء :

– انني مصغ . .

– الامر يتعلق بالزواج . .

ولم يعلق الاب ، بل ظل ينظر إلى ولده مصغيا ، الامر الذي دهش له هشام ، ولكنه ارتاح – بعض الشيء – إذ وجد ان اباه لم يبد اية ملاحظة سلبية . .

وعاد هشام يبحث عن مدخل للحديث ، ولكنه عجز ، فابتسم ابوه وقال له :

– اراك تجد حرجا في ان تبلغني بما في نفسك . . فهل تريد أن ابلغك انا؟..

ونظر هشام إلى ابيه بدهشة ، واستطرد الأب يقول :

– انك قد وجدت الفتاة المناسبة هناك في حائل . . و . .

فقال هشام بسرعة وقد اتسعت عيناه :

– كيف عرفتم ؟ . .

فقال الاب :

– تخميني إذن في محله . . . اسمع يا ولدي . .لا احسبك تظن ان هذا

الامر قد خفي عليّ . . . لقد لاحظته عليك منذ قدومك . . هل تذكر ليلة ذهبنا لصلاة الفجر في الحرم الشريف وكنت صامتا طوال الطريق على غير عادتك ؟ . . لقد ادركت ، إذ ذاك ، ان هناك ما يشغلك وانه لا يمكن ان يكون هذا الشاغل غير موضوع كهذا الموضوع . .

وشعر هشام وكأن جبلا قد انزاح عن كاهله ، وسأل اباه :

ـ ولكن . . كيف عرفت انني وجدت الفتاة المناسبة في حائل ؟ . .

فضحك الاب ضحكة هادئة وقال :

ـ آه . . . هذه لا تحتاج إلى براعة خاصة . . لقد لاحظت ضيقك بحديث اختك كلما اتت على ذكر فاطمة . . فتأكدت من انك قد اتخذت قرارك . . وان فاطمة ليست هي الفتاة التي تريدها . .

فقال هشام بتأثر :

ـ الواقع انك ، يا ابتاه ، قد ارحتني راحة عظيمة . . كنت مهموما لا ادري كيف ازجي إليك بالنبأ . . فاذا بك تسبقني وتبلغني بنفسك . . واود ان أقول لك أن الفتاة تدعى « هيا » وهي اخت زميلي ناصر ، وابنة الشيخ عبدالله الذي حدثتكم عنه من قبل . .

فقال الاب :

ـ المهم ، يا ولدي ، هو الاخلاق . . والسمعة الحسنة وبعد ذلك كل شيء يهون . .

ـ انها فوق ذلك متعلمة ، وقد حصلت على الثانوية العامة . .

ـ خير على خير . . اتكل إذن على الله يا ولدي . .

وتنهد هشام بارتياح ، فهو – إلى الآن – قد كسب نصف المعركة ، وبقيت امامه « معركة الشكليات » . ووجد نفسه ، مرة اخرى ، حائرا في الكيفية التي يزجي بها ببقية النبأ إلى والده ، ولاحظ عليه الوالد انه ما زال لديه ما يقوله ، فقال له ليساعده على الكلام :

– هه . . هل بقي شيء ايضاً ؟ . . إذا اردت فانني على استعداد لان اسافر والوالدة إلى حائل لنخطب لك الفتاة . .

وشعر هشام بالحرج ، فقال بتردد :

– الحق ، يا ابي ، أن هذه اهم نقطة في الموضوع . . لقد كنت على ثقة من انك ستترك لي حرية الاختيار كما عودتني ، والواقع انني قد خطبت الفتاة فعلا . .

وبدا على الوالد وكأنه فوجىء بهذا النبأ ، وانه قد تأثر له ، ولكنه تمالك نفسه وقال بلطف :

– ولم يا ولدي . . أليس لك أهل يخطبون لك كما يفعل كل الناس ؟ . .

– ادام الله بقاءك يا ابي . . حاشاي ان اغفل عن ذلك . . ولكن الشيخ عبد الله والد هيا ، اراد ان يثبت انه ليس ممن يقيمون وزنا للشكليات التي اعتاد الناس على الالتزام بها بصورة طالما تسببت في فشل كثير من الخطوبات والزيجات ، فهو بعد أن اطمأن إليّ ، وإلى اخلاقي وسمعتي ، تجاوز كل ما تعارف الناس عليه من تلك الامور وعقد قراني عليها في اليوم التالي مباشرة . .

– وعقد لك عليها ايضاً ؟ . .

قالها الاب بكثير من الدهشة ، ولمس هشام في لهجة ابيه رنة اسى ، اوعتاب ،

فشعر بالالم وامسك بيد والده يقبلها بحرارة وهو يقول :

ـ سألتك الله يا أبي ان تصفح عني . . فوالله ما غاب عن ذهني ان عليّ ان ادع لكم تدبير هذا الامر ، ولكن الامور جرت بشكل لم اكن اتوقعه . .

وشعر الاب بأن تأثره قد تلاشى ، ورأى في هشام ـ كما اعتاد ان يرى دائماً ـ الابن المطيع الذي طالما رعاه وتعهده منذ أن كان طفلاً وإلى أن بلغ مبلغ الشباب ، فضمه إليه وقبله من خديه وقال له والدموع تسيل على خديه :

ـ لا عليك يا ولدي . . لا عليك . . قد فعلت خيرا ان شاء الله . . وهي على اية حال شكايات كما قلت . .

وهنا ، فقط ، احس هشام بان الحمل الذي كان يوقر كاهليه قد انزاح وان اباه كفيل ، بما له من كلمة حاسمة في البيت ، بان يضع الامور في مواضعها ، وان يقنع الوالدة بالموافقة . .

ويبدو ان افكار الاب والابن قد التقت عند هذه النقطة ، فقد قال له ابوه وهو يربت على كتفه في حنان :

ـ دع لي مهمة ابلاغ والدتك واختك . . ولا تحمل هذا الهم . . ولسوف تسير الأمور على ما نتمناه ان شاء الله . .

وعاد هشام يغمر يدي والده بقبلاته ، وقد اخذ منه التأثر كل مأخذ ، وشعر بأنه مهما كبر ، ومهما حقق من تقدم في الحياة ، فهو لا يعدو ان يظل طفلا صغيرا امام ابيه ، وانه من ثم في حاجة إليه ، وإلى معونته ، وعطفه ، وتوجيهه ، وارشاده . . .

٣٠

في المساء اجتمع شمل الاسرة ، كالعادة ، للسهرة . . واعدت لابو هشام شيشته ، واحتل مكانه في صدر الغرفة الواسعة ، وارتفعت الاصوات بالحديث ثرثر كالمعتاد في مختلف الامور ، بينما كانت رجاء منهمكة في شغل الابرة وهي تشارك في الحديث دون أن ترفع رأسها ، إذ كانت عيناها مركزتين على ما بين يديها . .

وتنحنح الاب عدة مرات ، فاتجهت ابصار الجميع إليه ، لان مثل هذه النحنحة المتواصلة تدل على ان لدى الاب شيئاً هاماً يريد ان يزجي به إلى العائلة . .

وسكتت الاصوات ، وتعلقت الانظار بسيد الاسرة ، واضطرم وجه هشام بحمرة شديدة ، إذ كان على علم بما سوف يدلي به الأب . .

وقال الأب باسما وهو يجيل بصره في اسرته ليتوقف به على رجاء :

– عجيبة يا جماعة . . الليلة دي ما سمعتكم جبتم سيرة زواج هشام . . ايش الحكاية . . ؟ هوّنتوا والايش . . .

وتوقفت يدا رجاء عن الحركة ، واجابت اباها على الفور :

– هوّنا ؟ . . كيف ؟ . . ابدا . . أنا منتظرة الاشارة منكم . . .

فضحك الاب ضحكة هادئة وقال لها بلهجة مداعبة وعتاب في آن واحد :

– وهو كان حد كلفك انك تخطبيله وتزوجيه ؟ . .

وردت رجاء ببساطة :

– امال . . كيف . . طبعاً انا متولية الموضوع ده من بدايته لغاية . . لغاية المهر . . المهر بس انا مالي شغل فيه . . .

وضحك الجميع ، واحس هشام بالاختناق ، إذ بدأ يترقب الصدمة التي سوف تصاب بها رجاء متى استرسل الوالد في الحديث ، فاطرق وهو يدعو الله في سرّه ان تمر الازمة على خير . .

وقال الوالد :

– وايش عرّفك انه هشام يبغى يتزوج فاطمة . . . فاطمة بالذات ؟ . . ايش عرّفك ؟ . .

وبدون تردد اجابت رجاء :

– وهو راح يلاقي احسن منها ؟ . .

– وإذا لقي ؟ . . البنات قديش كثرهم . .

وكأنما احست رجاء – بغريزتها – بهدف الحديث فقالت متسائلة بقلب واجف :

– يعني هشام ما يبغى فاطمة ؟ . .

وظل هشام صامتا ، وراحت الأم تدير وجهها بين المتخاطبين دون ان تنطق بكلمة واحدة . .

وقال الاب :

– يا بنتي الزواج قسمة ونصيب . .

– ما ني فاهمة حاجة يا بوي . .

– بصراحة كده . . هشام يبغى واحدة ثانية . .

وامتقع وجه رجاء فجأة ، وظهرت عليها آثار الصدمة ، بينما اتجهت ابصار الام والأخوات إلى هشام الذي احس باذنيه تكادان تلتهبان ناراً وقد علت الحمرة وجهه . . .

وقالت رجاء بصوت واجف :

– ايش الحكاية ؟ . . ومين هي البنت التانية دي ؟ . .

فابتسم الاب في عطف وقال :

– يا بنتي يا رجاء . . كلنا مقدرين رغبتك في انك تزوجي اخوك . . ومقتنعين بالبنت اللي اخترتيها له . . لكن ايش نسوي ؟ . . هو يبغي واحدة تانية . .

– مين هي ؟ . . مين هيّ . . ابغى اعرف . .

– بصراحة ياجماعة .. هشام خاطب واحدة تانية .. خطب فتاة من حائل..

– فتاة من حائل ! ! . .

ردد الجميع الجملة مبهوتين ، إذ بدت لهم الامور اكثر جدية ، بكثير ، مما كانوا يقدرون . .

– أي نعم . . من حائل . . بنت طيبة . . ومتعلمة . . ومن عيلة كريمة واهلها وافقوا خلاص . .

وساد الغرفة صمت تام ، حتى رجاء لم تجد جملة واحدة تعلق بها على

هذا النبأ الذي هزها وصدمها ، اما الام فقـــد اعتادت على أن توافق زوجها في كل مايقوله ، ومن غير ان تبذل أي عناء في التفكير ، وما دام زوجها راضيا عن هذه الخطبة المفاجئة كما يبدو من رنة صوته ، فهي — إذن — موافقة ، ولتدع إلى وقت آخر شعور التأثر الذي احست به إذ فهمت ان ولدها قد خطب الفتاة فعلاً ، ولم يترك لها — من بعد ابيه — اتمام هذه المهمة التي تسعد لها أية أم كل السعادة ، وتقبل على اجراءاتها ومقتضياتها بهناء وجذل . . .

وادار الأب وجهه في الحاضرات المبهوتات وقال بدهشة :

— عجيبة . . الولد ما سمع منكم كلمة مبروك . . يصح كده ؟ . .

وانهالت دموع الام على خديها تأثرا ، واقبلت على ولدها تقبله بحرارة في خديه وجبينه ، وهي تقول بصوت باك :

— مبروك يا ولدي . . ألف مبروك . . ألف ألف مبروك . .

وشكر هشام لامه عاطفتها النبيلة ، ورد لها تمنياتها باحسن منها ، وشعرت رجاء بان عليها ان تغالب شعور الاسف الذي خالجها ، وان من حق اخيها عليها — في كل الاحوال — ان تهنئه وتبارك له . . .

وقامت إليه ، وقبلته وهي تقول بتأثر :

— مبروك يا خوي . . مبروك . . .

فقال لها هشام مداعبا :

— من قلبك ؟ . .

— من كل قلبي ! . .

واقبلت الاختان الصغيرتان مهنئتين كذلك ، وارتفع اللغط فجأة كما كان الصمت قد ساد فجأة ، فالكل يريد أن يعلق على هذا النبأ ، والكل يريد أن يبدي اعمق مافي صدره من مشاعر السعادة والارتياح لهذا الحدث الهام في حياة الاسرة ، واحست رجاء بان العيون والافكار مسلطة عليها وان الجميع يرقبون حركاتها ، ويترقبون تصرفاتها ، فهذه الخطبة غير المتوقعة تعتبر هزيمة لها ولا ريب . . ولكن هذا يجب الا يمنعها من ان تسمو عن هذا الشعور وان تتمنى لأخيها السعادة والتوفيق مع الفتاة التي اختارها قلبه . . .

وتمتمت رجاء بصوت خافت :

– لو كنت قلت لنا بس . .

فقال هشام بسرعة :

– هادي مسألة بسيطة . . بعد يومين ثلاثة تنتهي اجازتي ونروح كلنا إلى حائل . . وانا متأكد من انه البنت راح تعجبك . . .

– ايش اسمها ؟ . .

– هيا . .

– هيا ؟ . .

تساءلت الام بسذاجة قالت :

– مدري ايش يعني « هيا » بس والله اسم حلو . .

وتنفس هشام الصعداء ، وتبادل مع ابيه نظرة سعيدة ، فقد زالت صعوبة أخرى من الصعوبات التي كان يخشاها ويتخوف منها . . .

٣١

ضحك الاب وهو يقول لهشام بعد أن انفردا ، في اليوم التالي ، في غرفة المكتبة :

ــ ها قد اجتزنا الازمة الأولى بخير والحمد الله . . واصبح الجميع ، وخاصة رجاء ، أمام الأمر الواقع . .

وشعر هشام بكثير من التأثر وهو يستمع إلى كلام والده ، فهو يخاطبه كند ، وكشريك في موضوع يهمه ، وكان هذا الاسلوب الذي يتبعه الوالد في معاملة ولده ، هو السبب الذي كان يدعوه ــ مذ وعى على الدنيا ــ لأن يبذل جهده كي يكون في مستوى هذه المعاملة التي كان الوالد يهدف منها إلى ايقاظ روح الرجولة فيه باستمرار إذ كان يعامله كرجل ، وليس كطفل اوفتى ، وان هشام ليذكر انه ما كان يزعج اباه شيء قدر أن يراه يتصرف كطفل ، وكثيراً ما قال له ابوه في حزم إذ يراه يبكي لأي سبب من الأسباب :

ــ ما هذا الذي اراه يا هشام ؟ . . الا تخجل من نفسك إذ تبكي وانت رجل ؟ . . الرجال لا يبكون يا ولدي . . .

وعندما بلغ هشام مرحلة الدراسة الثانوية ، كان ابوه يحرص على اشعار ولده بأنه قد بات رجلا مثله ، وان عليه أن يعد نفسه باستمرار لتحمل مسئوليات الحياة . . فكان يتحدث إليه حول بعض المشكلات التي تواجهه ، ويأخذ رأيه فيها ، كما كان يشركه في القيام باعباء إدارة البيت والاشراف عليه ؛ بل لقد عهد إليه بتولي امور المصروف اليومي للبيت ، وكان كثيراً ما يبعث به لاداء بعض المهام في جدة والرياض ، ويصحبه معه في زياراته لبعض الشخصيات

الهامة ، كما كان يطلب منه ان يقرأ له – في اوقات فراغه – في كتاب من الكتب الكثيرة التي تحفل به مكتبته . . .

كان هذا الاسلوب في المعاملة هو الذي جعل هشام ينظر إلى التفوق في دراسته كدليل يقدمه على انه جدير بهذه الثقة التي وضعها فيه ابوه ، والأمل الذي يعقده عليه ، ولهذا كان انزعاجه شديداً حين لم يحصل على التقدير الذي كان يأمل فيه عند تخرجه من الجامعة . . .

وكان حديث الاب الآن ، عن ارتياحه لاجتيازهما – معا – ازمة ابلاغ العائلة بنبأ الخطبة ، داعيا لشعور الابن بالارتياح والتأثر ، فهو يرى في أبيه سنده الكبير ، من بعد الله ، إليه يركن ، وفي رحاب عطفه ومحبته يجد الطمأنينة والأمان . .

واستطرد الاب يقول :

– بقيت امامنا الآن ازمة اخرى ، وهي ازمة ابلاغهن بان العقد قد تم ، ولا ندري كيف يكون رد الفعل . .

وابتسم هشام في سعادة ، واحس بان كل شيء سيكون ، باذن الله ، على ما يرام ، ما دام الامر قد بات بين يدي والده ، وانه سيعالجه بحكمته واسلوبه الخاص ، واجاب على كلام والده بقوله :

– البركة فيك يا سيدي الوالد . . والواقع انني لم اكن قلقا إلا من ناحية رجاء . . فانا لا اريد ان ينهار املها في تزويجي من فاطمة . .

– كله قسمة ونصيب يا ولدي . . والتدابير ، من قبل وبعد ، لله سبحانه . .

وفتح الباب ، ودخلت الام ، فتوقفت لحظة وكأنها تخشى أن تكون قد

جاءت في وقت غير مناسب ، لولا انها لاحظت جو الارتياح الذي يسود الغرفة ، فتقدمت إلى الامام ، واتخذت مجلسها في مواجهة ولدها :

ـ تعرف يا هشام ؟ . . انني لم انم الليلة البارحة . .

ـ خيراً ان شاء الله يا اماه . . لم ؟ . .

ـ تسألني لم بعد ان انهيت لنا ذلك النبأ ؟ . . منذ صغرك وانا احلم باليوم الذي اتولى فيه بنفسي امر زواجك . . اخطب لك . . واختار . . وانت ترفض هذه . . وتأبى تلك . . إلى أن توفق إلى من فيها النصيب . .

وضحك الرجلان وقال الاب :

ـ يا ستّي احمدي ربك . . لقد وفرّ عليك هذا العناء . .

ـ عناء ؟ . .

تمتمت الام في حيرة ، فهي قد عاشت حياتها كلها من أجل اسرتها ، ولم يخطر ببالها ان يكون في اي جهد تبذله في سبيل زوجها أو اولادها أي عناء . .

ولاحظ هشام حيرتها فقال لها :

ـ لقد قالها سيدي الوالد قبل دخولك بلحظات . . كله قسمة ونصيب يا اماه . .

وعلقت الام :

ـ لا اله إلا الله . . .

وبدا وكأن على لسان الام سؤالاً حائراً لا تدري كيف تدلي به ، ولاحظ هشام حيرتها فقال لها بسرعة :

– انني على ثقة من انها ستعجبك . . انها بنت طيبة . . من عائلة طيبة . . وفيها كل الصفات التي تأملين فيها لزوجة ولدك . .

واشرق وجه الام ، إذ كان هذا هو – بالضبط – السؤال الحائر على شفتيها فقد كانت تريد أن تعرف المزيد عن زوجة ولدها :

– ولكن يا ولدي . . اخشى ان يكون هناك شيء من الاختلاف بين حياتنا وحياتهم . . وتقاليدنا وتقاليدهم . .

– ما هذا الكلام يا اماه ؟ . . حياتهم مثل حياتنا . . وتقاليدنا مثل تقاليدهم اننا ، جميعاً ، ابناء وطن واحد . .

– آسفة يا ولدي . . ولكنني لم اغادر مكة في حياتي . . وليس لي معرفة بسواها من المدن . .

– يسعدني ، يا اماه ، أن تسافري خارج مكة لاول مرة بسببي . . لكي تزوري اهل زوجتي وتتعرفي عليهم وعليها . . .

– زوجتك ؟ . . تقصد . . خطيبتك ؟ . .

تساءلت الأم باهتمام ، فعاجلها زوجها بالجواب :

– لا ياستي . . ليست خطيبته . . وإنما . . زوجته . .

وشهقت الام بدهشة ، وضربت صدرها بيدها وهي تردد بدهشة :

– زوجته ؟ . .

وضحك الاب ، وغمز بعينه لهشام ، فهما الآن يجتازان الأزمة الثانية . . وتولى هشام الشرح والايضاح .

– والدها ، يا اماه ، رجل له مركزه في حائل . . وهو رجل حكيم ، واسع الأفق ، اراد ان يضرب للآخرين مثلا بنفسه ، كي يتركوا المظاهر الجوفاء التي اعتادوا عليها في اقامة حفلات الزواج ، ويوفروا المصاريف الباهظة التي تنفق لمجرد التباهي بتلك المظاهر التي لا يلبث ان ينساها الناس بعد فترة قصيرة . . فالمهم هو الاخلاق ، والسمعة الطيبة ، والجدارة ، أما الحفلات والمهور الكبيرة والولائم فهي كلها اشياء ليست بذات بال . .

ونظرت الأم إلى هشام بدهشة شديدة ، ونقلت بصرها بينه وبين ابيه ، فرأت على وجه الاب تأييداً وارتياحا لما قاله الابن ، ولكنها – هي – لم تقتنع فقالت بلهجة فيها من الاستنكار اكثر مما فيها من الدهشة :

– تعني اننا لن نقيم حفلة عظيمة مثل ، أو احسن ، من حفلة ابن عمتك الذي تزوج في العام الماضي . .

واجابها الاب :

– لا ياستي . . لقد بت مقتنعا بان تلك الحفلات المبالغ فيها هي ، فعلاً ، مظاهر جوفاء . . . وان علينا ان نبدأ بأنفسنا . . . سواء هنا في مكة . . . . أو هناك في حائل . . .

ومع ان الام لم تقتنع ، وان خيبة امل مريرة قد استقرت في أعماق قلبها إلا أنها قد اعتادت على أن توافق زوجها على كل ما يقول ، فهو اكثر خبرة ، وعلما ، وحكمة ، ومادام يقول ان هذا هو الصواب ، فهو – إذن – صواب ، وما كانت لتخالف له رأياً أو تعترض على موقف . .

وختم الاب هذا الحديث قائلاً :

– عليك الآن ، يا ست ام هشام ، ان تفهمي رجاء ذلك كله بطريقتك الخاصة . . وانني على ثقة من انها ستفهمه ، فهي واعية ، ومثقفة ، وان تستعدوا جميعاً للسفر إلى حائل لكي نرى زوجة ابننا العزيز . .

٣٢

عندما اقلت الطائرة العائلة باكملها في طريقها إلى حائل ، كان هشام يشعر بالارتياح الشديد ، فهو قد اجتاز الازمة ، الّتي كان يتخوف منها ، بنجاح تام ولم يبق سوى ان تلتقي العائلة بهيا واهلها ، لتشاركه اطمئنانه إلى حسن اختياره وصواب قراره ، ليبدأ – من ثم – صفحة جديدة في حياته ، بعد أن اكتملت هذه الحياة وباتت له شريكة – واية شريكة – تقاسمه السراء والضراء . .

وكان هشام يختلس بين الفينة والفينة نظرة إلى أخته رجاء ، يريد أن يستشف من وجهها ما في داخل صدرها تجاه المفاجآت الّتي واجهها بها ، والّتي احبطت خطتها الّتي كانت تعتز بها كل الاعتزاز لتزويجه من « فاطمة » . . .

والواقع ان رجاء تقبلت النبأ بهدوء غير متوقع ، وكانت دهشتها أكثر من انزعاجها ، صحيح انها وجمت بادىء الأمر ، عندما انهت إليها والدتها النبأ ، ولكنه كان وجوم المفاجأة اكثر منه وجوم الانزعاج . . ولم تزد عن أن قالت :

– بالله عليكي يا امي ؟ . . .إذن فقد فعلها هشام من ورايا ؟ . .

ونهضت على الفور متجهة إلى غرفة هشام ، الذي قرأ في عينيها سعادة وعطفا لم ير مثلهما من قبل ، فاقبلت عليه ، تقبل وجنتيه ، وهي تردد عبارات التهنئة ، دون أن تقول كلمة عتاب واحدة . .

وحين اراد هشام ، ازاء هذا الموقف الذي لم يكن يتوقعه ، أن يشرح لها الامر ، وضعت اصبعها على فمها وقالت له :

– هس . . . ولا كلمة . . . الامور قسمة ونصيب . . . والحمد لله على كل حال . . ان كل ما يهمني هو أن تكون سعيداً يا اخي . . .

– ربنا يخليكي لنا يا رجاء . . ونفرح بك قريباً كما فرحت بي . . .

وتولت رجاء بنفسها شراء الهدايا التي ستأخذها العائلة معها إلى حائل ، وابدت من الحماسة والاهتمام بالرحلة ، وكأنها هي التي اختارت هيا لأخيها ، وانها هي المسئولة عن كل مايتعلق بالتعبير عن فرحة العائلة بهذا الحدث السعيد .

ولم يعد ذكر فاطمة يرد على لسانها قط ، بل كان كل حديثها – وهم في مكة – يدور حول هيا ، شكلها ، جمالها ، تعليمها ، أهلها ، وكانت تختتم هذا الحديث باستمرار عن التساؤل متى ينتقل هشام وعروسه إلى مكة ، لكي يلتئم شمل العائلة وتكتمل – بذلك – سعادتها . . .

وفي المطار كان الشيخ عبد الله وولده وبعض رجال العائلة في انتظار صهرهم وعائلته ، حيث انتقلوا جميعاً إلى المنزل ، ليتم اللقاء بين العائلتين اللتين ربطت بينهما صلة المصاهرة ، واللتين سرعان ما شعرتا بالارتياح المتبادل وتبدد – من ثم – كل ما كان يقلق هشام ، فلقد وقعت زوجته من امه واخواته موقعا حسنا وبادلتهن هيا شعورهن الطيب بمثله ، فرحن – إذ اجتمعن إلى هشام وابيه في الجناح الذي خصص لهم من بيت الشيخ عبد الله – يثنين على جمال هيا ولطفها وادبها ، وكانت رجاء هي الأكثر حماسة في الاشادة بمزايا هيا ومناقبها ، الامر الذي كان يزيد من سعادة هشام ، وشعوره بانه قد احسن الاختيار . . .

وانقضت الامور على خير ما يرام ، واقيم حفل بسيط دعي إليه اعيان المدينة ووجهاؤها ، وبعض زملاء هشام ، وظلت العائلة في حائل أسبوعاً كاملا خفقت خلاله قلوبها بالفرح والبهجة والسعادة ، واطمأنت إلى أن هشام قد بات في خير حال ، وان له في هيا نعم الزوجة وشريكة الحياة . . .

٣٣

عاد هشام من المطار بعد ان ودع اباه وامه واخواته ، وتوجه مباشرة إلى مكتبه ، ليقول له أحد زملائه أن قائد المنطقة يطلب منه ان يراجعه فور وصوله . . .

وتوجه هشام إلى مكتب قائد المنطقة وهو خالي الذهن تماماً مما يريده منه ، وفي ظنه ان هذه المقابلة هي مثل غيرها من المقابلات التي كانت تتطلبها مصلحة العمل في بعض الاحيان . . .

ورحب قائد المنطقة به اجمل ترحيب ، واذن له بالجلوس ، وكرر له تهانيه بالزواج ، ثم صمت بعض الوقت وهشام ينظر إليه منتظراً أن يعرف الغاية من هذه المقابلة . . . وارتسمت على وجه قائد المنطقة ابتسامة وهو يتناول من بين الأوراق برقية ويقدمها لهشام وهو يقول :

ـ منذ الآن سوف تقيم في احدى فلل الضباط ، لقد استأذنت سمو الوزير وجاءتني برقية بالموافقة على ذلك . . .

وشعر هشام بالتأثر ، فهو لم يكن يتوقع ان يهتم قائد المنطقة بأمره إلى هذا الحد ، وان يتخذ هذا الاجراء الذي يدل على التقدير والرعاية ، وقبل ان يجد الكلمات المناسبة للتعبير عن شكره وامتنانه ، قال قائد المنطقة :

ـ انني اقدر فيك اخلاصك وجهدك ومثابرتك في اداء عملك وواجبك . . ولهذا حرصت على ان اقدم لك ما يعبر عن هذا التقدير بصورة عملية . .

وازدادت ابتسامة قائد المنطقة اتساعا وهو يتناول ورقة اخرى كانت امامه ويقدمها لهشام وهو يقول :

ـ وهذا تكريم آخر من سمو وزير الدفاع والطيران للمجدين العاملين . . انه هدية زواجك . . امر بسيارة جديدة . . .

ووجد هشام نفسه عاجزاً عن الكلام ، فهو ـ مع يقينه بأنه انما يؤدي واجبه في عمله ـ قد شعر بانه قد نال من التكريم ، ماديا ومعنويا ، اكثر مما يأمل ، واكثر مما يخطر له ببال . . .

واستطاع ان يجد نفسه اخيراً ، بعد وقع مفاجآت هذه المقابلة السارة ، وان يبدي لرئيسه شكره وامتنانه على ما احيط به من عطف ورعاية ، وطلب الاذن بان يرفع لسمو الوزير هذا الشكر وذلك الامتنان . .

وخرج من مكتب قائد المنطقة ، وقد التهب حماسة ورغبة في ان يتفانى في عمله إلى اقصى حد يستطيعه ليكون في مستوى ما نال من ثقة وتكريم . . .



ـ تدرين يا هيا ؟ . . . انني في اشد الدهشة ، كيف كنت اعيش قبل ان اراك ، وان اكمل حياتي بك . . . انني ، ولله الحمد ، اشعر بانه لم يعد ينقصني شيء . .

قال هشام ذلك لزوجته « هيا » ، وهما جالسان في مجلس الفيلا التي اعطيت

له في حي الضباط ، وكانت هيا قد اضفت على الفيللا لمسات تنم عن ذوقها الرفيع ، وانوثتها الرقيقة ، الامر الذي جعل هشام يشعر بسعادة لاحد لها وهو يلج الباب كلما عاد من عمله . . .

كان قد مضى على زواجهما شهر واحد ، اكتشف هشام خلاله ، ان الله قد رزقه بالزوجة الصالحة التي يتمناها كل انسان ، وان تلك الصدفة العابرة التي جعلته يراها ويتعلق بها ، كانت نقطة تحول في حياته ، اسفرت عما هو فيه الآن من سعادة وهناء ، يجالس زوجته ، وامامهما اطباق من الفواكه والمكسرات وهي تقشر له التفاح وتقدمه إليه . . .

واطرقت هيا عندما سمعت شريك حياتها يعرب عن سعادته بتلك الحرارة وقالت له بخجل :

– انني ابادلك هذا الشعور بمثله . . . وارجو ان يديم الله علينا هذه النعمة . .

وصمتت هيا ، وكانها كانت تهم بأن تقول شيئاً ثم عدلت عنه ، ولاحظ هشام ذلك فسألها :

– يبدو لي ان في فمك كلاما تريدين ان تقوليه . .

فافتر ثغرها عن ابتسامة سعيدة وهي تقول :

– الحمد لله . . يسعدني جداً أن تكون العلاقة بيننا قد وصلت إلى حد يجعل احدنا يحس بما يشعر به الآخر . .

– هل تشكين في ذلك ؟ . .

– ابدا بالطبع . .

– هه . . ما الذي كنت تريدين ان تقوليه اذن ؟ . .



فتشاغلت هيا بتقشير تفاحة ، وقطعها الى اجزاء صغيرة وهي تتكلم :

– الواقع انني احسد نفسي على ما انا فيه . . وانني لشديدة الفخر بك . . ولكنني اريد ان اسألك . . عن مشاريعك بالنسبة للمستقبل . . .

– المستقبل ؟ . . المستقبل بيد الله . . واعتقد انك تعرفين شيئاً عن نظام الخدمة في القوات المسلحة . . كل كذا سنة اضيف نجمة جديدة إلى كتفي . . إلى أن اصبح لواء . . وربما فريقاً . . .

قال هذا ، واردفه بضحكة ، فهو قد حسب ان زوجته انما تتكلم كلاما عاما ، ولا تقصد شيئاً معينا . . .

وعلقت هيا بقولها :

– كلام جميل . . ولكنني اريدك ان تحمل ارقى الشهادات . . وان تتقدم في حياتك بسرعة وثبات . .

– عندي بكالوريوس في الهندسة . .

– هذا لا يكفي . . .

– ماذا تعنين ؟ . .

– انني اتساءل . . لماذا لاتسعى إلى الابتعاث والحصول على شهادات اعلى ، تفتح امامك ابواب المستقبل ، وتتيح لك فرصة التقدم بشكل افضل . .

وقطب هشام حاجبيه ، فقد فوجىء بكلام هيا ، وتذكر في الوقت نفسه امنيته القديمة في الابتعاث . . للحصول على شهادات اعلى من جهة . . . والتمكن من اللغة الانجليزية من جهة أخرى . . ولكنه نسي هذا الامل ، او تناساه ، بعد التحول الذي تم في حياته ، والسرعة الخاطفة التي اصبح معها رب بيت ومسئولا عن عائلة . . .

ونظر إليها ، فوجدها تنظر إليه بلهفة وكأنها تنتظر جوابه ، فابتسم وقال :

ـ الحق انك قد ضربت على الوتر الحساس في نفسي . . قبل الزواج كانت البعثة هي املي ومبتغاي . . ولكنني نسيتها تقريباً منذ أن خطفت قلبي في ذلك اليوم المشهود . . .

فقالت باسمة :

ـ من فضلك . . لسنا الآن في موقف غزل . . . دعني من « خطفت قلبي » و « اسرت فؤادي » . . . وتكلم كلاما عمليا . . .

ـ الا تختصرين الطريق فتقولين لي ماذا تريدين ان تقولي ؟ . . .

ـ لم لا ؟ . . اني ، كما قلت ، اريد لك التقدم المستمر ، والعلم هو سبيل التقدم ، واعتقد ان رضى رؤسائك عنك سوف يجعلهم يساعدونك في الحصول على بعثة . . . وسوف تجدني إلى جانبك ، اهيء لك كل الاسباب كي تستأنف دراستك في افضل الاجواء . . .

وشعر هشام باحساس طاغ بالمحبة والتقدير لهذه الزوجة الطموح ، فامسك بيديها في يديه وقال لها بحماسة :

ـ اني لا ادري كيف اعبر لك عن شعوري . . حقا لقد اكملت حياتي اكثر مما كنت اتوقع . . . ليكن يا حبيبتي . . غداً ان شاء الله ابدأ مساعيَّ من اجل البعثة . .

ـ عظيم . . هذا هو املي فيك . . ولكن ليكن معلوما لديك منذ الآن اني لا اقبل اقل من الدكتوراه . . .

ـ باذن الله يا حياتي . . باذن الله . . .

٣٥

هش قائد المنطقة في وجه هشام عندما استأذن في الدخول عليه ، صباح اليوم التالي ، ورحب به بحرارة ، ثم طلب منه ان يجلس ، وان يتكلم فيما جاء فيه . . .

ووجد هشام شيئاً من الحرج في ان يفضي بما جاء من اجله ، ولكن طيف هيا مر في خاطره كالبرق الخاطف ، فاستمد من هذه الذكرى شجاعة جعلته يعزم على الكلام ، ذلك انه خجل ان يعود إلى زوجته من غير أن يأتيها بنتيجة بعد أن وعدها وعدا قاطعا بان يعرض الامر على قائد المنطقة في الغد ، وكان سبب شعوره بالحرج من الافضاء لقائد المنطقة هو حسن المعاملة الفائق الذي يعامله به ، ورغبته في الايظن القائد بان هشام يستغل هذه المعاملة . . .

– هه . . . خيراً ؟ . . .

تساءل قائد المنطقة وهو ينظر إلى هشام باهتمام . . .

وتحاشى هشام النظر في عيني القائد وهو يقول له بشيء من الارتباك :

– الواقع . . الواقع يا سيدي . . انني جئت في موضوع . . موضوع شخصي . . واود أن ابدي لك ، قبل ان اعرضه ، انني شاكر ومقدر لكل ما تحيطني به ورؤسائي من رعاية وحسن معاملة . . .

– هذا هو اقل ماتستحق يا بني .. ولكل مجتهد نصيب كما هومعروف .. تكلم على راحتك وقل ما شئت . .

– لقد جئت اسأل . . . ما إذا كان ممكنا ان احصل على بعثة دراسية للخارج . . . لارفع من مستواي الفني والثقافي . . . واحصل على شهادات اعلى تؤهلني لاداء واجبي على وجه افضل . . .

وابتسم قائد المنطقة في عطف وتفهم ، وقرأ هشام في ابتسامته هذه معنى الموافقة والتأييد فشعر بارتياح عميق ثم اصغى إلى رئيسه وهو يقول :

ـ هذا من حقك يا هشام . . هذا من حقك . . ما دمت قد اثبت كفاءة وتفانيا في عملك ، وامضيت اكثر من سنتين في الخدمة بعد تخرجك من كلية الهندسة . . فان من حقك ان تبتعث اسوة بالمئات من زملائك . . .

وقال هشام بصوت يخنقه التأثر :

ـ انني عاجز عن الشكر يا سيدي . . .

ـ بالعكس . . فلا شيء يستحق الشكر . . والحقيقة ان هذا الموضوع لم يكن غائباً عن بالي ، وكنت اريد ان افاتحك به قبل زواجك . . ثم قلت في نفسي انه إذا كانت لديك رغبة فيه فسوف تتقدم بها في الوقت الذي يلائمك . .

ونهض هشام ، وادى التحية العسكرية للقائد وهو يقول :

ـ الف شكر . . الف شكر يا سيدي . .

ومد قائد المنطقة يده مصافحا وهو يقول :

ـ راجعني بعد أسبوع باذن الله . . وآمل ان ابلغك اطيب الانباء . .

ـ الف شكر يا سيدي . . .

واستدار نحو الباب ، والفرحة تتوثب في ضلوعه . . .

وحين وصل إلى مكتبه ، هم بان يتصل بزوجته تلفونيا ليبشرها بنتيجة مقابلته لقائد المنطقة ، ولكن خاطرا مضحكا خطر بباله ، جعله يبعد يده عن سماعة التلفون وقد قرر في نفسه شيئاً .

فبعد نهاية الدوام ، وعودته إلى بيته ، فوجئت هيا بوجهه المكفهر وهو يدخل البيت ، ثم الزفرة الحرّى التي اطلقها وهو يتهالك على اقرب مقعد ، والنظرة الحزينة التي اطلت من عينيه . .

وانقبض قلب الزوجة ، وتساءلت في قلق :

– خيراً يا هشام . . ماذا هناك . .

ولم يجبها ، واكتفى بان اطلق زفرة اخرى . .

فاقتربت منه وسألته بلهفة :

– بالله عليك تكلم . . هل حدث شيء . . هل رفضوا البعثة . . .

فهز رأسه ايجابا في اسى ، وظل على اطراقه . .

واحمر وجه هيا ، وبدا عليها انها قد صدمت للنبأ ، فضغطت بأسنانها على شفتها السفلى في عصبية ، ثم راحت تتمشى في الغرفة جيئة وذهابا بانفعال وكان هشام يبذل مجهوداً خارقا لكي يحتفظ بمعالم وجهه الحزينة المصطنعة ، وآلمه ان يسبب لها هذا الانزعاج بدل ان ينهي إليها النبأ السعيد ، ولكنه قرر السير في اللعبة إلى النهاية ليرى ما يكون منها . . .

وتوقفت هيا اخيراً عن السير ، وجلست على طرف الكرسي ؛ وضمت رأس هشام إليها كالام الرؤوم وقالت له بصوت جهدت في ان تمنع ارتجافه :

– لا بأس . . لا بأس يا حبيبي . . لن نيأس . . سوف نحاول مرة ثانية وثالثة ورابعة . . فلنؤجل البحث في هذا الموضوع الآن . . ونقوم بعد فترة بمحاولة اخرى . .

وهزته كلماتها في اعماقه هزاً عنيفاً ، فهذا الاهاب الاهيف الذي يضم

هذه المرأة الجميلة ، انما يضم كذلك انسانة ذات ارادة وتصميم ، لاتيأس من العقبات ولا توهن من عزمها الصعوبات . .

وشعر هذه المرة بأسف حقيقي لقيامه بهذه المزحة التي رآها الآن سخيفة ، وتساءل عم ستفعله عندما تعرف انه انما كان يمازحها . . .

ورد عليها بصدق وتأثر :

ـ هيا . . يا زوجتي المحبوبة . . انني لأحسد نفسي على ان الله قد من علي بزوجة مثلك . . لم اكن اظنك قوية الارادة والاعصاب بهذا المقدار . .

ـ انني حريصة جداً على الا تشعر بالاسف . . ويهمني ان تظل سعيداً دائماً . .

ـ انني سعيد مادمت بجانبك . .

ـ والآن ، دع الاسف جانباً ، وقل لي ماذا دار بينك وبين قائد المنطقة ولماذا ، وكيف ، رفض ابتعاثك . . .

ومط هشام شفتيه بحركة مرحة وقال بصوت خافت مسموع :

ـ آه . . دخلنا في الجد . .

ـ تكلم . .

ـ سأتكلم . . ولكن بشرط ان تجلسي هناك . . بعيداً عني . .

ـ لماذا ؟ . .

ـ ستعرفين عندما تسمعين . .

ونهضت هيا لتجلس على المقعد البعيد الذي اشار إليه هشام ، واتجهت إليه بكليتها وهي تقول :

ـ ها قد ابتعدت . . ما اغرب اطوارك . . قل يا سيدي ولا تخف . .

فقال هشام بسرعة :

ـ قلت لقائد المنطقة كيت وكيت . . فاجابني بأن من حقي الابتعاث بعد أن اثبت جدارة وكفاءة في عملي وانه بالتالي سيرفع للجهات المختصة عني لابتعاثي . .

وظلت هيا صامتة فترة ، فهي قد فوجئت بما يقول ، وبدا عليها وكأنها لم تفهم ، أو انها تستوعبه شيئاً فشيئاً ، حتى إذا تبينت فحوى النبأ السعيد ، اشرق وجهها بالفرح الشديد ، ثم قفزت نحوه وهي تقول بمرح وسعادة :

ـ آه . . الآن عرفت لماذا طلبت مني ان اجلس بعيداً عنك . . خفت ان اخنقك بعد ان اتبين انك لم تقل الحق حين زعمت ان طلبك قد رفض . .

فقال لها ضاحكا وهو يطوق خصرها بذراعه :

ـ اجل . . هذا هو الصحيح . . وصدقيني انني ندمت في اعماقي اشد الندم حين رأيت انزعاجك . . اردت ، في الحقيقة ، ان امازحك ، ولكن الجدية التي اخذت بها الموضوع جعلتني اخجل واندم . .

ومدت يديها الاثنتين نحو عنقه وهي تقول له بمرح :

ـ ماذا افعل بك . . ماذا افعل بك . . خضيتني يا شيخ . . الله لا يسامح عدوك . .

ثم اتخذت ملامحها سمة جدية وهي تقول :

ـ المفروض ان اعاقبك بحرمانك من الغداء . . ولكن نفسي لا تطاوعني فيها إلى المائدة . . . وبعد الطعام نعقد جلسة لبحث الموضوع واتخاذ المقررات اللازمة . . .

٣٦

لم تمض غـــير شهور قليلة حتى كان هشام وهيا في طريقهما إلى مكة ، حيث ستقيم هيا مع اهله ريثما يستكمل اجراءات ابتعاثه في الرياض . .

وكانت فرحة العائلة بلقائهما غامرة ، فقد استقبلهما الجميع بالتحيات والقبلات ، وان لم تخل وجوههم من الدهشة لهذا القدوم المفاجىء . . .

وحين شرح لهم هشام الامر ، سرّ الوالد سروراً عظيماً ، ولكنه قال لهشام معاتبا :

ـ متى يا ولدي تكف عن اسلوب المفاجآت هذا ؟ . . كان عليك ان تخبرنا ولو تليفونيا على الاقل . .

وعلقت رجاء على كلام ابيها قائلة بلهجة ذات مغزى :

ـ اصله هشام دايماً كده . . يخلينا نفتكر حاجة . . ويروح هوّ عامل حاجة تانية . .

وقالت لهم هيا ضاحكة :

ـ لو تعلمون ماذا فعل بي عندما جاءني في اليوم الذي فاتح رئيسه في موضوع البعثة . . . لقد خضني خضة . . الله لا يوريكم . . .

وارتفعت الضحكات من الجميع ، وراحت هيا تروي لهم ما حدث ، وتقلد صوت هشام وحركاته عندما ابلغها بفشل مسعاه ، وتصف لهم شعور الصدمة الذي انتابها ، ثم انقلابه إلى فرح غامر ، وختمت هيا كلامها بقولها :

– بس الحمد الله . . هوّ خد درس من تلك المزحة . . . فعندما جاءت برقية وزارة الدفاع بالموافقة وبانتقاله للرياض لاستكمال الاجراءات اعطاني صورة البرقية ببساطة . . ولم يحاول ان يعيد معي تلك المزحة . . .

واقبلت العائلة على هشام تسأله تفاصيل هذه البعثة ، واين ستكون ، وما هي الشهادة التي سيحصل عليها ، وكم تستغرق مدة الدراسة ، وهل سيرونه خلال مدة الابتعاث و . . و . .

وقاطعهم هشام قائلاً :

– حيلكم . . حيلكم . . واحدة واحدة . . الشهادة التي ساحصل عليها هي الماجستير . . ومدة الدراسة متوقفة على الجامعة التي سألتحق بها . . ولكنها في حدود اربع سنوات . أما مكان الدراسة فاغلب ظني انه سيكون الولايات المتحدة . . وسوف اراكم وتروني ، باذن الله ، خلال العطل الدراسية الطويلة هه . . هل هناك اسئلة اخرى ؟ . .

ومسحت الام دمعة سالت على خدها رغما عنها وقالت بصوت باك :

– ربنا يكون معاك يا ولدي . . راح توحشنا مره . . .

– ما تشوفي وحش يا امي . . ان قلبي سيظل معكم دائماً كما تعلمين . .

وبينما هم في حديثهم ، رن التلفون ، ورفع الاب السماعة ، واصغى قليلا ثم قال :

– لحظة واحدة . .

ـ تليفون لك . . من الرياض . . .

ـ من الرياض ؟ . . غريبة . .

واخذ السماعة ليأتيه صوت صديقه صلاح عبر اسلاك التلفون وهو يحييه ويسأله عن صحته ، ورد هشام بابتهاج على صديقه ، فهو لم يره منذ أن تخرجا من الجامعة ، ولم يعد يعرف عنه شيئاً ، وفوجيء عندما قال له صلاح انه قد التحق بعد التخرج بوزارة الدفاع والطيران ، وان التحاقه هذا كان بسبب اختيار هشام نفسه لهذا الاتجاه ، إذ اقتنع بوجهة نظره حين تحدثا ـ مع باقي الزملاء ـ في هذا الموضوع ، واضاف صلاح انه لم يكد يقرأ اسم هشام بين المقرر ابتعاثهم إلى الخارج حتى اتصل به في حائل فقيل له انه قد ترك الخدمة هناك ، وانه في طريقه إلى مكة ومنها إلى الرياض .

وتبادل الزميلان التهاني ، وتواعدا على لقاء قريب في الرياض ، وزمالة دائمة ـ إذا امكن ـ خلال البعثة . . .

٣٧

والواقع ان هشام قد لاحظ تغييراً ملحوظاً في شخصية زميل الدراسة القديم عندما التقاه في الرياض بعد تلك المدة التي فرقت بينهما عقب التخرج . .

فلقد تخلى صلاح ـ كما لاحظ هشام ـ عن كبريائه وعنجهيته اللتين عرف بهما بين زملائه من قبل في الكلية ، وغدا انسانا ودودا وطبيعيا في تصرفاته ، وإن كان يحتفظ بجديته وعقله المنظم الذي لا يهمل ادق التفاصيل فقد فاجأ هشام بابلاغه انه قد دعا من استطاع الاتصال به من زملائهم القدامى في الكلية ، ممن كانوا في الرياض ، ليحتفلوا جميعاً بلقائهم بعد ان فرقت الايام بينهم ، واتخذ كل منهم في الحياة مساراً يتفق مع ميوله وظروفه . .

وفي المساء كان االقاء الحميم بين زملاء الدراسة . .

فقد حضر ، بالإضافة إلى هشام وصلاح ، الزملاء عبد العزيز وعمر وتركي وعلاء ، فكان هذا اللقاء صورة حلوة من صور الاخوة التي تغرسها الزمالة الطويلة وراء مقاعد الدرس ، فتبادلوا العناق والقبلات وبدا عليهم وكأنهم قد افترقوا بالأمس فقط ، إذ سقطت حواجز الزمن ، وتلاشت السنوات التي ابعدتهم عن بعضهم ، واختفى من تصرفاتهم التحفظ الذي اكتسبوه بعد التحاقهم بالحياة العملية ، فعادوا — كما كانوا — زملاء دراسة للمرح والمزاح من اقوالهم وتصرفاتهم أوفى نصيب ، فارتفعت ضحكاتهم ، وتناثرت نكاتهم وكثرت ثرثرتهم وهم يستعيدون ذكريات تلك الأيام التي لاتنسى ، ويذكرون بعضهم البعض بما مر بهم في حياتهم الجامعية من مواقف فيها المضحك وفيها المؤسف ، ولكنها — الآن — تعتبر كلها ذكريات غالية عليهم ، يسترجعون تفاصيلها بكثير من الشوق ، ويتمنون لو انها عادت بحلوها ومرها على السواء . .

كان عبد العزيز قد اختار الاعمال الحرة طريقاً له في الحياة ، وحقق في ذلك نجاحاً ملحوظا ، بينما التحق الآخرون بوزارات مختلفة في الدولة ، وكان هشام وصلاح وحدهما من منسوبي وزارة الدفاع . . .

وبعد العشاء الحافل الذي كان صلاح قد اعده لهم ، جلس الزملاء القدامى يحتسون الشاهي ويتحدثون عما جرى معهم منذ اليوم الذي تخرجوا فيه وحتى هذا اليوم .

وأشار بعضهم إلى التطور العظيم الذي حققته جامعات المملكة خــلال السنوات التي انقضت على تخرجهم فقال تركي معلقاً على ذلك بلهجته المرحة المعتادة :

ـ هل تذكرون يا اخواني ذلك اليوم الذي حدثنا فيه بعض اساتذتنا عن ذكرياتهم الأولى عن نشوء جامعة الرياض وتطورها ؟ . . لقد كان حظنا ، ولا ريب ، أوفر من حظ من سبقونا . . ولكن يبدو لي ان حظ من تلونا في الجامعة كان اوفر . .

واجابه صلاح وكأنه يقرر امراً بديهياً :

ـ هذا طبيعي . . لأنها سنة الحياة . . فنحن ، ولله الحمد ، نسير من حسن إلى احسن . . ويقينا ان الاجيال الجامعية التالية سوف تكون اوفر حظا ، حسب تعبيرك يا اخ تركي ، من الجيل الحالي . .

ففتح تركي فمه بطريقة تمثيلية مصطنعة وقال ساخراً :

ـ ياه . . ما هذا الاكتشاف ياباشمهندس صلاح ؟ . . انني ، بصراحة ، لا احسدك على نظرتك إلى الامور وكأنها معادلة حسابية يكون فيها ناتج جمع الواحد إلى الواحد هو اثنين دائماً . . لقد كنت اعلق تعليقاً عابراً ولم اكن اطرح نظرية رياضية . .

وصفق عبدالعزيز بيديه في سرور وهو يعلق على الحوار الدائر بين الاثنين :

ـ الله أكبر . . هاقد عدنا إلى ايام الدراسة بالضبط . . وكنت اظن انها قد مضت وانقضت . . فالأخ تركي عاد إلى تعليقاته الساخرة . . والأخ صلاح عاد إلى جديته وطريقته العقلانية في محاكمة الأمور . . وكل شيء على ما يرام والحمد لله . .

وقال هشام باسما :

ـ إذا كان الامر كذلك فدعونا ، إذن ، نكتفي بهذا القدر ايها الاخوان فنحن الآن نتطلع إلى المستقبل . . لا إلى الماضي . .

وقال صلاح :

– جلستنا هذه فيها شيء من الماضي . . وشيء من المستقبل . . ولولا أيامنا الماضية كزملاء في الجامعة لما امكننا ان نلتقي اليوم كاخوان يتطلعون إلى الغد . .

وزم تركي شفتيه بحركة فكهة وكأنه يريد أن يمنع نفسه من الكلام ثم تنهد قائلاً :

– لو تكلمت الآن لا نبرى لي الاخ صلاح باحدى معادلاته الرياضية . . ولكنني ايضاً لا استطيع أن اصمت . . فالكلام وقف في حلقي . . ولو ظللت ساكتا لاختنقت به . .

فابتسم صلاح وقال له ببساطة :

– قل ماتشاء . . لقد تعودت ، وتعود الزملاء ، على تعليقاتك المضحكة اعني . . الساخرة . .

فاكتفى تركي بأن رد بسرعة :

– فقط كنت اريد ان ابدي اعجابي باكتشافاتك الرائعة . . فهأنت قد اكتشفت بانه لولا ايامنا الماضية كزملاء في الجامعة لما التقينا اليوم . . . معادلة فريدة . . لم يسبقك إليها احد . .

وضج الاصدقاء بالضحك ، وشاركهم صلاح نفسه فيه ، مما دل على التغيير الكبير الذي طرأ على سلوكه وتفكيره . . وتخلصه من ذلك الطابع الجدي الجاف الذي كان يسم تصرفاته ايام الجامعة . .

وخلع عبد العزيز نظارته وراح يمسحها بطرف غترّته وهو يقول ببطء :

ـ بالنسبة إليّ . . انا احمد الله الف الف مرة . . لقد اخترت طريقي وسرت فيه . . وانا ولله الحمد راض كل الرضى عما انا فيه . .

فقال له هشام ضاحكا :

ـ هل نسيت انك قلت لي قبلا انه لولا هذه النظارة لالتحقت بوزارة الدفاع ؟ . .

واعاد عبد العزيز نظارته إلى عينيه بعناية وأجاب :

ـ هذا صحيح . . ولكن . . ما كل مايتمنى المرء يدركه . .

وتكلم تركي فجأة موجها كلامه للجميع :

ـ على فكرة يا جماعة . . هناك مسألة اريد ان استشيركم بها . . فأنا موعود بالابتعاث للحصول على الماجستير في العام المقبل باذن الله . . فما رأيكم ؟..

فقال له علاء ضاحكا :

ـ مقبول . . مقبول ان شاء الله . .

وعاد الاصدقاء للضحك فهم قد فهموا ايماءة علاء إلى ماكان يبدو من تركي ، في السابق ، من قناعة بالحصول على درجة مقبول . . ويعتبرها استجابة لدعاء امه . .

ولكن تركي قطع عليهم ضحكهم قائلاً بجدية تامة :

ـ انني لا امزح الآن . . ولكنني اسألكم سؤالاً جديا . . فأنا اعتزم

الزواج ، باذن الله ، ولكنني حائر ما بين ان اؤجله إلى ما بعد البعثة أو أن اتزوج واصطحب زوجتي معي . .

وبدا على الجميع الاهتمام بهذا السؤال ، لانه كان – في واقع الامر – يدور في اذهان معظمهم . .

وتطلعوا إلى بعضهم البعض وكأنهم يأملون ان يجدوا الجواب لدى واحد منهم . .

وتكلم عبد العزيز محاولا ان يجيب على السؤال :

– انا اعتقد ان المسألة تعتمد بالدرجة الأولى على الشخص نفسه ، وعلى ظروفه العائلية من ناحية . . كما تعتمد على امكانات الشخص وقدرته على التحصيل . . أنا اعرف اشخاصا حرصوا على الذهاب إلى المرحلة الأولى من الدراسة منفردين . . أي بدون عوائلهم . . لكي يتفرغوا لدراسة اللغة . . وهناك آخرون على العكس من ذلك . . لاتنتظم حياتهم إلا إلى جانب زوجاتهم . . وربما اولادهم ايضاً . .

وقال علاء على الفور وكأنه يريد ان يعلن رأيه المخالف قبل ان يستقر رأي عبد العزيز في أذهان الزملاء :

– يا أخ عبد العزيز . . يبدو لي انك تفكر تفكيراً غريباً جداً . . فأنا اعتقد ان من أسباب اخفاق بعض الزملاء في الدراسة ، اعني دراسة اللغة ، أنهم قد اصطحبوا عائلاتهم معهم في المرحلة الأولى . . بينما كان يتوجب عليهم ان يتفرغوا تفرغا كليا لدراسة اللغة . . مع ما يتطلبه ذلك من انهماك مستمر ودراسة متواصلة . . واحتكاك بالآخرين . . لاكتساب اللغة الأجنبية بسهولة لانهم في هذه الحالة سيضطرون للحديث بها اغلب الاوقات . . هذه هي الطريقة السليمة لتعلم اللغة الأجنبية . . أما إذا كانت عائلة المبتعث ، من زوجة واولاد

معه ، فهو سيضطر للحديث في البيت بالعربية وبذلك يضيع في المساء ما اكتسبه في الصباح . .

وتدخل هشام في الحديث قائلاً وكأنه يعبر عما سوف يقوم به شخصياً :

ـ مع احترامي لرأيك يا أخ علاء . . أنا اعتقد انك تبالغ في هذه الناحية أكثر من اللزوم . . وان كنت لا انكر اهمية التفرغ الكلي والانصراف التام للدراسة . . ولكن ليس معنى هذا أن اصطحاب العائلة يؤدي إلى تعطيل الطالب عن دراسته . .

وقال عبد العزيز ، وقد استمد من تأييد هشام لرأيه مزيداً من القناعة به :

ـ الا قل لي يا أخ علاء . . بمن ستحتك في بلاد الغربة ؟ . . ومن سيكون أقرب الناس إليك ؟ . . اليسوا هم أنفسهم زملاءك واخوانك من مواطنيك ؟ . . وهل ستخاطبهم هناك باللغة الإنجليزية وأنت لست متمكنا منها بعد ؟ . . ام ستتخاطب معهم بالعربية وبهذا يسقط ركن أساسي من حجتك في تبرير عدم اصطحاب العائلة ؟

وارتفعت همهمة الزملاء بالتأييد لهذا المنطق المحكم ، وعاد هشام إلى تأييد رأي عبد العزيز :

ـ الواقع انني كنت عازما على اصطحاب زوجتي معي . . وعلى ان تتعلم اللغة الإنجليزية معي . .

فقال علاء باسما :

ـ يا سيدي تستطيع ان تؤخر تعليم زوجتك اللغة سنة . . لان الهدف

الاساسي هو أنت . . فاذا انت ، لا قدر الله ، اخفقت فسيكون ذلك مؤلما بالنسبة لك ولها على السواء . . وبعد ان تنتهي من دراسة اللغة لمدة سنة واحدة تستطيع ، عندها ، أن تصطحب زوجتك . .

وقال تركي الذي كان هو الذي اثار هذا الجدل :

– اقول لكم ياجماعة . . خلاص . . أنا عدلت عن البعثة وعن الزواج أيضاً . . فدعونا من هذا الحديث ، وتعالوا نلعب ونتسلى كما كنا نفعل في الماضي . . .

فقال له هشام باسما :

– تشعل فتيل المناقشة ثم تنسحب منها بهذه البساطة ؟ . .

وضحك الزملاء ، وطووا موضوع البعثات وما يتعلق به من حديثهم ، وقضوا ليلتهم في الحديث بمواضيع اخرى ، وفي لعب « البلوت » ، وكان ذهن هشام موزعا بين ما هم فيه : وبين الفكرة الجديدة التي احتلت تفكيره . .

لقد فكر في أن يذهب إلى البعثة ، في سنته الأولى ، وحده وان يترك هيا في المملكة . . .



٣٨

ولم ينم هشام ليلته تلك إلا مع الخيوط الأولى لفجر اليوم التالي ، فهو – كعادته في الاستغراق الكلي بالتفكير فيما يشغله – قد راح يوازن بين مختلف الحالات والاحتمالات ، ويستعيد الحجج التي ادلى زملاؤه بها ما بين مؤيدين ومعارضين ، محاولا ان يختار الافضل بين تلك الافكار . .

ولاحظ ، مع شيء من الاستغراب ، انه قد بدأ يميل إلى الرأي القائل بعدم اصطحاب الزوجة ، فهو بطبيعته في الاندفاع نحو اهدافه بقوة وتصميم ، قد وجد ان تفرغه الكلي لدراسة اللغة الإنجليزية اجدى عليه من التوزع ما بين البيت والمعهد .

وشعر ، إذ ذاك ، بشيء من الارتياح لقراره ، فأوى إلى فراشه ، ولم يلبث أن استغرق في نوم عميق . . .

وكان أول ما فعله حين استيقظ في الصباح هو الاتصال هاتفياً بهيا ليزجي إليها قراره ويعرف رأيها فيه . .

وبدا في صوت هيا شيء من التأثر والألم وهي تبلغه موافقتها على قراره، ولم يفت هشام ان يلاحظ ذلك فقال لها مداعبا :

– انتي زعلتي والا ايه ؟ . . إذا كان الأمر كذلك فإنني على استعداد لالغاء البعثة كلها . .

واتاه صوتها عبر الهاتف وهي تحاول ان تكسبه رنة مغتصبة من المرح :

– ابداً . . ولكن إذا كان السبب هو مجرد رغبتك في عدم الحديث معي باللغة العربية فانني اعدك بأن ارعاك في بلاد الغربة من غير ان افتح فمي بكلمة واحدة . .

واعقبت كلامها بضحكة مرحة ، ولكنها بادية الافتعال . .

وشعر هشام بقلبه يكاد يتمزق ، وازداد اكبارا لهذه المرأة الشجاعة التي منّ الله عليه بها ، إذ كان يدرك كل الادراك مشاعرها في تلك اللحظة ، ويعرف ان حبها العميق هو الذي يدعوها للموافقة على رأيه مادامت هذه رغبته ، وهو

نفسه ـ هذا الحب العميق ـ قد أملى عليها عبارتها الضاحكة الباكية تلك : أن تسافر معه والا تفتح فمها بالحديث معه ولو بكلمة واحدة . . .

وعاد إليه شعوره بالتردد ، ولكنه حسمه حين تذكر انه انما يذهب إلى تلك البلاد البعيدة من اجلها ومن اجل مستقبلهما ومستقبل اولادهما ، وان عليهما ان يتحملا ـ معا ـ الم الفراق تلك المدة الوجيزة ليكونا اقرب إلى ضمان النتائج وتحقيق آمالهما المشتركة .

وتنبه من خواطره على صوتها وهي تقول له بلهجة بين الجد والمزاح :

ـ هه . . ايش قلت ؟ . .

فأجابها بسرعة :

ـ سأشرح لك الامر عندما اعود إلى مكة ان شاء الله . . ابلغي الوالد والوالدة والجميع تحياتي وسلامي . .



وفي إدارة البعثات صادف هشام زميله القديم عبد الحميد الذي كان احد اعضاء فريق كرة القدم في المدرسة الثانوية . .

وتعانق الصديقان ، وتبادلا عبارات الشوق والسعادة بهذا اللقاء بعد سنوات طويلة من الفراق لم يريا خلالها بعضهما ، وتساءل هشام عما يفعله عبد الحميد في إدارة البعثات ، فاخبره انه يتابع معاملة ابتعاثه ويستكمل الترتيبات اللازمة بشأن عائلته ، زوجته وابنه ، خلال غيابه . .

وسأله هشام باهتمام :

– تعني . . انك سوف تترك عائلتك هنا ؟ . .

– نعم . .

– لم لا تأخذها معك ؟ . .

واجاب عبد الحميد وكأنه كان حاضراً مناقشة الزملاء تلك الليلة ، ليعيد عليه نفس الكلام الذي قيل :

– هذا غير معقول . . أنا ذاهب لدراسة اللغة في السنة الأولى . . وعليّ ان احتك بالأجانب وان اجبر نفسي ، طائعا او مرغما ، على فهمهم والحديث إليهم . . ولو اصطحبت زوجتي معي لاضطررت إلى الحديث باللغة العربية وبالتالي اخسر الفرصة في التفكير الدائم باللغة الإنجليزية . .

وكان هشام يستمع إليه وهو يهز رأسه مؤمنا على كل كلمة يقولها زميله القديم ويزداد قناعة بأنه قد اتخذ القرار الصحيح ، على قسوته ، وان هذه هي الطريقة السليمة للاستفادة من فترة دراسة اللغة الإنجليزية إلى اقصى حد . .

وانتبه هشام من خواطره على عبد الحميد وهو يسأله :

– وانت ؟ . . ماذا ستفعل ؟ . .

فابتسم هشام وهو يجيب :

– مثلك تماماً . . سأترك زوجتي في المملكة ، مابين مكة وحائل ، لأنني اقتنعت امس بهذه الفكرة بعد حديثي مع بعض الزملاء . . .

وافترق الصديقان ليتابعا معاملاتهما ، ويستكملا اجراءات السفر وهما يتبادلان الأمنيات الطيبة . .

٤٠

حين التقى هشام بأسرته في مكة ، فوجىء بالجميع وهم يبدون استغرابهم لقراره المفاجىء ذاك ، بترك زوجته والسفر وحده ، وكانت هيا هي الوحيدة التي لم تدل بحرف واحد يشير إلى المعارضة أو الاستغراب . .

وقال أبوه انه ذهل لهذا القرار ، عندما ابلغته هيا به ، بعد حديثها الهاتفي مع هشام . . .

وتساءلت أمه بسذاجة مشوبة بالأسف ، كيف سيستطيع الحياة وحده وعمن سيدبر له اموره في بلاد الغربة ، ومن الذي سيعد له طعامه . . ومن يغسل ثيابه . . ومن يعنى به إذا مرض لاسمح الله . . ومن يؤنس وحشته . . ومن يسلي وحدته . . ومن . . ومن . . .

كانت الأم تتحدث من منطلق الفكرة التي عاشتها طوال حياتها ونشأت عليها ، وهي أن الزوجة هي المسئولة ، أولاً وآخرا ، عن تدبير امور زوجها والعناية به ، والسهر على راحته ، وتهيئة الاسباب له كي يعمل في جو من الاطمئنان والراحة والسعادة . .

ورد هشام على تساؤلات والدته قائلاً :

– وهل نسيت ، يا أمي ، أنني قضيت في الرياض عدة سنوات في نفس الظروف التي ستواجهني في امريكا ؟ . .

واجابت الأم بسرعة :

– صحيح . . ولكنك كنت في بلدك . . وبين اهلك واخوانك . . تخاطبنا

ونخاطبك تليفونيا كل اسبوع عدة مرات . . وتزورنا ونزورك في السنة بضع مرات . . أما في بلاد الاميركان هذه فأين انت واين نحن ؟ . . واين زوجتك وبيتك واهلك ؟ . .

وقالت اخته رجاء :

ـ اسمع ياباشمهندس . . انت تأخذ الأمور ببساطة تدهشني . . وتنسى انك ستذهب إلى مجتمع يختلف كل الاختلاف عن مجتمعنا . . تقاليدهم غير تقاليدنا . . وعاداتهم غير عاداتنا . . وما يعتبر عندنا عيبا يعتبر عندهم شيئاً عاديا . . والعكس بالعكس . . وانت . . يا اخي ، لم تغادر المملكة قبل الآن . . ولم تحتك بالأجانب . وعندي كثير من القصص التي سمعتها من زميلاتي ممن سافر بعضهن مع ازواجهن . . وممن سافر ازواجهن دونهن وحدهم . . وارى من مغزى هذه القصص ان من الافضل لك أن تأخذ زوجتك معك . . ولا اريدك ان ازيد على كلامي هذا شيئاً . .

كان الحديث يدور في غرفة المجلس بحماسة ، وقناعة ، من كل المتحدثين وقد اشترك فيه الجميع إلا صاحبة الشأن الأول ، وهي هيا فقد اكتفت بأن راحت تنقل بصرها بين المتحدثين ، فتشعر بالارتياح اذ تسمع كلام الاب والام والاخت ، وينقبض صدرها حين تسمع دفاع هشام وآراءه التي تدل على انه قد اتخذ قراره عن سابق قناعة وتصميم . . .

ولم يفت هشام ان يلاحظ صمت هيا ، وانفعالاتها المتباينة وهي ترقب تطور الحديث ، فازداد اكبارا واعجابا بهذه الزوجة الوفية التي تملك من العقل والحكمة ما يجعلها تسيطر على اعصابها سيطرة كلية ، فتمنع نفسها من الادلاء برأيها المعارض كل المعارضة لقرار هشام ، والموافق كل الموافقة في الوقت ذاته مادام زوجها مقتنعا به وراغبا فيه .

وكأنما لاحظت رجاء نفس مالاحظه هشام إذ التفتت إلى هيا وقالت لها :

– وانتي . . ما تتكلمي ياست هيا . . شايفانا نازلين هرج . . واخذ ورد وانت ساكتة مع أن الموضوع يخصك انت بالدرجة الأولى . . وان البعثة هي ، اصلا ، فكرتك كما قال هشام . . ما تتكلمي . . وتقولي رأيك ؟ . .

وساد الغرفة صمت مطبق ، واتجهت الابصار نحو هيا ، تنتظر كلمتها ، وكان هشام مطمئناً إلى أنه لن يسمع من زوجته إلا ما يرضيه ، فهو يعرفها ، ويعرف روحها العظيمة ، وشجاعتها الفائقة في مواجهة احداث الحياة ، واطرقت هيا ولم تجب على السؤال بشيء . .

وقالت الام بلهجتها العفوية :

– صحيح والله يابنتي . . إنت ايش رأيك ؟ . . تبغي زوجك يسافر ويتركك هنا . . والا تحبي تروحي معاه لبلاد الاميركان ؟ . .

وظلت هيا على صمتها ، ولكن ارتجافا يسيرا في شفتيها دل هشام على الصراع الذي يعتمل في داخلها وهي تتهيأ للجواب الذي لم تنطق به بعد . .

وازاح الاب طرف الشيشة عن فمه وقال لها في عطف :

– قولي لنا رأيك يابنتي . . وإذا كنتي ما انتي موافقة . . فاقسم بالله العظيم انه هشام مايسافر في هذي البعثة إلا وانتي معه .. أو .. بلاش من البعثة كلها . .

والتقت عينا هشام بعيني هيا حين التقطت نفسا عميقاً قبل أن تتكلم ، فاستطاع هشام أن يعرف بغريزة الزوج المحب ما سوف تنطق به سلفا :

– إذا كانت المسألة علي أنا . . فانا . . طبعاً موافقة . .

وارتفعت همهمة الاستغراب من الجميع إلا هشام ، قبل أن تستطرد هيا :

ــ أجل . . أنا موافقة طبعاً . . لقد قال لكم هشام أن البعثة هي فكرتي . . وهذا صحيح . . ولكن الصحيح ايضاً ان هشام يحمل في روحه وقلبه امكانات النجاح . .

وقلبت الام شفتها السفلى معبرة عما في نفسها :

ــ والله ما انا فاهمة حاجة يا بنتي . .قصر الكلام . . تبغيه يروح وحده والا لأ ؟ . .

واستطردت هيا وكأنها توجه حديثها إلى هشام وحده :

ــ لقد كانت مهمتي ان اساعد هشام على ان يكتشف امكاناته ومواهبه . . وان اهيىء له الجو والمجال لكي يستفيد منها بما يعود عليه وعلى اسرته بالنفع . . ولو لم يكن جديراً بهذه الفرصة التي اتيحت له من خلال هذه البعثة ، فانه ما كان لينالها ابداً . . إذن . . فالفضل الأول والأخير هو لله الذي اودع هشام هذه المواهب والامكانات . .

وشعر الاب ورجاء بالتأثر ، فهما قد عرفا ما ارادت هيا أن تقوله ، بل وعرفا ايضاً بقية الكلام الذي ستدلي به . . اما الام فهي الوحيدة التي كانت تريد ان تعرف الجواب بكل بساطة ، وبدون هذه المقدمة التي لم تفهم منها شيئاً :

ــ يا بنتي . . الله يهديك . . كلمة ورد غطاها . . انتي موافقة على إنه يسافر وحده ويسيبك هنا والا لأ ؟ . . هي كلمة واحدة بس . .

واغتصبت هيا ابتسامة وأجابت :

– جاياكي بالكلام يا أمي . . ايوه انا موافقة . . وهذا هو اللي لازم يصير لازم يتعلم لغة بالأول . . وتعلم اللغة ما هو هين . .

وضربت الأم كفا بكف وقالت وكأنها تنفض يديها من المسألة :

– خلاص . . موافقة . . على راحتك . .

وقال هشام بصوت يكاد يختنق من التأثر :

– شفتي يا امي ؟ . . هيّ عارفة مصلحتي . . وعلشان كده هيّ موافقة . . يعني فاكرين اني حاكون مبسوط لما اسيب اهلي وبلدي ؟ . . طبعاً لا . . ولكن ماذا افعل إذا كانت هذه هي وسيلتنا إلى المستقبل الافضل ؟ . .

٤١

« حبايبنا عاملين إيه . . .

« في الغربة . . واخباركم ايه . . .

« فرحانين والا . . زعلانين . . .

« مرتاحين والا . . تعبانين . . .

« وبعتنا مع الطير المسافر سلام . . . . » . . .

ومدت هيا يدها إلى زر الراديو تطفئه بعد أن وصلت الاغنية إلى هذا الحد ، وقد سالت الدموع على خديها غزيرة متوالية ، تنبيء عن البكاء الأليم الذي يعتمل في صدرها . .

ونظر إليها هشام صامتا والحزن يعتصر قلبه اعتصارا . .

وغطت هيا وجهها بيديها ، وراح جسمها يهتز بنشيج صامت ، فلقد فجرّت الاغنية آلامها كلها وجعلتها تشعر بالفراغ الهائل الذي يفتح شدقيه ليبتلعها في اعماقه بعد ان يسافر هشام . .

كان الاثنان في منزلهما حيث توجها ليسلم هشام عمله إلى سواه وينهي اجراءات انفكاكه عن وحدته ، ويتخذ ما يلزم من ترتيبات لاقامة هيا عند اهلها في حائل . . .

وسار هشام إليها وهو يمد ذراعيه الاثنتين ليحتويها بهما ويقول في لوعة :

ـ هيا . . ماذا بك ؟ . .

ورفعت إليه عينيها المخضلتين بالدموع ليقرأ اعمق ما يمكن ان تعبر به عينان من الحب والتفاني ، وقالت بصوت خافت :

ـ آسفة . . كان هذا رغما عني . .

ـ ولكن . . .

فجذبته نحوها ليجلس إلى جانبها على المقعد الطويل ، وامسكت يديه بيديها اللتين كانتا ترتعدان مع ارتعاد جسمها في بكائها الصامت وهمست :

ـ آسفة . . لقد هزّتني الاغنية . . الآن نحن معا . . في بيت واحد . . تحت سقف واحد . . وهاهما يداي تتشابكان مع يديك وغداً . . .

واختنق صوتها بالبكاء واردفت وهي تشهق :

ـ غداً يصبح حالي كحال هذه التي كانت تغني . . سأتساءل عما تفعل

في الغربة . . سأتساءل في كل لحظة عن اخبارك . . أنت سعيد أم غير سعيد . . أنت مرتاح أم غير مرتاح . . سأبعث لك سلامي مع الطائر المسافر وأنت الآن . . . أنت الآن بجانبي . . .

وعادت هيا إلى نشيجها ونحيبها اللذين كانت تحس معهما انهما يخففان عنها الكثير مما تشعر به من آلام الفراق المنتظر . . .

وضمها هشام إلى صدره فألقت برأسها عليه في استكانة ، وراح يمسح على شعرها بكفه في حنان وهو يتحدث إليها :

— هيا . . ارجوك . . ساعديني . . أجل . . ساعديني على اجتياز الايام القليلة التي تفصلني عن يوم السفر . . انني اعلم مابك . . واشعر به . . ولئن كان في قلبك من الالم واللوعة شيء كثير فان في قلبي مثله . . بل اكثر منه . . فلا تظني انني فرح لهذا السفر . . بل لست اكتمك . . أكثر من مرة خطر ببالي ان اصرف النظر عن البعثة .. وابقى بجوارك وجوار اهلي واهلك .. ولكنك انت نفسك لا ترضين بهذا . . لا تنسي انك انت التي دفعتني إلى هذا الطريق لأرضي طموحي وطموحك . . وان دموعك الغالية هذه تنزل على قلبي كالجمر المتقد . . فماذا تريدين ان أفعل ؟ . .

وتمالكت هيا نفسها ، ومسحت دموعها بظهر كفها ، وأشرق وجهها بابتسامة من تلك الابتسامات الحلوة التي طالما أحبها منها وقالت له بصوت جهدت قدر امكانها ان يكون ثابتا وطبيعيا :

— لست اريدك أن تفعل الا ما تفعل . . فهو الصواب . . وانني آسفة . . فقد كانت تلك لحظة ضعف اثارتها الأغنية في نفسي ليس إلا . .

— آه . . ياشريكة حياتي . . .

وعادت هيا لتلقي برأسها على صدره ، وتغمض عينيها في شبه اغفاءة بينما كان هشام يلصق خده بشعرها وهو يحدث نفسه بما انعم الله عليه بزواجه من هذه الزوجة الفريدة في شجاعتها ووفائها .



كانت تلك أول مرة يسافر فيها هشام إلى خارج المملكة . . .

وكان رأسه مسرحا لشتى الانفعالات والاحاسيس والتساؤلات التي تصطخب فتتجاذبه إلى مختلف الاتجاهات ، والطائرة تحلق به في الجو ، مغادرة جدة في طريقها إلى لندن ، ليستأنف منها المسافرون إلى الولايات المتحدة رحلتهم على طائرة اخرى . . .

كان هشام قد اغمض عينيه ، واسترخى في جلسته خلال هذه الرحلة الطويلة ، وراح يحاول ان يجد نفسه بين ذلك الخضم المتلاطم من الافكار ، ويستعيد في ذهنه ايام حياته كلها ليطل عليه – وسط هذه الافكار – وجه هيا الحبيب في آخر مرة رآها فيها وهو يصعد الطائرة التي اقلته من حائل إلى جدة . .

لقد خرجت اسرة زوجته كلها لوداعه ، لم تتخلف سوى الام التي ودعها قبل ليلة من سفره . .

وعانقه حموه وشد على يده بقوة وهو يقول له :

– تروح وترجع بالسلامة يا ولدي . .

وقال له ناصر وهو يحاول ان يتظاهر بالمرح :

– مبروك عليك ياعم . . وان شاء الله تعود لنا وفي يدك الماجستير . .

ورد هشام بسرعة وهو يختلس نظرة إلى هيا :

– ستراني قبل الماجستير باذن الله . . لا تنس انني سأعود بعد بضعة اشهر لكي آخذ هيا معي . .

وابتسمت هيا في سعادة ، وهي تسمعه يقول ذلك ، وهمست له وهو يودعها متجها إلى بوابة ساحة المطار :

– أنا في انتظارك . . كان الله معك . .

والقى هشام نظرة من النافذة ، ليرى السحب الكثيفة وهي تتدافع تحت الطائرة التي كانت تشق طريقها نحو العاصمة البريطانية على ارتفاع شاهق ورأى بين تلك السحب وجه هيا يطل عليه ثانية بتلك الابتسامة الشجاعة التي كانت آخر ماراه منها ، ورن صوتها العذب في اذنيه :

– انا في انتظارك . . كان الله معك . . .

وانتبه هشام من خواطره إلى المضيفة وهي تقدم له الطعام . ولكنه اشار لها بيده في حركة دلت على زهده في الطعام ، فهو مازال يعيش لحظات الفراق الصعبة ، سواء في حائل ، او في جدة ، فلقد أصر أبوه على أن يودعه بنفسه في المطار حين جاء يودع اهله في مكة ، وبرر الأب اصراره بقوله :

– هذه أول مرة تتركنا فيها على هذا الشكل . . اعني إلى مكان بعيد خارج المملكة . . واريد ان اراك وانت تصعد إلى الطائرة على امل لقاء قريب ان شاء الله . . ولكي اقول لك كم نحن فخورون بك ، وبزوجتك ، وكم نتمنى ان نرى منك همة ونشاطا يتفقان مع حسن ظننا فيك . . .

وعادت إلى هشام صورة ابيه وهو يلوح له بيده ، ويضم قبضته ويهزها دلالة

على القوة وشدّة البأس ، فاغرورقت عيناه بالدموع ، وتنهد في ألم محدثا نفسه بأن اعظم سعادة في الدنيا هي أن يكون للانسان من يحبه ومن يبادله المحبة ، فهذا المحب – المحبوب في الوقت ذاته – يشعر بأنه قوي في مواجهة الحياة ، بقدر ماله ممن يحبهم ، وبقدر ماله ممن يحبونه . .

ونظر هشام إلى ساعته ، فتبين له انه قد مضت حتى الآن اربع ساعات وهو مازال في طائرته المعلقة في الجو ، والتي كانت تشق طريقها كالسهم وسط السحب الكثيفة ، وتلاعبت على شفتيه ابتسامة وقال محدثا نفسه :

– هه ياباشمهندس . . هذه اول الاشياء الجديدة التي تواجهها وانت في طريقك إلى عالم لم تره من قبل قط . .في المملكة كنت تقطع المسافة ما بين جدة والظهران في ساعتين . . وهأنت قد امضيت اربع ساعات في الجو ومازال امامك مثلها تقريباً قبل ان تصل إلى لندن . .

واتجه ذهنه إلى لندن . .

انه لم يرها قبل الآن ، وليست لديه اية فكرة عنها سوى ما قرأه أثناء الدراسة ، ومامر تحت يديه من الكتب أو المقالات ، إلى جانب مازوده به زملاؤه الذين زاروها من معلومات حفظها عن ظهر قلب . .

وفتح حقيبة اوراقه ، وراح يستعرض العناوين وارقام التليفونات التي زوده بها زملاؤه لفنادق مناسبة سواء في لندن أو في نيويورك .. محطته التالية ..

وقال في نفسه وهو يقرأ أرقام التلفونات ورموزها :

– بدأنا في مواجهة تعقيدات المدنية الزائدة عن الحد .. هل يعقل أن يكون هذا الصف الطويل من الارقام والحروف كله رقم تليفون واحد ؟ . . ايه . .

واغمض عينيه واستسلم للاغفاء بعد ان شعر بالتعب ، وبأن ذهنه لم يعد قادراً على التفكير بعد الايام القليلة الماضية التي قضاها مابين حائل ومكة وجدة ، مستعداً للسفر ، مودعا الأهل والأصدقاء ، بحيث لم يظفر بأكثر من ساعات معدودة للنوم .

وساعده على الاغفاء أن معظم ركاب الطائرة كانوا قد ناموا ، وبات صوت محركات الطائرة الرتيب وكأنه صوت أم تهدهد طفلها . .

وغابت المرئيات عن ناظريه بعد أن بدأ نور النهار في الانحسار . . .



– انتبهوا من فضلكم . . إننا نقترب من مطار « هيثرو » في لندن . . الرجاء ربط أحزمة المقاعد استعداداً للهبوط . .

وكأنما كان كلام المضيفة هذا شارة سحرية ، افاق معظم الركاب على اثرها من نومهم ، وما عاد يسمع سوى صوت اغلاق اقفال احزمة المقاعد ، وتعديل الكراسي استعدادا للهبوط . .

ونظر هشام مرة أخرى إلى ساعته ، فاذا بها تشير إلى أنه قد امضى أكثر من سبع ساعات منذ أن غادر بلاده صبيحة هذا اليوم . .

وحين وقف في الصف الطويل من الركاب الذين اخذوا يغادرون الطائرة شعر بشيء من التخوف ، فها هو – الآن – يقف امام التجربة التي سافر من أجلها وجها لوجه . .

انه ، اغلب الظن ، لن يسمع اللغة العربية بعد الآن ، ولن يرى المعالم العربية التي عاش حياته كلها وهو يراها . .

واحس بغصة وهو يستمع إلى مضيف الطائرة يقول له بلغة بلاده ولهجتها :

ـ الحمد لله على السلامة . .

واجاب هشام في تأثر :

ـ الله يسلمك . .

وراح يهبط الدرج المتحرك ، ويتبع جموع المسافرين إلى صالة الدخول ، ووجد نفسه يدير رأسه بسرعة نحو الطائرة السعودية الضخمة التي اقلته ، والتي كانت صفوف الركاب ما تزال تهبط منها . .

وتركز نظره على علم بلاده المرسوم على جانب الطائرة ، فشعر بحنين هائل إليه ، وتمنى لو يستطيع ان يلثمه ، وان يمرغ وجهه على صفحته . .

واختلس نظرة اخرى إلى شعار الخطوط السعودية الذي اعتاد ان يراه في كل مكان من المملكة ، فأحس بأنه اشبه مايكون بسمكة تخرج من مائها الأليف ليلقى بها في ماء آخر ، لم تألف طعمه ، ولا جوه ، ولا حرارته . . .

وضم هشام اطراف سترته على عنقه ، فالجو بارد بصورة مزعجة ، مع ان الشهر كان آب (أغسطس) الذي يعتبر قمة فصل الصيف في المملكة ، وها هو يضطر لأن يحمي نفسه من الهواء البارد ، والمطر الذي كان يتساقط رذاذا . .

وتذكر شمس بلاده الساطعة ، وحرها القوي ، فشعر بأنه لا يبادل على ذلك الجو ـ رغم شدته ـ اية اجواء في اي بلد من بلاد العالم . .

وخلال دقائق معدودة كان قد انهى اجراءات الدخول إلى لندن ، وتبادل مع موظفي الصحة والجوازات والجمارك عبارات موجزة باللغة الإنجليزية ،

وكان شديد الاهتمام بمتابعة طريقة لفظ اولئك « الإنجليز » للغتهم ، فلاحظ أن هناك فارقا كبيراً بين ماتعلمه في المدرسة والجامعة ، وبين الطريقة الفعلية في اللفظ ، وعول على متابعة هذا الاهتمام والاستفادة — على الطبيعة — من كل كلمة يسمعها . .

وإذ خرج من المطار ، بعد ان استلم حقائبه ، اشار إلى سيارة تاكسي مالبث ان استقلها والقى على سمع سائقها اسم الفندق الذي يقصده . .

٤٤

كانت تلك أول مرة في حياته ينزل فيها بفندق ، ناهيك ان يكون هذا الفندق في بلد اجنبي عنه تماماً ، وباسلوب حياة ، ولغة ، واشخاص ، وجو ، كلها تختلف اختلافا عظيماً عما الفه واعتاده من قبل ، ولكنه كان قد هيأ نفسه لتقبل الأشياء الجديدة التي كان يعلم سلفا انه سيواجهها ، وعلى تعلمها ، والانسجام معها ، فهو منذ اليوم سينام تحت سقف لم يعتد عليه ، في فراش غير فراشه ، وبلد غير بلده . .

وكان اول ماوجه إليه اهتمامه بعد ان وضع حقائبه في الفندق الذي اعطاه احد اصدقائه عنوانه ، هو شراء معطف يقيه قسوة البرد الذي لذع جلده بصورة لاتطاق ، فركب سيارة تاكسي دله سائقها على احد المتاجر المتخصصة في بيع ملابس الرجال ، وبعد دقائق كان يتدثر بالمعطف الانيق الذي اشتراه ، فدس يديه في جيبيه ، وقد شعر بأنه قد بات احسن حالا ، ومضى يتجول في الشوارع على غير هدى ، ويده تقبض بقوة — داخل جيب المعطف — على بطاقة الفندق التي تحمل عنوانه ورقم تليفونه . .

لقد كان من اهم ما خرج به من تجربته في الكلام باللغة الإنجليزية خلال

الزمن القصير الذي انقضى عليه وهو في لندن ، أن لغته في حاجة إلى كثير من الصقل والمران والاتقان ، فقد وجد صعوبة في التفاهم مع موظف الفندق ، وبائع الألبسة ، ولكنه حدّث نفسه بأن مثل هذه التجارب ، على ماتحتوي عليه عادة من مفارقات طريفة ، هي - بالذات - هدفه من مغادرة بلاده ، والانتقال إلى بلاد غريبة عنه ، بعيداً عن اهله وزوجته . .

واتجه ذهنه ، في الحال ، إلى هيا . .

فبدون ادنى ريب ، كان يمكن أن يكون سعيداً ومرتاح البال أكثر مما هو عليه الآن لو انها كانت معه . .

ومع انه اعجب بالعاصمة البريطانية ، وبهرته شوارعها ومبانيها العريقة الضخمة ، وحدائقها المنسقة ابدع تنسيق ، إلا انه كان يجبر نفسه على الا « يستمتع » بهذه المشاهد ، وفاء منه لذكرى زوجته ، فما كان يشعر بسعادة أو متعة لا يتقاسمانها معا ، ولعلهما يزوران هذه المدينة معا بعد اشهر قليلة ، وعندها يحق له - كما حدث نفسه - ان يستمتع بهذه الرحلة ، وان يجتلي محاسن المدينة الجميلة . .

والواقع انه كان متلهفا على الوصول إلى هدفه بأسرع وقت ممكن ، بصورة جعلته يحرص على ان يحجز مكانا في احدى الطائرات المتجهة إلى نيويورك ، وهي عديدة يوميا ، فلا يمكث في لندن اكثر من يومين اثنين . . وهكذا ، انتهت زيارته لمدينة الضباب سريعاً ، ومالبث أن وجد نفسه داخل احدى الطائرات الضخمة من نوع « الجامبو » التي كان يركبها لأول مرة . .

٤٥

عندما جاءته المضيفة بالطعام لم يتمالك نفسه من الابتسام ، ذلك انه منذ ان وطئت قدماه الأراضي الأجنبية ، كان حريصاً على الا يدخل جوفه اي نوع من اللحوم ، فكان طعامه خلال اقامته القصيرة في لندن مقتصراً على البيض والكعك والجبن وما اشبه ، لانه كان يخشى ان يتناول لحم الخنزير مادام غير مستطيع تمييزه عن سواه من اللحوم . . حتى الخضار لم يقربها لانه قدر انه لن يستسيغها مادامت تقدم ، في الغالب ، مسلوقة . .

وعاد ذهنه يتجه إلى زوجته التي تركها في ارض الوطن ، فتذكر طهوها اللذيذ ، وعنايتها الفائقة باعداد المائدة وكأن ضيوفا سوف يشاركونهما الطعام وعندما كان يقترح عليها ان توفر على نفسها هذا العناء كانت تضع اصبعها على شفتيها ، اشارة الصمت ، ثم تقول له بجدية تامة :

— هذا ليس من اختصاصك . . ومادام إعداد المائدة هو من مسئولياتي فانني حرة في ان اتعب نفسي ، كما تقول ، في اعداد المائدة . .

— ان ما يهمني هو راحتك . .

— وانا راحتي في أن تكون مرتاحا في بيتك . . واعتقد انك توافقني على ان اعداد المائدة بهذه الطريقة هو أفضل من طرح الصحون على الطاولة كيفما اتفق . .

وترك هشام طعامه ، واغمض عينيه وراح يتذكر كيف كانت هيا توجه عنايتها إلى كل كبيرة وصغيرة من شئون المنزل ، معللة ذلك بأنها تعتبر « الاهمال » عدوها الأول ، فهي — والحالة هذه — تعتبر ان توجيه الاهتمام

اللازم لكل شئون المنزل بدرجة متساوية يجعل الحياة متجددة باستمرار ، وان هذه النتيجة تستحق كل جهد تبذله من أجلها . .

وتنهد هشام بقوة ، وشعر بأن كل مامرّ به منذ فراقه عن هيا انما هو مجرد أشياء عابرة ، يكاد ينساها على قرب العهـــد بها ، فهي غير ذات طعم ولا مذاق ، لان حياته تنقص شيئاً هاما . . انها تفتقد نصفها الآخر . . .

وحين فتح عينيه تبين له انه قد اخلد إلى اغفاءة قصيرة تسللت إليه رغما عنه ، فأجال بصره فيما حوله ، فاذا به يرى المشهد نفسه الذي رآه وهو في رحلته من جدة إلى لندن ، فمعظم الركاب قد غرقوا في النوم ، وقلائل منهم قد امسكوا بصحف او كتب يطالعونها ، وآخرون يتابعون العرض السينمائي الذي يقدم على شاشة الطائرة التي كانت تواصل طريقها – بذلك الصوت الرتيب – عابرة المحيط الاطلسي نحو الجانب الآخر من الكرة الأرضية . .

ودقق هشام النظر في وجوه رفاق الرحلة الذين كانت عيناه تطالهم ، وكأنه يبحث عن شخص معين بينهم ، والواقع ان هذه كانت غايته فعلا ، فالوحدة قد ملأت قلبه ، والوحشة تملك عليه فؤاده ، فهو لم يسمع كلمة عربية واحدة منذ ان نزل من الطائرة السعودية ، كما انه لم يلتق ابداً بأي عربي ،ولم ير اي وجه عربي ، الامر الذي جعله يشعر بشوق عظيم لان يخاطب اي انسان بلغة بلاده وان يرى اية سحنة عربية . . .

وحدث نفسه في عجب :

– هل يعقل أن اكون انا الراكب العربي الوحيد على هذه الطائرة التي تحمل أكثر من ثلاثمائة انسان ؟ . .

وبدا له ان هذه هي الحقيقة للأسف . .

وإذ كان يدير بصره ليعود به من انحاء الطائرة ، التقت عيناه بعيني الراكب الجالس إلى جانبه . . وابتسم له الراكب بمودة وقال :

– هاي . . .

وحدس هشام من هذه التحية أن الرجل امريكي ، فرد على تحيته وسرعان ما انهمكا في حديث طويل . .

وخلال دقائق كان الامريكي قد حدثه عن كل شيء في حياته : ولايته ، ومدينته ، وعمله ، واهله وكأنهما صديقان منذ زمن طويل . .

وختم الرجل حديثه متسائلا عن احوال هشام وغايته من السفر إلى الولايات المتحدة الاميركية ، وإلى اية ولاية يقصد . .

ولم ينس هشام انه رجل عسكري قبل كل شيء ، وانه يجب ان يكون حذراً مع الغرباء ، وفق ما تقضي به قواعد الامن العسكري ، فاكتفى بالقول انه طالب سعودي ، وانه متجه إلى مدينة نيويورك حيث يوجد « المكتب السعودي » المسئول عن البعثات الدراسية السعودية في الولايات المتحدة ، ولم يتطرق – بطبيعة الحال – إلى اموره العائلية مثلما فعل الرجل ، فهذه شئون خاصة لايجوز الخوض فيها امام الغرباء ايا كانوا . .

وحدث نفسه قائلاً :

– هذه مسألة اخرى نختلف فيها عن هؤلاء الناس . . ماشأني انا بعائلته وزوجته واولاده ؟ . . وما شأنه هو بعائلتي ؟ . .

وإذ ورد ذكر « العائلة » على خاطره ، عادت افكاره تطير به إلى أرض الوطن مابين مكة وحائل ، وقد بدا عليه وكأنه قد غفل تماما عن جاره الذي كان مايزال يثرثر بحديث متواصل . .

وكان مما فرح له هشام واستبشر به ، انه كان يفهم معظم حديث الرجل ، كما انه استطاع ـ بدوره ـ ان يعبر عن خواطره باللغة الإنجليزية بصورة فهمها الرجل على مايبدو . .

وعاد يركز عنايته على استيعاب مخارج الالفاظ لدى هذا الرجل الاميركي القح ، ويكتشف نقاط الاختلاف الكثيرة ما بين اللغة المدرسية الإنجليزية التي تعلمها ، وبين اللغة المحكية التي تختلف عنها وبخاصة اللهجة الاميركية التي عجز عن فهم بعض كلماتها واصطلاحاتها ورموزها فيما كان جاره الثرثار يواصل حديثه . .

واستطال الحديث بين الاثنين حول امور شتى ، تحاشى فيه هشام تماماً أن تتناول اموره الشخصية والعائلية ، فقد كان يرى ان هذا الحديث مفيد له من ناحية الغاية التي يذهب إلى الولايات المتحدة من أجلها في سنته الأولى هذه ، وهي تعلّم اللغة الإنجليزية . .

وسارت المضيفات بين صفوف المقاعد يلفتن انتباه الركاب إلى شارة « اربطوا الاحزمة » التي اضيئت في الطائرة ، والتي لم ينتبه إليها هشام وجاره لانهماكهما في الحديث ، مما دل على انهم قد وصلوا إلى نيويورك او كادوا..

وربط هشام حزامه واستأنف حديثه مع الاميركي وهو يشعر بكثير من الارتياح إلى ان اذنه قد اخذت تألف هذه اللهجة ، وان رصيده من اللغة الإنجليزية سوف يسمح له باستيعاب دوراتها الدراسية بسرعة . .

ومد الاميركي يده وضغط بها بقوة على ذراع هشام وقال بلهجة متوفزة :

ـ الم تلاحظ ، ياصديقي ، شيئاً ؟ . .

ولم يفهم هشام مايقصده الرجل من سؤاله فتساءل باستغراب :

ـ شيء ؟ . . مثل ماذا ؟ . .

وضغط الاميركي على ذراع هشام وقال له بلهجته المنفعلة :

ـ الا . . الا نفعل شيئاً ؟ . .

ـ وماذا نستطيع أن نفعل ؟ . . .

ـ نتفاهم مع الطيار . .

ـ اهدأ ياصديقي . . يبدو لي انك قد فقدت اعصابك . . علام تتفاهم مع الطيار ؟ . . هل ستقنعه بانزال عجلات الطائرة ؟ . . انه ليس بحاجة إلى اقناع . . ولندع الامور تجري كما ارادها الله . .

ولاحظ هشام وجاره أن مضيفات الطائرة قد علمن بما حدث ، وانهن يبذلن جهداً خارقا للسيطرة على اعصابهن كيلا ينتبه الركاب إلى الورطة التي تعانيها الطائرة لان ذلك من شأنه ـ دون ريب ـ أن يدب الذعر في نفوس الركاب مما يزيد الموقف سوءا . .

وفجأة سمع صوت سقوط اطباق وكؤوس على الأرض ، فالتفت الاميركي بسرعة إلى هشام وقال له :

ـ ارأيت ؟ . . يبدو لي أن الموقف صعب جداً . . تلك المضيفة قد فقدت اعصابها فسقطت الاطباق والكؤوس من بين يديها . .

كل هذا ، والطائرة مازالت تدور دون ان تهبط عن مستوى طيرانها شبرا واحدا . .

واغمض هشام عينيه ، واسترخى في مقعده وكأن الامر لا يعنيه . .

لقد قفز ، في ثوان ، بخواطره إلى أرض الوطن متنقلا مابين مكة وحائل ترى ماذا تفعل هيا الآن ؟ . . لعلها نائمة . . أو لعلها تعبث ، كعادتها ، بازرار

الراديو متنقلة من محطة إلى أخرى لتستمع إلى اغانيها المفضلة وهي لاتعلم أن زوجها – في هذه اللحظة بالذات – معلق مابين السماء والأرض في طائرة تأبى عجلاتها النزول ، وليس يدري الا الله مايكون من مصيرها ومصير ركابها . .

واهله في مكة . . ماذا يفعلون الآن ياترى ؟ . . انه يراهم بعين الخيال في جلستهم المعتادة . . الاب يدخن الشيشة . . والام تطوى الغسيل أو تكويه . . وتلقي بين الحين والآخر نظرة على شاشة التلفزيون . . والبنتان مشدودتان إلى الشاشة الصغيرة . . وكلهم على اتم ماينبغي امانا واطمئنانا ، بينما هو – ولدهم الوحيد – يكاد يرى الموت بعينيه ، وطائرته تدور وتدور في الاعالي ، بينما يبذل قائدها جهده لانزال عجلاتها دون جدوى . . .

– اصغوا إليّ من فضلكم . . طياركم يخاطبكم . .

وانتبه الركاب جميعاً ، واصغوا إلى صوت الطيار باهتمام وهو يتحدث إليهم من كابينة القيادة بواسطة الميكروفون :

– ارجو قبل كل شيء ان تحافظوا على هدوئكم وقوة اعصابكم . . اننا نعاني بعض المتاعب . .

وهاج الركاب وماجوا لدى سماعهم كلمة « المتاعب » وصرخت امرأة أو اثنتان في رعب . .

واستأنف الطيار كلامه :

– اكرر رجائي لكم أن تحافظوا على الهدوء . . هناك عطل في عجلات

الطائرة . . ومنذ نصف ساعة والاستعدادات تتخذ في المطار لاستقبال الطائرة انا سنحاول الهبوط بالطائرة دون عجلات . . لاتنزعجوا . . هذا امر يحدث احيانا . . وهناك استعدادات معينة تتخذ في مثل هذه الحالة . . اجلسوا في مقاعدكم . . وشدوا احزمتكم جيداً . . واتبعوا التعليمات التي ستصدرها لكم مضيفاتكم . . وحظا سعيداً للجميع . . .

وساد الطائرة صمت عميق ، مالبث أن انقلب إلى لغط وهياج ، بينما ارتفعت اصوات المضيفين والمضيفات في محاولة تهدئة من انتابتهم نوبات عصبية ، ومساعدتهم في شد احزمة مقاعدهم ، ونصحهم بالاخلاد إلى السكينة..

وتطلع الاميركي إلى هشام في شيء من الغيظ وهو يقول بلهجة سيطر عليها من الدهشة والذهول بقدر ما كان فيها من الاهتمام والفضول :

– يبدو لي انك غير مكترث لما يحدث في الطائرة . . فهل لاتقدر خطورة الموقف الذي نحن فيه ؟ . .

وابتسم هشام بهدوء ، واجاب الرجل في بساطة :

– اعتقد ان من الصعب عليّ ان اشرح لك الامر في هذه الظروف .. ولك ان تفسره كما تشاء . .

وعاد إلى الاسترخاء في مقعده ، امام نظرات الذهول التي وجهها إليه جاره الاميركي ، الذي انحنى نحو النافذة وراح يحدق في الجو خارج الطائرة التي كانت ماتزال تقوم بدورتها الواسعة ، بينما يصدر عنها بين الحين والآخر صوت اشبه بالانين صادر عن أجهزة العجلات خلال محاولات الطيار المتتالية لانزالها . .

والواقع ان الخوف لم يخالج فؤاد هشام قط ، لاعن شجاعة غير عادية – كما توهم جاره – وانما عن ايمان عظيم . .

ولقد قالها للرجل بالعربية بأنه لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا ، فما فائدة الخوف والهلع إذن ؟ . . مادام الله العلي القدير هو الذي يقدر الامور ويسيرها كيفما يشاء ؟ . . وهل يفيد الفزع والهياج في هذه الحالة ؟ . . طبعاً لا .. ففيم إذن يجزع ويهلع ؟ . .

كان جسم هشام وحده، هو الموجود في الطائرة تلك اللحظات العصبية، أما فكره وروحه فقد كانا يحلقان هناك في أرض الوطن ، يرودان اجواء الاهل والاحبة ، ويستذكران دقائق تفاصيل الوجوه العزيزة التي تركها هناك والمواقف الحميمة التي كانت آخر ماودّع به عندما غادر جدة إلى بلاد الغربة .

وكان الايمان الذي يملأ كل جارحة فيه يجعله على يقين من ان ماقدره الله هو الكائن ، وان الله ، تباركت اسماؤه ، لن يضيعه ولن يخذله ، وانه — ولاريب — سيجعل له مخرجا من هذه المحنة الخطرة التي كان يجتازها . .

وانتبه هشام من خواطره على جاره الاميركي وهو يجذبه من ذراعه بعصبية ويقول له :

— هل تعلم لم تدور الطائرة في الجو هكذا مع أن بقدرتها الهبوط بدون عجلات ؟ . . أنا اقول لك . . انها تحرق الوقود الذي زودت به خوفا من انفجارها عندما ترتطم بالأرض دون عجلات . . هل فهمت ؟ . .

وابتسم هشام وقال له مسايرا :

— اجل فهمت . .

— ليتها تهبط وتنفجر وننتهي . . . انني لم اعد اطيق هذا القلق القاتل . .

ووجد هشام نفسه يقول له بالعربية باسما :

– وكّل الله يا شيخ . .

ونظر اليه الاميركي مستفهما ، وفي هذه اللحظة هدر في الطائرة الصوت المألوف الذي يرافق نزول عجلات الطائرة عادة ، وارتفع صوت الطيار من خلال مكبرات الصوت :

– ايها السيدات والسادة اهنئكم . . لقد وفقنا اخيراً في انزال عجلات الطائرة وسنهبط خلال دقائق . . وسيكون كل شيء على مايرام . .

وعاد الهياج يسيطر على جو الطائرة ، وصيحات الفرح تنطلق هنا وهناك بينما لم يزد هشام على أن همس في سره بخشوع :

– الحمد لك يارب . .

والتفت إلى جاره الاميركي الذي استقبل النبأ بعصبية أكثر ، فراح يقول والفرح الشديد ينضح من كلماته :

– هل سمعت ؟ . . لقد نجونا . . لقد نجونا . .

وتوقف عن هتافه العصبي ، ليتأمل هشام في هدوئه العجيب وهز رأسه بعنف وهو يقول :

– بصراحة . . أنا لاافهمك . . هذا الهدوء الذي قابلت به نبأ النجاة لايقل غرابة عن الهدوء الذي قابلت به نبأ الخطر . . انني لاافهمك . .

ورد عليه هشام بنفس الهدوء :

– لقد قلت لك ان من الصعب عليّ ان اشرح لك الامر . . وازيد الآن . . أن من الصعب عليك ان تفهم . .

وفي هذه اللحظة كانت عجلات الطائرة قد لامست الأرض ، وراحت تطوي ارض مدرج المطار بسرعة هائلة ، ثم ما لبثت هذه السرعة أن تناقصت شيئاً فشيئاً إلى أن توقفت الطائرة تماماً . .

وحين نزل الركاب من الطائرة ، رأوا ما كان المطار فيه من هرج ومرج بسبب ذلك الخطر العابر الذي تعرضوا له ، فقد اصطف عدد كبير من سيارات الاطفاء والاسعاف والشرطة في مواقع مختلفة قرب أحد المدرجات البعيدة بينما كسيت أرض المدرج برغوة بيضاء كالثلج غطتها كلها ، ففهم هشام أن هذه الرغوة قد اعدت لتنزلق الطائرة فوقها ، على بطنها ، فيما لو لم يقيض الله للعجلات أن تنزل ، للتخفيف قدر الامكان من اخطار الهبوط دون عجلات . .

ومرة أخرى تمتم هشام في سره :

ـ الحمد لك يارب . .



٤٦

كان ما انزعج له هشام ، بعض الشيء ، انه قد وصل إلى مدينة نيويورك يوم السبت ، ومعنى هذا أن عليه أن ينتظر يومين قبل أن يتمكن من مراجعة مكتب البعثات السعودي في المدينة ، ولم يكن هذا التأخير سبباً في أن يبتهج هشام إذ اتيحت له الفرصة للتجول في هذه المدينة الأمريكية الكبيرة ، ومشاهدة ما يمكن مشاهدته من معالمها ، ذلك أن شعور الوحشة القاتلة قد عاوده بمجرد ان انهى اجراءات الدخول ثم النزول في فندق كان احد زملائه قد اعطاه عنوانه . .

وكان شوقه إلى هيا قد فاق قدرته على الاحتمال ، فلقد كان حريا به

أن يسعد لهذه « العطلة » الطارئة التي وجد نفسه فيها لو أن زوجته كانت معه ، أما وانه وحيد ... وحيد إلى اقصى درجات الوحدة ، فقدكان يعتبر استمتاعه بأي شيء مما مر به في رحلته هذه ، انتقاصاً من واجب وفائه لهيا ، فهو لايرضى بأن يستمتع بشيء لاتشاركه هيا فيه ، اضافة إلى انه كان قد ضاق ذرعا بالحديث باللغة الانجليزية ، وبات يتمنى أن يسمع ولو كلمة عربية واحدة ، أو أن يرى أي اخ عربي في هذه المدينة الضخمة ، ولكن امنيته لم تتحقق ، وظل وحيداً .. وحيداً . . رغم آلاف الأشخاص الذين كان يمر بهم ويمرون به في شوارع نيويورك ، ورغم آلاف السيارات التي كانت تزحم الطرق ، ورغم اللافتات الملونة الضخمة باشكالها العديدة وحركاتها الغريبة ، ورغم الصخب والضجيج اللذين كانا يملآن الشوارع التي ارتادها ...

والواقع ان هشام شعر بنوع من خيبة الامل ، فما كان في تقديره أن يزهد إلى هذا الحد بكل هذه الأشياء الجديدة عليه ، والتي كان يراها انى أدار بصره ، ذلك أن شعور الوحدة والوحشة قد فاق كل ماكان يتوقعه ، لدرجة حدث نفسه معها بأنه لو خير بين أن يكون في بلاده ، هذه اللحظة ، أو ان يكون في هذه الدنيا الغريبة ، لاختار الأولى دون تردد . .

وهكذا راح يتجول في الشوارع القريبة من الفندق بغير هدف معين ، أكثر من تمضية الوقت إلى أن يحين وقت النوم ، بانتظار اليوم التالي ، وهو يوم عطلة ايضاً ، ليراجع – من ثم – مكتب البعثات السعودي ، ويباشر المهمة التي جاء من أجلها . .

وإذ شعر أن بوسعه أن ينام بعد أن نال منه التعب كل منال بعد سيره الطويل ، اشترى بضع شطائر من الجبن والبيض ، متحاشيا شطائر اللحوم على انواعها ، ثم عاد ادراجه إلى الفندق . .

٤٧

عندما فتح عينيه ، صباح يوم الاحد ، خامره شعور غريب بأنه ما زال في موطنه ، وفي بيته ، وانه لم ينتقل – بعد – إلى بلاد الغربة ، وان كل مامر به منذ أن استقل الطائرة من جدة لم يكن سوى حلم طويل . .

ولم يتحرك من مكانه في السرير ، بل ظل مفتوح العينين كأنما هو ينتظر أن يسمع صوت هيا وهي تدندن بأغانيها المفضلة في المطبخ اثناء انهماكها في تحضير الافطار ، ومع انه اعتاد – بحكم عمله – أن يفيق باكرا ، الا انه كان يحرص على البقاء في السرير ، مصغيا إلى غناء هيا الخافت الذي كان يطربه ويجعله يشعر بسعادة الدنيا وجمالها ، منتظراً أن تأتي إليه وعلى وجهها ابتسامتها الحلوة ، لتقول له عبارتها المحببة التي عودته على أن تطالعه بها كل صباح منذ زواجهما :

– صباح النور . .

عندها ، كان يبتسم لها ويبادلها تحيتها ثم ينهض من السرير . .

الآن عليه أن ينهض بنفسه ، فلا احد سيوقظه لانه وحيد ، وبينه وبين حلوته المحبوبة هيا آلاف وآلاف من الاميال . .

وهذه الغرفة ليست غرفته ، انها غرفة مستأجرة في فندق ، وليس فيها ما يمت إليه بأية صلة . . وهذا الاثاث هو غير ذاك الذي تركه هناك ، والذي اختارته هيا ، بذوقها المرهف ، قطعة قطعة . . وناطحات السحاب التي تبدو من وراء النافذة ، تختلف كل الاختلاف عن المشهد الطبيعي الساحر الذي اعتاد ان يستقبله في حائل كلما نهض من السرير . .

هنا كل شيء ضخم ، كبير ، جامد ، يقف شامخا غير مكترث بأحد . .

وهناك ، في بلاده ، كان يشعر بمحبة تربطه إلى كل شيء . . لاسيما أشجار الحديقة التي كان يحرص على العناية بها يومياً ، ويتابع نموها بكثير من الشغف والاهتمام .

واستقام اخيراً في جلسته ، وهو يتنهد بغير سعادة ، فهو قد جاء إلى هنا في « مهمة » وعليه أن ينجزها باقصى مايستطيع من العناية والاتقان ، أما المشاعر الانسانية التي كان يستعذب تغلغلها في كيانه وروحه فلا مكان لها الآن ، لأن احدا ما لن يفهمه ، تماما كما لايفهم ، هو ، أحدا . .

وشعر بأنه زاهد في تناول طعام الفطور ، فطلب فنجانا من الشاي وفي خاطره ان ينتهي هذا اليوم ايضاً بأسرع ما يمكن لكي يستطيع مباشرة « مهمته » بصورة فعلية . .

وخلال دقائق كان في الشارع ، وسره أن الجو دافىء ، خلافا لما كان عليه في لندن ، فأشار إلى سيارة اجرة ركبها وطلب إلى سائقها ان يأخذه إلى الشارع الذي يوجد فيه المكتب السعودي . .

ومع انه كان يعلم ان المكتب مغلق بطبيعة الحال في يوم العطلة هذا ، الا انه كان في اشد الشوق إلى أي شيء يحمل اسم بلاده ، محاولا اقناع نفسه بأن من الافضل له أن يستدل على مكان المكتب منذ الآن ليتمكن من التوجه إليه غداً بغير عناء . .

وانزله السائق امام عمارة ضخمة ، تتألف من اربعين طابقاً أو أكثر ،

فمضى يبحث بعينيه عن اسم المكتب إلى أن وجده ، فشعر بفرحة طاغية ، فها هو يرى شعار بلاده الحبيب يعلو اللافتة الانيقة المكتوبة باللغتين العربية والانجليزية ، فمضى إلى المصعد بنشاط ولهفة ، وراح يبحث من ثم عن المكتب إلى أن وجده اخيراً .

كان المكتب مغلقاً ، فمد هشام بصره عبر بابه الزجاجي العريض ، واجاله على الجدران التي زينت بلوحات فوتوغرافية عن بعض المعالم المميزة في المملكة ، تتوسطها لوحة كبيرة للكعبة المشرفة ، الامر الذي قفز بافكاره إلى بلاده ، وارضه ، وأهله . .

وإذ تحرك للذهاب ، لفتت انتباهه بضع رزم من الصحف السعودية ، يبدو أن الساعي قد وضعها إلى جانب الباب بسبب العطلة الأسبوعية ، فتوقف وراح يستعرضها بنظره وقد ذاب شوقا وحنينا : عكاظ ، الرياض ، الندوة الجزيرة ، المدينة . . وحدث نفسه عن اثر الزمان والمكان في الانفعالات التي يعيشها الانسان ، فهو ينظر – الآن – إلى كل مايذكره ببلاده نظرة عاطفية ، يكاد يحس معها بالدموع تطفر من عينيه . . .

وغادر المكان وقد ارتفعت روحه المعنوية كثيراً ، وزايله جانب كبير من شعور الوحدة والوحشة . ومضى يستعجل الساعات كي تشرق شمس اليوم التالي ليعود إلى « المكتب السعودي » الذي سيتولى توجيهه إلى معهد اللغة الانجليزية ، واستكمال الاجراءات اللازمة لذلك . .

وحين سار متجولا في الشوارع ، احس بأنه قد بات احسن حالا مما كان وان جبال الاسى التي كانت تثقل قلبه وروحه قد انزاحت او كادت ، وان كل شيء سيكون – باذن الله – على مايرام . .



٤٨

لم تكن قد مضت على وصول الآنسة نادية ـ أو المس نادية كما ينادونها ـ إلى المكتب أكثر من دقائق معدودات حين رأت هشام وهو يدخل وفي حركته شيء من الارتباك . .

وابتسمت نادية ابتسامة مرحبة اعتادت أن تستقبل بها مراجعي مكتب البعثات ، وقبل أن تلقي احدى عبارات الترحيب التي ترافق تلك الابتسامة عادة ، سبقها هشام إلى القاء تحية الصباح باللغة الانجليزية ، فردت عليه تحيته واردفت متسائلة عما تستطيع أن تفعله من اجله . .

ولم يكد هشام يعرفها بنفسه ، ويبلغها بأنه مبتعث سعودي جديد ، حتى اتسعت ابتسامتها ، وقالت له على الفور باللغة العربية بلهجة دلت على أنها لبنانية :

ـ اهلا وسهلا فيك . . تفضل . .

وشعر هشام براحة غريبة في تلك اللحظة ، فها هو ـ اخيراً ـ يستعيد ما افتقده عدة ايام ، فقال للفتاة باسما :

ـ اعتقد ان الاخت لبنانية . . . أو سورية ؟ . .

وردت نادية باسمة :

ـ بل لبنانية . . على كل حال لافرق بيننا . . كلنا عرب . .

وعلق هشام بحرارة :

ـ صدقت . . صدقت . . اجل . . كلنا عرب . .

وتهالك على المقعد وهو يتنهد بارتياح ، فها هو الآن في بيت عربي . . بيت سعودي . . فيه يجد ، انى أدار بصره ، لمحات من وطنه وبلاده . .

– تعرفين يا آنسة ؟ . . انت أول انسان عربي اقابله منذ أن غادرت جدة قبل بضعة أيام . .

قال هشام ذلك وهو يشعر بدفء الدار والوطن في بلاد الغربة ، فهو لم ينظر إلى « المكتب السعودي » على أنه دائرة رسمية ، بقدر ما شعر بأنه داره ، وانه جزء من وطنه . .

وردت الفتاة وهي منهمكة في اعداد القهوة الاميركية :

– هذه ليست أول مرة اسمع فيها هذا الكلام . . . كثيرون من زملائك المبتعثين قالوه لي قبل الآن . . وانا اقدر شعوركم هذا كل التقدير . . فأنا ، كما ترى ، مثلكم . . اعيش في بلاد الغربة . . واحن إلى كل شيء عربي . . كل شيء يمت إلى بلادنا العربية بأية صلة . .

وسكتت الفتاة لحظات ثم تنهدت واستطردت بصوت خافت :

– لا نستطيع أن نعرف معنى أن نقابل انساناً عربياً إلا في بلاد الغربة . .

وقدمت له فنجان القهوة وهي تقول :

– هذه قهوة اميركية . . بعد قليل نقدم لك القهوة العربية على الطريقة السعودية . . . بل والشاي ايضاً . .

وضحك هشام بسعادة ، وزال عنه شعور الوحدة تماماً ، بحيث وجد في نفسه الجرأة على أن يسأل الفتاة عن نفسها ، واحوالها ، وسبب وجودها في تلك البلاد . . .

وجلست الفتاة قبالته تحتسي قهوتها وهي تجيب على اسئلته :

– انني لبنانية كما قلت لك . . هاجرت عائلتي إلى الولايات المتحدة منذ بضع سنوات . . وقد التحقت بهذا المكتب العمل كسكرتيرة . . فأحببت هذا العمل . . فهو يذكرني بوطني بشكل ما . . واعتقد انك توافقني في تقدير مدى السعادة التي يشعر بها الانسان في بلاد الغربة عندما يجد من يتحدث معهم بلغته . .

وأومأ هشام موافقاً ، فاستطردت الفتاة تقول بلهجة ضاحكة :

– الغريب أن تجد العرب مختلفين وهم في بلادهم . . ثم تراهم في بلاد الغربة متفاهمين متحابين . .

فابتسم هشام وهو يجيب :

– لو أنهم جربوا ، جميعاً ، مرارة الوحدة في الغربة فلربما كان حالهم أفضل . .

وضحكت الفتاة وقالت :

– فكرة معقولة . . الواقع . . . ليس هناك اسعد من انسان لايسيطر عليه شعور الوحدة والوحشة . .

– ويالها من سعادة . . انني اشعر الآن بقيمتها حق الشعور . . ولو كنت اعلم بهذه القيمة لاصطحبت زوجتي معي بكل تأكيد . . لقد تركتها في المملكة ظنا مني بأن من الضروري الا اتحدث مع احد باللغة العربية اثناء دراستي للغة الانجليزية . . ولعلي كنت مخطئاً في ذلك . . فليس بامكان المرء ان ينسلخ عن بيئته انسلاخا كاملا . . لابد له من شيء يربطه بهذه البيئة . .

وادار وجهه في ارجاء الغرفة ثم اكمل :

– هذه المشاهد التي تزينون بها ارجاء المكتب . . كنت اراها في المملكة كشيء عادي ومألوف . . اما الآن فان لها عندي قيمة أكبر . . ولها في نفسي تأثير عظيم . . حقاً . . ان الانسان لايعرف قيمة الشيء إلا عند افتقاده . .

وعلقت الفتاة والابتسامة ماتزال على شفتيها :

– المدهش أن جميع المبتعثين الذين يأتون إلى المكتب يقولون الكلام نفسه حتى الالفاظ تكاد تكون هي نفسها حرفياً . .

وانصرفت الفتاة إلى عملها بعد أن وضعت عدداً من الصحف السعودية بين يدي هشام ، فهي – كما قالت – تأتي مبكرة عن موعد الدوام الرسمي لاعداد الأوراق وتجهيز الملفات . .

وراح هشام يقرأ تلك الصحف بعناية ، حتى الاعلانات كان يتوقف عندها متأملا ، فان كل شيء في تلك الصحف كان يذكره ببلاده التي غادرها منذ اقل من أسبوع ، ومع هذا فان تلك المدة بدت في نظره وكأنها دهر طويل .

وقبل أن ينتهي من تصفح أول جريدة تناهى إليه صوت يقول له باللهجة السعودية :

– صباح الخير . .

وهب واقفا يرد التحية ، ويصافح اليد الممدودة إليه بمودة وعطف ، فهاهو احد موظفي المكتب السعودي يحييه ، وقد الف – ولاريب –أن يرى امثال هشام في المكتب ، مع الاعداد المتزايدة للمبتعثين في مختلف الاختصاصات

وخلال ثوان كان هشام يجلس في غرفة الموظف ، .ومعه آخرون من الموظفين الذين جاؤوا تباعا إلى مقر عملهم ، فراحوا يبادلونه الاحاديث وهو يصغي إليهم بكل جوارحه ، ويرد على اسئلتهم بثقة واطمئنان ، فلقد احس وكأنه قد عاد مرة أخرى إلى بلاده ، وان جو الغرفة انما هو قطعة من صميم أي مكتب رسمي في المملكة . .

وكان أكثر ما اغتبط له ، وأشعره بالتأثر ، هو الاهتمام الواضح الذي لقيه من موظفي المكتب ، فهم مع اعتيادهم على استقبال الشباب السعوديين المبتعثين ، ما كانوا يعجزون عن ادراك الاحساس الذي يخامر أولئك الشباب لاسيما الذين يغادرون المملكة لاول مرة ، حتى بات بث الاطمئنان والألفة في نفوسهم جزءاً طبيعياً من اسلوبهم في ممارسة عملهم في المكتب واستقبال زوارهم من المبتعثين . .

وخلال الحديث كان احد الموظفين يقوم بالاجراءات اللازمة لالحاق هشام بمعهد اللغة ، بعد ان اطلع على أوراقه ومستنداته ، فاعد له خطابا موجها لادارة المعهد ، وفيه الصيغة التقليدية التي تفيد بأن هشام هو أحد مبتعثي حكومة المملكة العربية السعودية ، وانه تحت الكفالة الكاملة والمسئولية الشاملة للمكتب السعودي في الولايات المتحدة ، كما حرر له شيكا بالمبلغ الذي يعطى عادة للمبتعثين فور وصولهم وزوده ببطاقة السفر بعد ان حجز له – بالتلفون – مكانا على الطائرة التي تغادر نيويورك إلى مشيغان بعد ساعتين . .

وقال له الموظف وهو يسلمه الأوراق والبطاقة :

– انتبه جيداً ياباشمهندس . . تركب الطيارة من مطار لاجوارديا في نيويورك ولا تنزل منها إلا في مطار لانسنغ في ميشيغان . اياك ان تنزل في أي مطار آخر من المطارات التي ستتوقف الطائرة فيها خلال الرحلة . .

وكانت الابتسامة ترتسم على وجه الموظف وهو يقول عباراته تلك ، وازدادت الابتسامة اتساعا وهو يفسر له سر تلك الملاحظة :

ــ احد الاخوة المبتعثين ، هداه الله ، نزل في أول مطار هبطت فيه الطائرة ففوجيء بأن المدينة التي نزل فيها هي غير المدينة المقصودة . . وكانت تلك أول مرة يزور فيها الولايات المتحدة . . وعندما اكتشف خطأه حار في امره واتصل بنا ووفقنا في تدارك هذا الخطأ . .

وضحك هشام للقصة واجاب باسما :

ــ ان أول شيء تعلمته في رحلتي هذه منذ أن غادرت جدة هو ألا أدهش لاي شيء يحدث ، أو اي شيء اراه . .

ووضع فنجان القهوة العربية الذي كان يحتسيه في تلذذ ، وتناول اوراقه وتذكرته ، ونهض مسلما على الجميع شاكراً لهم مالقيه منهم ، ذاكرا انه سوف يتوجه إلى الفندق ومنه إلى المطار في الحال ، فهو انما جاء إلى هذه البلاد من أجل مهمة محددة ، وفي عزمه الا يضيع يوما واحداً من وقته دون أن يخطو فيه ولو خطوة واحدة نحو هدفه . .

وشد موظفو المكتب على يده مودعين بنفس الالفة والمودة التي استقبلوه بها ، وكأنهم يعرفونه منذ زمن طويل . .

وقال له احدهم وهو يصافحه :

ــ سوف اتصل حالا ببعض المبتعثين السعوديين هناك ليكونوا في استقبالك وارجو لك التوفيق والنجاح ...

وغادر هشام « المكتب السعودي » وقد بلغت حماسته اوجها ، ولم ينس

أن يودع الآنسة نادية وهو يتجه إلى باب الخروج ، ليتوجه إلى الفندق ، ومنه إلى مطار « لاجوارديا » من غير ادنى تلكؤ . .

٤٩

لم يجد هشام عناء كبيراً في الاستدلال على مستقبليه الاثنين في مطار « لانسنغ » ، وقد عرف بعد دقائق أن احدهما يدعى « حمود » والآخر « صالح » فهو قد اعتاد على البحث عن « الوجه العربي » في كل زحام يجد نفسه امامه ، بل ان هذا البحث بات اشبه بالهاجس فهو يشغله منذ أن غادر بلاده . .

كذلك لم يجد حمود وصالح عناء في تمييز هشام بين ركاب الطائرة وهم يهبطون منها ، فقد كان يدير عينيه جهة قاعة الاستقبال عندما التقت عيناه بعيونهما ، وفي ومضة من ومضات الاخاء والمحبة التي تربط ما بين ابناء الوطن الواحد تم التعارف بين المبتعث الجديد وزميليه اللذين كانا في انتظاره ، فكانت المصافحة بعد انهاء اجراءات الدخول وكأنها تتم بين قدامى الاصدقاء فلم يكن ينقص هشام إلا أن يعرف اسمي مواطنيه لكي يصبح وجودهما بانتظاره في المطار من قبيل تحصيل الحاصل . . .

وركب هشام إلى جانب صالح في سيارته ، وجلس حمود في المقعد الخلفي ، وانطلقت السيارة بعد ذلك في الاوتوستراد العريض متجهة إلى بلدة « ماونت بلزانت » حيث يقيم معظم المبتعثين السعوديين إلى جامعة مشيغان . .

وقال صالح لهشام بالانجليزية وهو يركز عينيه على الطريق :

— مرحبا بك في ميشيغان . . هه . . كيف كانت الرحلة ؟ . .

وتنهد هشام واجاب بالعربية :

ـ الرحلة بحد ذاتها لم تكن سيئة . . ولكنني عانيت كثيراً من شعور الوحدة والوحشة . . إلى أن التقيت بموظفي المكتب السعودي في نيويورك . . ثم بكما . .

وارتفع صوت حمود من المقعد الخلفي مخاطباً هشام بالانجليزية :

ـ عفواً ياسيد هشام . . لقد سألك الاخ صالح بالانجليزية . . ويجب أن تجيبه بالانجليزية . .

وضحك هشام والتفت إليه قائلاً بالعربية :

ـ ياخوي خلليها على الله . . منذ أيام وانا لم اسمع كلمة عربية واحدة . . ناهيك باللهجة السعودية بالذات . . فدعني اتكلم كما اريد . .

ولكن حمود اجابه بالانجليزية بجدية تامة :

ـ انني لا امزح . . أنت هنا ، كما قالوا لنا في المكتب السعودي ، للتمكن من اللغة الانجليزية . . وعليك أن تتكلمها منذ الآن قدر ماتستطيع . . وكذلك عليك ايضاً أن تفكر باللغة الانجليزية . . اياك ان تلجأ إلى ترجمة الكلمات في ذهنك من العربية إلى الانجليزية . . هذه أول قاعدة من قواعد اتقان اللغات الأجنبية . . فكر وتكلم باللغة الانجليزية مباشرة . .

وحدق هشام في الطريق الذي كانت السيارة تطويه بسرعة وتمتم بالانجليزية قائلاً :

ـ أنت على حق . .

وعاد وجه هيا يطل عليه وهو ينظر ساهما إلى الطريق ، فهو قد تذكر انه انما خلف زوجته في حائل لهذا السبب على وجه التحديد فكيف سها عن ذلك ؟ وكيف سمح لنفسه بأن يتحدث العربية مع الآخرين ؟ . . لقد ابى أن يصطحب

زوجته كيلا يضطر إلى التحدث معها بالعربية . . ترى هل نسي ذلك ؟ . . وذاب قلبه حنينا والما حين تذكر صوتها وهي تخاطبه على التلفون وتعده بالا تنطق بكلمة واحدة إذا ما اصطحبها معه في البعثة ، وكيف تمسك بموقفه دون ان يحسب لآلام الفراق حسابا أو يتوقع ماسوف يشعر به من الوحدة والوحشة . .

وعادت خيالاته تطوف به ارجاء وطنه واحبائه ، وترود — في مثل ومض البرق — آفاق الذكريات العزيزة الغالية ليشعر ، من ثم ، بعزيمته تزداد مضاء وحدّة ، وارادته تلتهب حماسة وتصميما كي يحقق حسن الظن به ، ويؤدي المهمة التي أتى من أجلها . . ويصل إلى الهدف الذي يصبو إليه . .

وكأنما شعر زميلاه بما كان يراود ذهنه من أفكار ، فأخلدا إلى الصمت فهما قد قاسيا ، قبله ، مما يقاسي منه الآن وهما ، بالتالي ، يعرفان شعوره حق المعرفة ، فآثرا ان يتركاه إلى خواطره . .

واخيراً تكلم صالح . . قال بالانجليزية وهو يومىء إلى مظاهر العمران التي بدت في آخر الطريق :

— هذه هي ماونت بلزانت . . انها كما ترى مدينة صغيرة تختلف كل الاختلاف عن نيويورك . . ولكنها تهيء لك ميزتين . . الأولى هي اعتدال النفقات بالنسبة للمدن الكبيرة . . والثانية هي الانصراف إلى الدراسة انصرافا كليا . . إذ ليس في مثل هذه المدينة مايشغل سكان المدن الكبيرة . .

وقال حمود :

— ستنام الليلة عندي . . وغداً باذن الله تذهب إلى المعهد . .

وحاول هشام الاعتذار ، فهو لايريد أن يثقل على مواطنيه أكثر مما فعل ويكفي انه جشمهما عناء استقباله وايصاله إلى البلدة . . فقال :

ـ لا داعي لان تزعج نفسك . . سوف ابات ليلتي هذه في أي فندق . . لقد اثقلت عليكما بما فيه الكفاية . .

فضحك حمود وهو يجيبه :

ـ ليس في ذلك اي ازعاج . . فعائلتي في المملكة لاداء واجب اجتماعي وعندي غرفة مخصصة للضيوف . .

واضاف صالح وهو يجتاز بسيارته مدخل البلدة :

ـ تماما كما قال الاخ حمود . . سنأخذك في جولة سريعة تتعرف فيها على اهم معالم البلدة . . ثم نسهر معا لنزودك بما تريد من معلومات حول مايترتب عليك لاداء الغرض الذي جئت من اجله . .

وتوقفت السيارة اخيراً امام عمارة مؤلفة من بضعة ادوار ، ونزل الثلاثة منها وحملوا الحقائب وتوجهوا إلى المصعد . . وقال صالح لهشام باسما :

ـ على فكرة يا أخ هشام . . لغتك الانجليزية جيدة . . واتوقع ان تحقق نجاحا سريعاً في اتقانها بالمستوى المطلوب خلال وقت قصير . .

وعلق حمود على كلام صالح :

ـ لاتنس انه مهندس . . أو بالاصح « باشمهندس » . . ترى . . ماهي ترجمة « باشمهندس » بالانجليزية ؟

وضحك الثلاثة وهم يلجون باب المصعد الذي ارتفع بهم إلى الدور الذي يسكن فيه حمود . . .

٥٠

في صباح اليوم التالي كان هشام في طريقه إلى معهد اللغة التابع للجامعة ، بعد أن امضى معظم الليل ساهراً مع صديقيه الجديدين اللذين حاولا اعطاءه أوسع معلومات ممكنة عن البلدة التي يعيشون فيها ، وعن طريقة الحياة ، والسلوك ، والتعامل ، ووجوه الاختلاف مابين اسلوب الحياة في المملكة واساوبها في هذه البلاد . .

وكان الحديث قد دار ، بطبيعة الحال ، باللغة الانجليزية ، وكان هشام يبذل جهده في متابعته والاشتراك فيه باللغة ذاتها ، وعندما كان زميلاه يشعران بان الكلمة المناسبة تعوزه في احدى فقرات الكلام كانا يقولانها له ، ويوجهان انتباهه بشكل خاص إلى الاصطلاحات الاميركية الغريبة التي لا يمكن لغير من عاش في امريكا وتخاطب مع الاميركيين ان يفهمها ، لاسيما الاشارة إلى بعض التعابير الطويلة بالحروف الأولى من كل كلمة بحيث تتشكل كلمة جديدة تستخدم في الإشارة إلى ذلك التعبير ، فلا يفهمها إلا من عرف اصل الكلمة ورموز حروفها . .

وكان مما ارتاح له هشام انه وجد من ذهنه ميلا تلقائياً إلى « التفكير » باللغة الانجليزية ، بعد أن شدد عليه صديقاه بضرورة ذلك ، ونبهاه باستمرار كلما اضطر إلى ادخال كلمات عربية في حديثه معهما . .

وما ان وطئت قدماه مدخل المعهد حتى بدأ يواجه متاعب فهم « اللغة الاميركية » مواجهة عملية ، إلى ان استطاع الاستدلال على الموظفة المختصة والدخول إلى مكتبها حيث رفعت حاجبيها متسائلة قائلة بهدوء :

— هل استطيع مساعدتك ؟ . .

وشرح لها هشام موضوعه ، وكانت السيدة تتابعه بصبر يدل على اعتيادها على مواجهة مثل هذه المواقف ، وان اضطرت أكثر من مرة لأن تقول له بأناة وهي تضغط مخارج الحروف :

– ارجوك يا سيد . . ارجو أن تتكلم ببطء لكي استطيع أن افهم منك ما تريد . .

وكان واضحاً ان السيدة قد ادركت غرضه لمجرد دخوله إلى مكتبها ، فمعهد اللغة الملحق بالجامعة يستقبل كل عام اعدادا كبيرة من المبتعثين الآتين من مختلف بلاد العالم ، والذين تختلف لهجاتهم وطريقة نطقهم ، ولكنها ارادت – على مايبدو – أن تلقن هشام « الدرس الأول » في الحديث باللغة الانجليزية ، فنبهته بلباقة إلى ضرورة الكلام – بادىء الامر – ببطء والاهتمام بمخارج الحروف . .

وتناولت السيدة اوراق هشام واشارت له بالجلوس وقالت له بتلك اللهجة المتأنية :

– مرحباً بك عندنا . . هنا كثير من الطلبة السعوديين . . في مختلف مستويات المعهد . . آه . . انا آسفة . . نسيت ان اقدم لك نفسي . . انا « المسز جاب » . . ويسعدني أن اقدم لك كل خدمة ممكنة . .

ووضعت السيدة نظارتها الطبية على عينيها وراحت تقلب في احد الملفات وهي تواصل الحديث :

– سوف نؤمن لك السكن المناسب . . وسيكون معك في الغرفة زميل اميركي . . أنت تعرف طبعاً لماذا . . لكي تستطيع الاستفادة من حديثك معه وطبعاً إذا لم تعجبك صحبته يمكنك استبدال الغرفة . . شيء آخر اود ان اوضحه

لك . . وهو اننا سنجري لك اختباراً نحدد بموجبه المستوى اللازم الذي يناسبك ... لدينا هنا مستويات عديدة . . تناسب جميع المبتعثين . . واستطيع أن اقول لك منذ الآن انك في مستوى جيد . . فلغتك لا بأس بها . . وانت ، كما يبدو من أوراقك ، مهندس .. وكل ماينقصك هو اتقان قواعد اللغة بشكل افضل.. واغناء مفرداتك . . وتطوير طريقتك في النطق . .

وسحبت السيدة ملفا معينا راحت تقلب في اوراقه ، وتملأ بعض الاستمارات بينما كان هشام يجلس صابراً منتظراً انهاء اجراءات التحاقه بالمعهد . .

٥١

حين دخل هشام إلى غرفته في المسكن المخصص لطلبة معهد اللغة ، وجد زميله الاميركي جالساً على طرف سريره يتصفح احدى المجلات . .

والقى هشام التحية فردها الشاب قائلاً :

– هاي . . أنا توم . . زميلك في الغرفة . . ويسرني التعرف عليك . .

كان شابا طويل القامة ، اشقر الشعر ، تشوب وجهه نقاط من النمش الخفيف ويرتدي ملابس من « الجينز » وكل مافيه يوحي بمظهر الاميركي الصميم ، لاسيما « العلكة » التي كان يلوكها بغير انقطاع وهو يتحدث إلى هشام . .

وكان حريا بهشام أن يضيق ذرعا بهذا الشاب ، ولاسيما طريقته في مضغ « العلكة » وهو ينهال عليه بالاسئلة دون أن ينتظر لها جوابا :

– من اين اتيت ؟ . . آه « العربية السعودية » . . انها بلاد عظيمة . . احد

اقربائي اقام بها بضع سنوات . . كان يعمل في « ارامكو » ولكن قل لي . . كيف تعيشون هناك ؟ . . يقال أن الحر شديد ولاهب . . هل هذا صحيح ؟ يقال انكم تجدون البترول في أي مكان تحفرون فيه . . هل هذا صحيح ؟ . . وانت ؟ . . كم بئراً من البترول تملك ؟ . . عندنا هنا في امريكا كثير من اصحاب الملايين الذين يملكون عدداً كبيراً من آبار البترول . .

ومضى يثرثر على هذه الشاكلة ، يريد أن يحصل على اجوبة على كل اسئلته دون أن يتيح لهشام فرصة الكلام ، ولكن هذا لم يتمالك من الضحك حين سأله الشاب عن عدد الآبار التي يمتلكها من البترول ، وقال له باسما :

ـ ليس عندنا احد يملك آبارا للبترول . . البترول ملك الدولة . .

وفغر الشاب فمه مستغربا ، فهو ـ كأي اميركي عادي ـ يفترض أن الناس جميعاً خارج امريكا يتبعون نفس الاساليب الحياتية المتبعة في بلاده ، فاذا ماتبين له أن هناك شيئاً من الاختلاف لم يكتم دهشته ، بل وذهوله . .

وبعد أن رتب هشام اشياءه في الادراج والخزائن ، اعتذر لصاحبه ومضى إلى الشرفة حيث وقف يستعرض المناظر الطبيعية الجميلة المحيطة بمباني الجامعة ويستنشق الهواء بقوة وهو يشعر بشيء من الرضى عن نفسه ، فقد بات الآن في خضم المعركة ، وعليه أن يوجه جهوده كلها للانتهاء من دورة اللغة باسرع ما يمكن . .

وجلس على كرسي ، وشبك اصابعه ببعضها في جلسة مسترخية وطار بذهنه إلى هناك ، إلى ارض الوطن ، حيث ترك اهله وزوجته ، وراح يتخيل ـ كعادته ـ مايفعلونه تلك اللحظة ، لاسيما وان النهار قد انقضى عندهم ، بينما النهار ـ هنا ـ بعد في مطلعه . .

وراح يحدث نفسه بأن رضاه لن يكتمل إلا عندما تصبح هيا بجواره ، بدلا من هذا الشاب الثرثار ، وأخذ يتخيل ما سوف يحدث عندما يصطحبها معه إلى امريكا ، لتعايشه ايامه كلها ، ولتشرف على شئونه بنفسها ، وليأكل من طهو يديها مآكله المفضلة بدلا من هذه الاطعمة التي تتشابه مع بعضها ، والتي ليس لها مذاق الطعام الذي اعتاد على تناوله طول حياته . .

وافاق من استغراقه في خواطره على « توم » وهو يتقدم منه ، ويقدم له كأسا مملوءاً بسائل اصفر اللون مع بضع قطع من الثلج . .

وقال له الشاب :

- خذ هذا . . ولنشرب نخب تعارفنا . .

ولم يتحرك هشام ، بل سأله بهدوء :

- ما هذا ؟ . .

- « سكوتش » . . من افضل الانواع . . انه سكوتلندي اصلي . . وانا ادخره عادة للمناسبات العظيمة . . ولاشك في أن تعارفنا هو من هذه المناسبات العظيمة . .

وابتسم هشام واجابه دون أن يمد يده :

- شكراً لك . . وآسف . . لا استطيع أن اتناول هذا الشيء . .

وارتسمت الدهشة الشديدة على وجه الاميركي ، بينما اضاف هشام قائلا :

- استطيع ان اشرب معك كأساً من عصير الليمون أو البرتقال إذا اردت ... أو كأساً من الماء إذا كنت مصمماً على الاحتفال بتعارفنا . .

ونقل توم بصره بين الكأس التي في يده وبين هشام وقال بلهجة عبرت عن دهشته :

– اقول لك انه « سكوتش » اصلي . . من افضل الأنواع و . .

وقاطعه هشام قائلاً :

– اشكرك كثيراً ياصديقي على هذا الاهتمام . . ولكن يبدو لي انك لاتعرف أن ديني يحرم عليّ شرب هذا الشيء . . انا مسلم . . ولا استطيع أن اتناول المسكرات . . هل وفقت في إيضاح الامر لك ؟ . .

وقلب الشاب شفته السفلى تعبيراً عن استسلامه وليس عن اقتناعه وقال له :

– غريب . . هذه أول مرة اسمع فيها ذلك . .

فأجاب هشام وابتسامة خفيفة تتلاعب على شفتيه :

– الم يحدثك قريبك الذي قلت لي عنه بذلك ؟ . .

وهزّ الشاب كتفيه ، فها هي معلومة اخرى تبدو له غريبة عن هذا الزميل الآتي من « العربية السعودية » ولا يجد لها تعليلا يقنعه . .

ولطالما تحدث هشام ، فيما بعد ، عن الطريقة التي يتعرف بها الاميركيون إلى حقائق الحياة خارج بلادهم ، واعتبارهم لكل ما يختلف عن النمط الاميركي امراً مثيراً للدهشة والاستغراب ، وكان هشام – بدوره – يحدث زملاءه الاميركيين عن ان في خارج بلادهم عوالم اعرق منها واقدم ، وحضارات هي – في واقع الامر – اساس من الاسس التي قامت عليها الحضارة الاميركية نفسها . .

وكان اكثر مايضحك هشام ان يرى معالم الذهول على وجوه زملائه من الشباب الاميركيين حين يقارن ، بسخرية محببة ، بين الحضارة الاسلامية التي تمتد إلى أكثر من الف وثلاثمائة سنة ، والحضارة الاميركية التي لا يتعدى عمرها مائتي عام ليس غير . .

ولقد تكونت لدى هشام ، بعد المعايشة الطويلة مع الاميركيين فكرة عن الاسلوب الفريد الذي يعيشون به ، فهم – قبل كل شيء – اسرى وسائل الاعلام المختلفة وعلى رأسها التلفزيون الذي يعمل اربعاً وعشرين ساعة بغير انقطاع ، إلى جانب آلاف المجلات المتخصصة ، ومئات الصحف اليومية والاسبوعية ومئات الاذاعات الاقليمية والعامة . وهي جميعها – بلا استثناء – تقدم للمواطن الاميركي معلومات ووجهات نظر تتسم بالطابع الاميركي البحت الذي يقوم ، أول مايقوم ، على تفضيل كل ما هو اميركي واعتباره نموذجاً ليس له مثيل ، ثم عرض الامور من وجهة النظر الاميركية وهي – غالباً – سطحية ومحدودة الآفاق . .

بل لقد اكتشف هشام ، فيما بعد ، أن لديه معلومات عامة عن امريكا ذاتها أكثر مما لدى معظم زملائه الاميركيين ، وان مباراة في « البيسبول » – مثلا – تستقطب اهتمام عشرات الملايين من الاميركيين بينما لاتظفر قضية انسانية كقضية فلسطين إلا باهتمام محدود من المتخصصين وعلى ضوء ماتقدمه وسائل الاعلام التي ليست بعيدة ، كما هو معروف ، عن النفوذ الصهيوني . .

ولم يكن هشام يخفي اعجابه ، الذي يبلغ حد الذهول احيانا ، بروعة الانجازات الحضارية الاميركية ، ولكنه كان يرى بأن كل شيء هناك محكوم بالآلة الهائلة التي تدير عجلة الحياة اليومية الاميركية ، حيث يحسب كل شيء بالساعة والدقيقة ، وبالدولار والسنت ، الامر الذي يفقد تلك الحياة جوهرها

الروحي الذي نعيشه نحن والذي نطمئن إليه في بيوتنا ، وسهراتنا ، وجلساتنا وعلاقاتنا الاجتماعية الحميمة ، وروابطنا العائلية القوية . .

هكذا كان هشام يحدث نفسه كلما رأى ظاهرة من ظواهر الاختلاف — أو التناقض — مابين أسلوب الحياة التي قدر له أن يعيشها في هذه البلاد ، واسلوب الحياة الذي نشأ فيه وعاش عليه ، فكان أكثر ما يهمه ، بعد ان بدأ دوامه في معهد اللغة ، أن يحافظ على « روحه الخاصة » — حسب تعبيره — من ان تطالها المفاهيم الغربية التي لا يقرها ، لاسيما حين كان يرى إلى الاختلاط غير المقبول ما بين الجنسين والاستخفاف بالقيم الاخلاقية كما نفهمها في شرقنا ، واعتبار المرح واللهو والرقص دعامات اساسية للحياة اليومية . .

كان يرد بتهذيب شديد على اية زميلة اميركية تخاطبه ، وكان يلتزم حدود التحفظ تجاه المحاولات التي بذلها زملاؤه الاميركيون لاجتذابه إلى محيطهم فكان يقضي لياليه اما في بيت احد زملائه السعوديين او في غرفته يطالع ويدرس أو يكتب رسائل مطولة إلى زوجته وابيه واخته ، يروي فيها ادق تفاصيل الحياة التي يعيشها يوما بيوم ، ويسجل انطباعاته الخاصة عنها ، ويعرب عن تطلعه المتلهف إلى يوم يعود إلى بلاده ليصطحب زوجته معه ، وتعود لحياته الخاصة اساليبها التي الفها ، وعاش عليها ، وانس بها . .



وقال له زميله توم يوما وهو يتأمله :

— عجيب امرك ياصديقي . . الا تخرج مرة إلى احدى السهرات أو الحفلات التي يقيمها الطلبة او يذهبون إليها ؟ . .

ووضع هشام القلم جانبا وابتسم وهو يجيب :

– ليس لدي وقت كما ترى . . ان عليّ واجبات دراسية عاجلة ، وانا ما التحقت بهذا المعهد إلا لاتقان اللغة ولا استطيع ان اضيع وقتي في اللهو والمرح كما تفعل . .

وضرب الاميركي فخذه بباطن كفه وهو يقول ضاحكا :

– هذه ليست حجة . . ما هو اساس تعلم اللغة ؟ . . انه السماع والمخاطبة اليس كذلك ؟ . . كيف يتم هذا إذا لم تجتمع إلى الآخرين وتحتك بهم ، تخاطبهم ويخاطبونك ؟ . . ان دروس المعهد وحدها لا تكفي . . فهناك كثير من التعابير والاصطلاحات التي لا يمكنك اتقان اللغة بدونها وفي نفس الوقت لا تستطيع أن تتعلمها في المعهد وحده . .

واقترب توم من هشام ولملم الأوراق التي كان هذا مستغرقا معها وهو يقول :

– هيا . . هيا . . دع ما في يدك ولنخرج معا إلى السهرة . . انني مدعو إلى حفلة هامة وانا على ثقة من انك ستسر لها كثيراً . .

وبدا على وجه هشام شيء من التردد ، فقال الشاب الاميركي بسرعة :

– هيا ولا تردد ... وثق انك لن تندم على مرافقتي .. وكفاك انغلاقاً على نفسك ما بين جدران الغرفة وشرفتها . .

وتنهد هشام في استسلام وقال لزميله وهو ينهض من وراء منضدة الدراسة :

– على رسلك . . ولكن اسمع . . هذه المرة فقط . .

فرد عليه توم بسرعة :

ـ لا بأس . . لابأس . .

والواقع ان هشام وجد انه قد يكون من المناسب أن يروح عن نفسه بعض الوقت ، مادام واثقاً من متانة اخلاقه وقوة مقاومته ، كما انه قد بات يخجل من رفضه المتواصل لكل مايعرضه عليه زميله من اقتراحات يراها هشام متنافية مع اخلاقه ، فرأى ان يسايره هذه المرة وان يذهب معه إلى الحفلة لاسيما وان كل كلمة يسمعها وكل كلمة ينطق بها سوف تكون ذات فائدة له في اتقان اللغة الانجليزية وهو الهدف الذي من اجله جاء إلى هذه البلاد ، ومن اجله ـ أيضاً ـ ترك زوجته وشريكة حياته في المملكة . .

وخلال دقائق كان الشابان جاهزين للانطلاق ، وبعد دقائق اخرى كانا يلجان باب القاعة الكبيرة التي اقيمت الحفلة فيها حيث رأى هشام ، ومن النظرة الأولى ، انه قد ارتكب خطأ كبيراً بقدومه إلى مثل هذا المكان فقد احتشد في القاعة عشرات الشباب ، من الجنسين ، يمرحون ويرقصون ، ويتبادلون النكات والمداعبات في جو صاخب من المرح . .

واستأذن توم من هشام وهو يلوح بيده لاحدى الفتيات ، وما لبث أن لحق بها ، بينما وقف هشام وحيداً ينظر بكثير من النفور إلى ما تراه عيناه من مظاهر اللهو والمرح . .

وفي اللحظة التي قرر فيها أن ينسحب من هذا المكان ليعود إلى غرفته ، لمحه عدد من زملائه وزميلاته في الفصل ، فصاحوا جميعاً صيحة الدهشة والفرح والتفوا حوله في حلقة وقد تماسكت أيديهم بأيدي بعض وراحوا يدورون حوله وهم يغنون بأصوات عالية . . .

وجاراهم هشام في ضحكهم محاولا في الوقت نفسه أن يفلت من حصارهم المرح هذا ، ولكنه لم يتمكن ، إذ كانت الحلقة الدائرة حوله تضيق شيئاً فشيئاً ، والصخب يتصاعد ، ثم مالبث بعض الشباب أن حملوه على اكتافهم وهم يغنون وراح هشام يدير ناظريه في المكان باحثا عن توم الذي كان سبب هذه الورطة المزعجة ولكنه لم يره .

وأخيراً ، انزله الشباب وهم يصفقون ويضحكون ، وهو يجاريهم في ذلك قدر امكانه ، إذ لم يشأ أن يبدو أمامهم « شاذا » ومختلفا عنهم ، وقال لنفسه انه كان من المفروض فيه ان يقي نفسه مغبة هذا الموقف المحرج ، بالبقاء بعيداً عن مثل هذه المجتمعات والحفلات . . .

وانفض عنه زملاؤه بعد قليل ، وانهمكوا في رقصة جماعية تصاعدت معها الموسيقى صاخبة مجنونة ، بشكل كاد يصيب هشام بالصمم ، فانتحى ركنا من القاعة ، ينظر منه بنفور إلى ما يدور امامه ، ويتحين الفرصة للانسحاب من غير أن يلحظه احد . . .

واقتربت منه احدى الفتيات الاميركيات وهي تلهث لكثرة مارقصت ، وقالت له وهي تجذبه من يده :

– تعال بنا نرقص . .

ولكن هشام سحب يده وقال :

– شكراً . . . لا أريد . .

ودهشت الفتاة ، وحدقت فيه تحديقاً شديداً وهي تقول :

– هذه أول مرة يرفض فيها شاب مراقصتي . . فهل لك أن تفسر لي ذلك ؟ . .



ورد هشام ببساطة وهو يضع يديه في جيبي بنطلونه :

– هكذا . .

وكأنما اجتاح الفتاة غضب لهذا الجواب فصاحت به مستنكرة :

– هيه . . الا تعلم ان من المفروض فيك ان تطلب مني مراقصتك بدلا من أن اعرض انا عليك ذلك ؟

واعتصم هشام بالصمت . .

وعادت الفتاة تقول في غيظ :

– تدري ؟ لو انك طلبت مني أن اراقصك لرفضت . .

فابتسم هشام وهو يجيبها :

– عظيم . . نحن متفقان إذن . . فلو عرضت عليك مراقصتي لرفضت وانا كما قلت لك لا أريد مراقصتك ولا مراقصة سواك . .

واستدرك هشام وقد أحس بأنه كان قاسياً في جوابه :

– أرجو الا تفهمي المسألة على انني اتعمد اهانتك ، وانما انا لم أتعود على الرقص ابداً . . وهذه ايامي الأولى هنا . .

وتوقع هشام ان تنصرف الفتاة بعد هذا الجواب ، فيجد فرصة للانسلال من المكان ، ولكن الفتاة – كأية انثى – وجدت في هذه السلبية ظاهرة اثارت اهتمامها ، فأمسكت ذراعه بيديها الاثنتين وقالت له باهتمام :

– هل انت حزين ؟ . .

ـ لا يا آنستي . . لست حزيناً . . ولست سعيداً . . بصراحة انا لا أعرف الرقص . . هذا ما عنيته عندما قلت لك انني لم أتعود على الرقص . .

وأشرق وجه الفتاة فجأة ، وصاحت بزملائها وزميلاتها وكأنها اكتشفت اكتشافا مثيراً :

ـ هيه . . تعالوا وانظروا . . هذا شاب لا يعرف الرقص . .

وارتفع صخب الشباب والتفوا حول هشام ضاحكين ، وجاراهم هشام في ضحكهم بصورة جعلت الآخرين يعتقدون ان قوله عن عدم اجادته للرقص ليس سوى ذريعة للتخلص من مراقصة الفتاة . .

وسرّ ايما سرور عندما صاحت احدى الفتيات قائلة لهشام :

ـ انني اعذرك يا صديقي . . فلو كنت شابا لادعيت الكساح كيلا اضطر لمراقصتها . .

وضج الشباب بالضحك ، وعادوا إلى مرحهم وصخبهم ، وجذبوا الفتاة إلى حلقتهم الراقصة فانتهز هشام الفرصة ، وانسحب بخفة من غير ان يشعر به أحد . .



وفي شرفة غرفته ، جلس يحتسى الشاي ، ويحدق في الظلام متتبعاً بانظاره أنوار السيارات التي كانت تمر في الطريق البعيد ، وفي رأسه تصطخب انفعالات شتى حاول ان يجد لها حلا ومستقراً . .

أخذ يستعرض في ذهنه مادار في حفلة الليلة . . وحار بين ان يلوم نفسه على حضوره . . وبين أن يعلل الامر بانه نوع من النشاط الإجتماعي الذي يعتبر شيئاً عاديا ، بل اكثر من عادي ، في مثل هذا المجتمع . .

وعاد بذهنه إلى أيام جامعة الرياض ، وتذكر الحفلات المرحة التي كان الطلبة يقيمونها ، والحفلة التي اقامها زملاؤه يوم اعلان نتائج الامتحان الذي تخرج على اثره من كلية الهندسة ، ولكن ـ حدث هشام نفسه ـ شتان بين هذه الحفلة وتلك الحفلة التي فرّ منها قبل قليل ، ففي الكلية كانت هناك حدود أخلاقية للمرح ، وكانت حفلاتها بريئة كل البراءة . . الشاي والقهوة هما المشروبان الوحيدان فيها ، والحضور جميعاً من الطلبة الشباب . .

أما هنا ـ وقلب هشام شفته نفوراً ـ فالامر مختلف تماما ، ومتناف كليا مع أخلاقه وتربيته . . .

وانتبه هشام من خواطره على صوت باب الغرفة وهو يفتح ؛ وزميله توم يدخل وهو يصفر في مرح ، ولكنه مالبث أن توقف عن الصفير حين تبين أن هشام ليس في سريره ، فمضى إلى الشرفة في خطوات سريعة ، ثم ما لبث أن تنهد بارتياح عندما وجده في جلسته تلك . .

ـ هاي . . ألا تزال ساهراً لوحدك كعادتك ؟ . .

قال الشاب الاميركي ذلك ، وهو يسحب كرسيا ليجلس عليه مواجهاً لهشام . .

ورد هشام بهدوء :

ـ كما ترى . . .

ـ هل يمكن ان تفسر لي مسلكك هذه الليلة ؟ . . لقد رأيت ما جرى من بعيد . . ولكنني امتنعت عن التدخل . . كيف ترفض مراقصة تلك الفتاة التي يتزاحم عليها نصف شباب الجامعة على الاقل ؟

ولم يجب هشام . . .

ـ اسمع ياصديقي . . أعترف لك بأنني قد يئست تماماً من امكانية فهم تصرفاتك . .

وأجاب هشام بصوت هادىء :

ـ وانت يا صديقي اسمعني . . لقد قضينا معا ، انت وانا ، في هذه الغرفة بضعة أسابيع ، وكنت من جهتي حريصاً على ان اتحاشى التعرض لك بشيء ، فأنت حر في تصرفاتك ، ولكنني اريدك ان تفهم انني ، أنا أيضاً ، حر في تصرفاتي . . . هل هذا واضح ؟

ـ انني أحاول ان افتح لك أبواب المجتمع . . . واعرفك على نواح لاتعرفها من الحياة الاميركية . .

ـ اشكرك على هذا الاهتمام . . وأظنك قد لاحظت انني لا أرغب في ولوج هذه الابواب . .

ـ ولكن . .

ـ أرجوك . . دعنا من « لكن » هذه . . لقد حاولت طوال تلك المدة أن اوضح لك الفوارق بين مجتمعنا ومجتمعكم . . بين مفاهيمنا ومفاهيمكم منذ أن قدمت لي تلك الكأس . . واعتذرت عن عدم قبولها . .

كان هشام يتحدث بهدوء ، وقد حرص على أن تخلو لهجته من أية حدة أو خشونة تمس شعور زميله ، ولكنه كان يرى أن من الضروري أن يقول ما يقول لكي توضع الامور في مواضعها الصحيحة ، فتنتظم علاقاته مع زملائه وزميلاته ضمن حدود مفهومة للطرفين .

أما توم ، فقد كان يصغي صامتا ، والظلام يحجب تعابير وجهه التي

كانت تعبر عن عدم اقتناعه بما يقوله هذا الزميل العربي ، والذي كان يتكلم على مايبدو له ، عن قناعة عميقة ، وان هذا – على أية حال – ليس سوى بعض الامور « غير الطبيعية » بالنسبة له كأميركي . .

وتكلم الشاب اخيراً ، فقال بلهجة دلت على انه كان يبتسم :

– لقد قلتها أنت ياصديقي . . ان لكل منا مفهوما مختلفاً . . وأرجو الا يؤثر ذلك على صداقتنا وزمالتنا . . وثق تماماً بأنني لن أدعوك إلى شرب كأس ويسكي ثانية . . فالويسكي غالي الثمن على أية حال . .

فرد هشام بسرعة :

– بكل تأكيد اشاركك الرغبة في الا يؤثر ذلك على صداقتنا . . أما عن الويسكي فانه غال عندكم وليس له أية قيمة عندنا . .

ونهض توم داخلا إلى الغرفة وهو يتمتم بعبارة « كيبلنغ » . . الشهيرة :

– الشرق شرق . . والغرب غرب . . .

فأكمل هشام ضاحكا :

– ولن يلتقيا . . .

وارتفعت قهقهة توم وهو يقول :

– إذن فقد سمعتني ؟ ومع هذا فها نحن ، أنا وأنت ، قد التقينا . .

٥٤

عندما دخل هشام قاعة « الكافيتريا » الكبيرة التي اعتاد التردد عليها ، اتجهت إليه – في الحال – انظار معظم الطلبة والطالبات ممن كانوا يزحمون المكان وقد ارتفعت هنا وهناك اصوات الضحك والحديث ، واصوات الملاعق والاطباق . .

ودار بعينيه يبحث عن مائدة خالية فلم يجد . .

وتردد بعض الوقت ، وهم بأن ينكص على عقبيه ، لولا انه خشي من أن هذه الحركة لن تمر دون تعليقات ساخرة ، أو ضاحكة على الاقل ، لاسيما وانه رأى عدداً من الشباب والشابات الذين كانوا بالامس في تلك الحفلة التي جرى فيها ما جرى . .

ولمح مائدة جلست إليها فتاة الامس ، تلك التي وصفها توم بأن نصف طلبة الجامعة يتمنون مراقصتها والتقت عيناه بعينيها فابتسمت له ، ورد لها ابتسامتها وهو يشيح بوجهه باحثا عن مكان آخر ، فلقد كانت هذه الفتاة هي السبب في الاحراج الذي تعرض له بالامس ، وفي توجيه الانظار إليه كانسان يختلف عن الآخرين . .

واستقر بصره على مائدة منعزلة جلست إليها بضع فتيات من احدى دول امريكا اللاتينية فاتجه اليهن ، بعد تردد يسير ، فهو قد أراد أن يوضح للآخرين انه انسان « طبيعي » . . وان تصرفه في تحاشي الانغماس في ذلك الجو المحموم هو امر طبيعي كذلك ، فكان ان اختار هذه الحركة ، واقترب من مائدة الفتيات وقال :

– هل لي أن اجلس ؟ . .

– اوه . . بالتأكيد . . مرحباً بك . .

رددت الفتيات وهن ينظرن إليه بشيء من الدهشة ، واختلس هشام نظرة إلى حيث تجلس تلك الفتاة وابتسم حين تصور الحيرة التي ستنتاب الفتاة التي لفت انتباهها فاعرض عنها بتلك الطريقة ، وها هو الآن يجلس مع فتيات أقل منها جمالا . .

والواقع ان هشام لم يصادف مثل هذا الموقف في حياته ابداً ، ولا خطر له انه سيجد في نفسه الجرأة على أن يتقدم بتلك البساطة إلى مائدة الفتيات « اللاتينيات » بينما كان بامكانه ان يجلس إلى احدى الموائد التي جلس إليها بعض الزملاء من الشباب . .

كان تحديا ساذجاً . . وبسيطا ، ولكنه هزه هزا حتى الاعماق ، وكان اختياره لمائدة الفتيات « اللاتينيات » يعود إلى ارتياحه إلى هذا النوع من الفتيات بوجه عام ، فهن اضعف منه لغة ، واقل خفة ورعونة من الفتيات الاميركيات ، فاذا كان قد وجد نفسه مجبراً على التجاوب مع هذا الجو ، فقد اختار الأهون ، والمهم – بالنسبة إليه – انه اثبت للآخرين انه انسان طبيعي مثلهم ، وازال من اذهان من حضروا حفلة الامس ما حاولت تلك الفتاة الاميركية ان تصفه به من الغرابة والاختلاف عن الآخرين . .

ومضى يبادل زميلاته على المائدة الحديث ، وهو يلتهم طعامه الذي حمله بنفسه ، وبدأ شعور من الهدوء والاطمئنان يتسلل إلى قلبه بعد أن هزته المفاجأة بادىء الامر ، واصبح اكثر قدرة على تبادل الاحاديث مع فتيات غريبات عنه .

وإذ انتهى من طعامه ، نهض مستأذنا من زميلاته بلطف ، واتجه نحو باب القاعة في طريقه إلى الخروج ، دون ان يلقي نظرة واحدة على ما حوله . .

وهكذا لم يرتلك الفتاة الاميركية وهي تمسح شفتيها بالفوطة على عجل ، منهية بذلك طعامها ، ثم تحمل حقيبة يدها بسرعة ، وتتجه إلى الباب محاولة ان تشق لنفسها طريقاً وسط الزحام . .

٥٥

لشدّ ما شعر هشام بارتياح ، حين دخل غرفته ووجدها خالية ، إذ لم يكن زميله الاميركي قد جاء ، فقد كان يتوق إلى الاختلاء بنفسه ، ومراجعة أموره وتحديد مكانه ، كما كان يشعر بالتعب ، وبالحاجة الشديدة إلى الراحة .

وحين بدأ يخلع سترته ، سمع طرقا على الباب ، فلم يكترث اذ حسب ان توم قد عاد ، وتوقع ان يفتح الباب بعد ذلك بالطريقة السريعة التي اعتاد زميله ان يدخل بها ، وان يندفع زميله الاميركي إلى الداخل بخفة فائقة . .

ولكن الباب ظل مغلقاً ، وتكرر الطرق عايه . .

وفتح الباب ، وهوخالي الذهن تماماً عمن يكون الطارق ، وإذا به يصعق... كانت الفتاة الاميركية عند الباب ، على شفتيها ابتسامة مرتبكة ، وفي عينيها استعطاف خفي . . . وفي وقفتها خجل . . كانت تختلف تماماً عما كانت عليه ليلة الامس من مرح وصخب وجرأة . .

ووقف هشام ينظر إليها مذهولا ، وعيناها ترمقانه بتلك النظرة الغريبة ، ثم ازدادت ابتسامتها المرتبكة اتساعاً وهي تقول برقة :

ـ هل أستطيع أن ادخل ؟

وارتبك هشام ، ولم يدر ما يقول ، وتلفت حوله وتمنى لو أن زميله موجود ... كان أشبه بطريدة أطبق الصياد عليها شباكه ...

ورد بارتباك :

– لست أدري . . لا يوجد احد في الغرفة . . يبدو أن زميلي توم لم يعد بعد . . و . .

فقالت بنفس اللهجة الرقيقة :

– هذا لايهم . . انني اريد أن اتحدث معك . . هذا هو كل شيء . .

وتنهد هشام باستسلام ، وأرخى يده التي كانت تمسك بالباب ، وتنحى وهو يشير لها بالدخول قائلاً :

– أهلاً وسهلاً . .

وخطرت الفتاة بمشيتها الرشيقة ، وخطت إلى داخل الغرفة ، وراحت تجيل بصرها فيها ثم قالت باسمة وهي تجلس :

– يبدو لي أن غرفكم يا أصحاب المستويات المتقدمة افضل من غرفنا . . ما هي الشهادة التي تدرس من أجلها ؟ الماجستير على ما علمت . . هه ؟

ولم يجب هشام . . . فقد كانت الدهشة تعقل لسانه وتمنعه من الاجابة ، ولاحظت الفتاة انه لايزال واقفاً عند الباب فقالت له مداعبة :

– لم تقف عند الباب ؟ . . هل تنوي الهرب مني ؟

وفتح هشام الباب بحيث يستطيع أن يرى اي مار مافي الغرفة ، ثم اتجه إليها وقد عادت إليه رغبته في تمالك نفسه والسيطرة على اعصابه في مثل هذه المواقف التي كانت تثقل على روحه وقلبه حتى ليكاد يشعر بالاختناق . .

وتساءلت الفتاة بدهشة :

– لم فتحت الباب هكذا ؟ . . .

ـ هذا أفضل ؟ . .

ـ آه . .

واطرقت الفتاة ، ومضت تعبث بحقيبة يدها في شيء من العصبية، وكأنها تبحث عن جملة تبدأ بها الحديث . .

وجلس هشام تجاهها ، عاقداً ذراعيه على صدره ، منتظراً أن يسمع منها سبب قدومها . .

وتكلمت الفتاة أخيراً ، وقالت في خجل :

ـ لقد جئت . . لقد جئت . . لكي أعتذر لك عن الاحراج الذي سببته لك أمس . .

ـ آه . . هذا لايهم . . وانا بدوري اعتذر لك عما صدر مني . .

وأطرقت الفتاة مرة أخرى ، ثم قالت وعيناها تحدقان في الأرض متحاشية ان تلتقيا بعينيه :

ـ هل تعلم . . انني كتبت إلى أهلي عنك ؟ . .

ـ أنا ؟ . . .

هتف هشام بدهشة شديدة ، فقد كانت تلك الجملة آخر ما يمكن أن يخطر على باله من معلومات يمكن أن يسمعها من هذه الزائرة التي فرضت نفسها عليه فرضا . .

ـ نعم انت . .

ـ وما هي المناسبة ؟

ورفعت عينيها إليه ، فأحس برجفة تجتاح كيانه ، فلقد اختفت من نظراتها تلك الجرأة التي كانت تطل منها عادة ، وبدت له نظرات اخرى . . حزينة . . قلقة . . مستعطفة . . كروح هائمة تبحث عن مستقر . .

وقالت وقد عادت يداها تعبثان بحقيبتها في عصبية :

ـ لست ادري كيف اشرح لك . . انني ، كما ترى ، طالبة في بداية المرحلة الجامعية . . أهلي يعيشون في بلدة تبعد حوالي مائتي ميل من هنا . . لقد استرعيت انتباهي منذ أول مرة رأيتك فيها . . كان ذلك مرة في الكافيتيريا ... لقد ادهشني فيك انعزالك عن الآخرين . . واعتقدت انك تشكو الوحدة مثلي . .

ـ مثلك ؟ . . انك لا تبدين لي وحيدة ابداً . . فأنت محاطة دائماً بالاصدقاء . . .

ـ آه ياسيد هشام . . ليس اقسى من شعور الوحدة وانت جالس وسط ألف شخص . . الوحدة شعور ياسيد هشام وليست واقعاً زمنياً أو مكانيا . .

ـ وتعرفين اسمي ايضاً ؟ . .

ـ انني اعرف كل شيء عنك . . .

ـ غريب . . لماذا ؟ ...

ـ لست ادري . . ربما كان تميزك عن زملائك هو السبب . . المهم انك استرعيت انتباهي منذ مدة . . وكنت اراقبك من بعيد . . كان الاسى الدفين الذي يبدو على وجهك يؤلمني . . لانني اعرف معناه . . أنت وحيد مثلي . . لست أدري كيف اشرح لك . . ولكن ما حدث ليلة امس هزني وآلمني . .

لقد ازددت رغبة في التعرف عليك عندما رفضت مراقصتي . . رأيت فيك صورة لما في نفسي . . ولكنك كنت أكثر صدقا مني ، كان رفضك لمراقصتي ظاهرة اكدت ماظننته فيك . . وهو انك مختلف عن الآخرين . . فازددت رغبة في التعرف إليك . . والحديث معك . . ولكنك صددتني . . هل تستطيع أن تتخيل شعور انسان يتظاهر بالمرح وهو دامي القلب . .

ـ عفوا... لحظة... لحظة من فضلك . . انك تدهشينني . . فأنا لم أرك قبل حفلة الامس ويبدو لي انك تعتبرين انني قد اسأت إليك بشكل ما . . مع انني لاأعرف حتى اسمك . . .

ـ اسمي باتريشيا . . ويدعونني بات . .

ـ اسمعي يا آنسة بات . . انني لم أفهم شيئاً مما تقولين حتى الآن . .

وارتجفت شفتاها في تأثر ، تألم له هشام ؛ ولكنه لم يكن يدري مايفعل، بل انه لا يدري ، حتى الآن ، شيئاً عن الغاية التي جاءت الفتاة من أجلها . .

واستطرد يقول برقة وعطف :

ـ أرجو ان تسامحيني على سؤالي . . هل لي . . هل لي أن اعرف ماذا تريدين مني ؟ وماذا استطيع أن أفعل من أجلك ؟ . . .

ـ لا أريد منك شيئاً ، اريد فقط ان تهتم بي ولو قليلا . .

ـ وهل لي ان اسأل لم اخترتني من بين آلاف الطلبة الذين تزدحم بهم الجامعة ؟ . . مع انني انسان عادي . . ومن الواضح انك تأكدت من انني لا أبحث عن المغامرات كما يفعل بعض الآخرين . .

ـ لماذا اخترتك من بين آلاف الطلبة ؟ هذا سؤال لايطرح ياسيد هشام . .

لانه لاجواب له . . . لقد اخترتك وكفى . . وأنا اعرف انك لا تبحث عن المغامرات كما تقول . . وربما كان هذا هو سبب اهتمامي بك . . .

ـ انني رجل متزوج . .

ـ أعرف ذلك . . .

ـ وشديد الاخلاص لزوجتي . .

ـ هذا خلق طيب . .

ـ ولي مهمة معينة جئت إلى هذه البلاد من أجلها . . .

ـ اعرف ذلك . . واتوقع ان اساعدك فيها . . على الأقل باخراجك من الوحدة التي انت فيها . .

وابتسم هشام رغما عنه وقال لها :

ـ يبدو لي انك تعرفين كل شيء عني . . .

ـ اجل ... لقد استدرجت زميلك توم ... وهو كما تعلم ثرثار كبير ...

ـ نعود إذن إلى سؤالي الأول . . مادمت تعرفين كل شيء عني ، فماذا استطيع أن افعل من أجلك ؟ ...

ـ لا شيء . . فقط اريدك ان تمنحني شيئاً من وقت فراغك . . والاتصدني وتعرض عني كما فعلت امس واليوم ...

ـ ثم ؟ . . .

ـ لاشيء . . .

وسكت هشام وراح ينظر إليها بدهشة ولكنه قد بدأ يفهم ، لقد صدقت الفتاة فالوحدة شعور ينتاب القلب ، وليس اتعس من هذا الشعور ولو كان الانسان وسط ألف شخص . . . وهذه الفتاة ـ على مايبدو ـ تعيش هذا

الشعور . . . انها وحيدة . . ومظاهر المرح الزائفة التي تلف حياتها كجامعية اميركية تثقل عليها . . يقينا انها قد سئمت هذه المظاهر . . سئمت ان تراقص الشباب وان تحضر الحفلات وان تشارك في النشاطات الإجتماعية . . . ان قلبها يتجمد تحت ركام من جليد الوحدة . . انها بحاجة إلى عاطفة صادقة . . إلى عطف اصيل . . . إلى اهتمام يتعدى اهتمام من يريد ان يقضي في صحبتها وقتاً يستمتع فيه بجمالها وانوثتها ومرحها . . آه ما أغرب هذه الحياة . . .

ووجد هشام أن من الضروري أن يقول شيئاً في هذا الموقف المؤلم ، فالفتاة في ظمأ شديد إلى كلمة عطف . . إلى لفتة حنان . فكل ما حولها من عواطف زائف . . زائف . . .

ـ اسمعي يا آنسه بات . . .

ـ نادني باسمي مجرداً . .

ـ لابأس . . اسمعي يا . . بات . . أود اولا ان اؤكد لك انني اقدر مشاعرك كل التقدير . . وانني اعرف ماتعنين بكلمة الوحدة . . انها الوحشة . . انها الفراغ . . . انها الظلام . . انها . . لست ادري ما أضيف . . ولكنني ، بالمقابل ، لا استطيع أن أفعل من أجلك شيئاً . . فأنا احب دائماً ان اعرف نهاية الطريق الذي اسير فيه . . ولعل توم الثرثار قد حدثك عن طبيعتي . . . والتزاماتي . . . والبيئة التي جئت منها . . .

وارتسم نوع اليم من اليأس على وجه الفتاة وقالت بصوت مرتجف :

ـ انني لا أريد منك شيئاً ، لقد قلت لك ذلك . كل ما أريده هو . . هو أن اجد عندك ما افتقدته عند الآخرين من حنان . . انك تعرف مجتمعنا . . مثل هذه الامور لاتهم احدا . . اننا نضحك . . . ونرقص . . . ونلعب . . .

ونعمل . . . ولكننا – صدقني – نحس بفراغ هائل في داخلنا.. اريد أن اصبح مثلك . . . مكتفية بذاتي . . . قادرة على أن أتصرف . . . أن أقول لا . . . وأن أقول نعم . . وقتما اريد . . قد يبدو لك هذا طلبا سخيفا . . أو غريباً . . ولكنني لا أريد سواه . . . أريد أن نكون أصدقاء فحسب . .

ووجد هشام أن الموقف قد طال أكثر مما ينبغي ، ولكنه كان قد عرف عمق الفراغ الذي تعيش الفتاة فيه ، مع انها تعتبر في نظر الجميع من أكثر الطالبات مرحا . .

وابتسم ، ولاحظت الفتاة ابتسامته ، فأشرق وجهها ، وهبت فاتحة ذراعيها وكأنما تريد أن تطوق هشام بهما ، ولكنه ظل جامدا ، فتوقفت عما كانت فيه وشبكت يديها وهي تقول بصوت خافت :

– شكراً لك . . شكراً لك . . أنا معتزة بصداقتك . .

وأردف هشام :

– قلت لي انك كتبت إلى اهلك عني . .

– أجل . . .

– ماذا قلت لهم ؟ هل كتبت أن في الجامعة إنسانا لا يرقص ولا يشرب ولا يحضر حفلاتكم ؟ . . .

– كيف عرفت ؟ هذا هو فعلا ما كتبت . . انني اراسل اختي ، التي تصغرني ، بانتظام وأصف لها كل ما يجري في الجامعة وكأنه مذكرات يومية ، ولاحظت أكثر من مرة انني آتي على ذكرك دون انتباه مني . .

وصمت الاثنان . .

وكان هشام حائراً ، لا يدري ماذا يفعل ، وكان يخشى أن يأتي توم ، وان يرى الفتاة في الغرفة وان يعلق بعد ذلك ما شاء ان يعلق بكلماته اللاذعة . . .

ورأى هشام ان يضع حدا للموقف فنهض وقال لها :

– هل تقبلين دعوتي إلى فنجان من القهوة ؟

– بكل سرور . . .

ونهضت الفتاة ، وقد بدا على وجهها نوع من الارتياح والإشراق ، يختلفان عن ذلك الأسى الذي كان يرتسم عليه عند قدومها ، وقبل أن يتحرك الإثنان للذهاب ، دخل توم فجأة بخطواته المتعجلة ، ويبدو أن وجود الفتاة قد ادهشه فجمد في مكانه وراح ينقل بصره بينها وبين هشام ، ثم مالبث أن أطلق صفرة طويلة وقال مخاطبا زميله :

– تهانئي ياصديقي . . أما قلت لك أمس انك لن تندم على الذهاب إلى الحفلة ؟ . . .

واعقب جملته بقهقهة طويلة ذات معنى ، فلم يجبه هشام ، بل جذب الفتاة من ذراعها ، وغادرا الغرفة . .

ووقف توم ينظر إلى الباب صامتا ثم ما لبث ان قال لنفسه بصوت مسموع :

– هذا الشاب سيصيبني بالجنون لتصرفاته الغريبة . . امس رفض مراقصتها والحديث معها . . واليوم يستقبلها في الغرفة . . . إيه . . . لولا ان الباب كان مفتوحا لحسبت أنه يسخر مني ، ويكذب علي . .

٥٦

لم يحاول هشام ان يوضح لزميله حقيقة الأمر . رغم ماكان يقرأه في عينيه من فضول جامح يريد الشاب الأميركي معه ان يعرف سرّما اعتقد انه تحول في سلوك هشام ، ورغم ما كان يقرأ ، أيضاً ، في عيون كثير من الزملاء والزميلات ، فقد بدا لهم هشام في صورة تختلف عن تلك التي ألفوها منه ، بعد العلاقة الجديدة التي رأوها بينه وبين باتريشيا . . .

كانت الفتاة تطمئن إلى هشام اطمئنانا غريباً ، وتصغي إليه بكل جوارحها وهو يجيب على اسئلتها التي ارادت بها ان تعرف المزيد من المعلومات عن زميلها القادم من تلك البلاد التي ارتبطت في ذهنها ــ كأية أميركية عادية ــ بتهاويل مغامرات الصحارى ، والفرسان و . . . البترول .

وكان هشام يضحك كلما سألته سؤالا يدل على جهلها بالحقائق ، وعلى تلك الاعتقادات الثابتة التي بثتها أجهزة الإعلام ، بسطحية مذهلة ، وكان يطرب لشهقات الذهول التي تند عنها عندما يحدثها عن بلاده ، وعن أخذها بأحدث وسائل التطور والتقدم ، محاولا ان يصحح معلوماتها ، وأن يعطيها صورة حقيقية تختلف كل الاختلاف عما كانت تعتقده . . . .

كان هشام ، في علاقته بباتريشيا ، يعتبر انه يؤدي عملا إنسانيا ، لاأكثر ولا أقل ، فهو قد حافظ على حدود معينة في هذه العلاقة ، لم يسمح لنفسه ــ ولا للفتاة ــ بتجاوزها قيد شعرة . . .

ومع ان ضميره كان يؤنبه احيانا ، ويعتبر ان مجرد وجوده مع تلك الفتاة هو انتقاص بشكل من الأشكال ، من مكانة زوجته الحبيبة ، إلا أن

التزامه حدود التحفظ ومحاسبته لنفسه على كل تصرف كان يهدىء من مخاوفه من أن يكون قد ارتكب خطأ ما .

ولاحظ ، بكثير من السرور ، ان معاملة زملائه وزميلاته قد تغيرت ، وان نظرتهم إليه قد تغيرت كذلك ، ولم يجد من هو أقرب إليه من توم كي يحدثه عن احاسيسه تلك ، ولكن توم ابتسم وقال له مفسرا :

ـ الناس هم الناس ، وهم لم يتغيروا كما تعتقد . . . ونظرتهم إليك هي نفسها كذلك . . ولا يهمهم ما تفعل مادام ذلك لايطالهم . . انهم يكتفون عادة بالضحك ، أو التصفيق ، أمام مايلفت انتباههم ، وعليك ، أنت ، أن تعرف هل ذلك الضحك ، أو التصفيق ، لك . . أم عليك .

ـ هل لك أن تزيدني شرحا ؟ لم أفهم تماما ماذا تقصد . . .

ـ اعني أن ما احسست به ، كما تقول ، هو مشاعر داخلية منك . . . لا أكثر ولا أقل . . ونصيحتي لك أن تأخذ الأمور ببساطة . . وبصورة طبيعية . . ولا تحاول تفسير تصرفاتنا على ضوء طبيعتك . . . وبيئتك . . وتقاليدك . .

وأطرق هشام على أثرما قاله له زميله ، وفكر فيه قليلا ، فوجده معقولا وطبيعيا ، وان هذا هو المبدأ الذي يقوم عليه هذا المجتمع الغريب عنه . . واستأنف توم كلامه قائلا بتردد :

ـ بالمناسبة . . أود أن أقول لك شيئاً . . بالنسبة لفتاتك . .

ـ فتاتي ؟

ـ اعني باتريشيا ؟

وكاد هشام ان يندفع شارحا له نوعيه علاقته بباتريشيا ، ولكنه تمالك نفسه وسأله بهدوء :

ـ ماذا عنها ؟

ـ انها فتاة غريبة الاطوار . . متقلبة المزاج . . ويبدو لي انها تعاني من مرض نفساني . . وعليك ان تنتبه لذلك . . .

وابتسم هشام وهو يقول له بلهجة مداعبة :

ـ لا تخش علي منها . . . فأنا أعرف حدود علاقتي بها . . وما عليك إلا أن تبتعد انت عنها . . إنها لاتزيد بالنسبة لي عن ان تكون زميلة كأي زميل آخر من الشباب . .

وفغر توم عينيه في دهشة وهو يقول له :

ـ لا . لا ياصديقي . . اعتقد انك مخطىء . . ولا يمكن أن تستمر علاقتكما على هذا النحو . . .

ـ عجيب امرك يا توم . . هل تريد ان تحدد لنا نوعية العلاقة بيننا ؟ . . .

ـ انا لا افرض عليكما شيئاً . . وانما اتحدث عن الواقع . . هذا هو كل شيء . .

ـ انا الذي حددت نوع العلاقة . . وانا المسئول عن سيرها بالصورة التي اريدها . . . بحيث لا تخرج عن الاطار الذي اوضحته لك . . .

ـ لماذا إذن اخترت باتريشيا ؟ ما كانت بك حاجة إلى فتاة مثلها ، كان بامكانك ان تختار أي زميل آخر . . أو ان تكتفي بصداقتنا انا وأنت . .

ـ انني لم أخترها . . هي التي . .

وقاطعه توم :

ـ لاتتوقع مني ان اصدق الرواية التي ذكرتها لي عن حضورها إلى الغرفة . . .

ـ انت حر في أن تصدق اولا تصدق . .

ـ ماعلينا . . المهم انني اوضحت لك رأيي في علاقتك بباتريشيا . وأؤكد لك ، بالمناسبة ، ان ما ذكرته لك عن مرضها النفسي صحيح .. وانا لا أمزح...

٥٧

ومضت أشهر ، كان هشام خلالها يقطع مرحلة التمكن من اللغة الإنجليزية بنجاح ، وكان في نفس الوقت ، يمارس حياته العامة مع زملائه بنجاح مماثل .

كان الزمن عاملاً مهما في تحوله نحو التكيف مع تلك الحياة الغريبة عنه شيئاً فشيئاً دون أن يتخلى عن مبادئه وأخلاقه ، وظل يشعر في داخله بنفور عميق يخفيه تحت ستار المجاملات والضحكات . .

وكان يحرص على أن تظل علاقته بباتريشيا ضمن الحدود التي رسمها لها منذ ذلك اليوم الذي صارحته فيه بوحدتها وتعاستها وتوقها إلى المحبة والعطف والحنان . . ولم تكن هذه المهمة ، بالنسبة له ، سهلة كما تخيلها في بادىء الأمر بل كان يجد صعوبة حاول تذليلها بقوة إرادته ، بحيث كان يقابل الفتاة عندما ترغب في ذلك ويجالسها في الحديقة ، والكافتيريا ، كما كان يصحبها أحيانا إلى بعض الحفلات التي يقيمها الطلبة ، بل لقد جاراها عندما اصرت على تعليمه الرقص ، قائلة له إنه نوع من الرياضة . .

ولم يكن هشام غافلا عما يمكن ان تتطور إليه علاقته مع الفتاة الأميركية إذا ما سها عن نتائج ذلك ، فكان يختلي بنفسه ، ويحاول تحليل عواطفه وتصرفاته ، ليجد أن نظرته لباتريشيا لم تتغير كثيراً عن ذي قبل ، وانه مازال – كما كان – ينظر إليها نظرته إلى زميلة ليس غير ، ولكنه لم ينكر – بينه وبين نفسه – انه اصبح يرتاح لمرافقتها ، وتناسى كليا جميع ماقاله له توم عن الفتاة ، وغرابة اطوارها ، ومرضها النفسي . .

٥٨

وذات يوم حدث مالم يكن يتوقعه . .

كان هشام عائداً من الجامعة إلى مباني السكن ، مخترقا الحدائق الواسعة التي تحيط بالمكان . . وفجأة تسمر في مكانه مذهولا . .

لقد رأى باتريشيا تعانق شابا أسمر اللون ، يبدو من سحنته انه عربي ، وتلف ذراعها حول كتفه . . .

ورآه الاثنان . .

وأشاح الشاب بوجهه ، اما باتريشيا فقد احمر وجهها واطرقت في خجل ، فقد كانت تعلم وقع ذلك في نفس هشام ، وفتحت فمها تحاول ان توضح له ما ظنت انه يريده من إيضاح ، ولكن هشام اكتفى بالقول :

– تهانئي الخالصة . . يا آنسة باتريشيا . .

واستدار مبتعداً في هدوء . . بعد أن زايله ذلك الشعور العميق بالعطف تجاه تلك الفتاة ، فلقد وجدت – على ما يبدو – من يؤنس وحشتها وفق مقاييسها واعتباراتها فانتهت ، بذلك مهمته ، وعادت إليه حريته الكاملة من جديد . .

وانتبه إلى وقع خطوات الفتاة وهي تقترب منه لاهثة ، محاولة أن تلحق بخطواته الواسعة . . وتناديه بصوت متقطع ، فتوقف ونظر إليها متسائلا في صمت . .

وقالت الفتاة بتلعثم :

ـ أنا . . أنا آسفة . . واريد . . أريد ان اشرح لك . .

فقاطعها قائلاً بهدوء :

ـ لست مجبرة على أي شرح يابات . . هل تذكرين اتفاقنا ذلك اليوم ؟ إنني اعمل ، اوبالأصح كنت أعمل ، بموجبه . . ولست مرتبطة بي . . ولاأنا طبعاً ، مرتبط بك . . طاب يومك . .

وصاحت الفتاة في ألم :

ـ لا . . لاتقل هذا . . انت تبالغ في نظرتك إلى الامور . .

ـ أرجوك يابات . . دعيني وشأني . . فلدي موعد مع بعض الزملاء . . .

ـ لابأس . . ولكن اريدك أن لاتسيء الظن بي ، أنت حساس جداً . . حساس أكثر من اللازم يا هشام . .

وتنهد هشام في ضيق وقال :

ـ ثم ماذا أيضاً ؟ قلت لك انني ارجوك ان تدعيني وشأني . . ان مابيننا قد انتهى ولك ان تفعلي مايحلو لك . .

وأثارها جوابه هذا ، فراحت تضرب الأرض برجلها واجابته بصوت أقرب إلى الصراخ :

ـ هشام ، لاتكن غبيا . . . هذا امر عادي . . . لقد كنت اتحدث إلى زميل . . . هذا هو كل شيء . . لاتجعلني اندم على ماتوسمته فيك . .

وابتسم هشام بمرارة وقال لها :

– تتحدثين ؟ ليكن . ولكن لاتحرجيني أمام هذا الزميل أكثر مما فعلت إنني أراه وراءك وهو ينظر إلينا من بعيد ... والمارة أيضاً .. إنهم يتلفتون نحونا ..

– أنت دائماً هكذا ... لايهمك إلا مايقوله الناس ... وما يشعر به الناس .. واستدارت بانفعال ، وراحت تسرع الخطوات مبتعدة عنه ...

واستأنف هشام سيره ، وهو يشعر بأن خطواته قد باتت أكثر ثقلا ، حتى ليوشك أن يتسمر في الأرض . .

وأزعجه شعوره هذا ، فراح يصفر كأنما يريد أن يشعر من يراه بأنه سعيد ، إذ لم يكن اكره إليه من أن يبدو عليه بأنه منزعج . .

وشعر برغبة قوية في أن يلتفت إلى الوراء ، ليلقي نظرة على باتريشيا ، إلا أنه قاوم هذه الرغبة بشدة ، فهي – إذا رأت مثل هذه الالتفاتة – سوف تفسرها بما يتناقض مع الفكرة التي كان حريصا على أن يزرعها في نفسها منذ لقائهما الأول . .

وظل يقاوم تلك الرغبة بعناد وإصرار ، وواصل سيره المتباطىء ، ولكن أذنيه كانتا تصيخان السمع ، وتوقف عن الصفير ، وبات يتحرق ليرى ، أو يسمع ، شيئا عن رد الفعل لدى باتريشيا بعد موقفه هذا . .

وسمع صوت خطوات خفيفة تقترب منه ، فشد اعصابه ، وتهيأ لما سوف يراه او يسمعه . . . .

ورأى ، اخيراً ، بطرف عينه اليسرى ذلك الشاب ، الذي حدس انه عربي ، وهو يحاذيه قائلاً بارتباك شديد :

ـ مرحباً يا أخ هشام . .

والتفت إليه هشام ، ونظر إليه بدهشة ، ثم انتبه إلى يده الممدودة له ، فمد يده بدوره وصافحه ، ورد تحيته ببرود . .

وسار الشاب إلى جانبه مطرقا ، وكأنه لايعرف كيف يبدأ حديثه ، وهشام يواصل سيره ويتساءل ـ في استغراب ـ عن سبب البرود الذي رد به على تحية الشاب ، وعن تلكؤه في مصافحته . .

وقال الشاب بارتباك شديد :

ـ أنا آسف . . لم اعرفك على نفسي . . إنني مصطفى ولد حمد . . من موريتانيا . . إنني الطالب الموريتاني الوحيد في هذه الجامعة . .

ـ أهلا وسهلا . .

رد هشام بنفس البرود ، وواصل سيره صامتا . .

ويبدو أن الشاب الموريتاني قد رأى أن أبواب الحديث قد سدت مرة أخرى فراح يحدق في الأرض وهو يعض على شفته السفلى باضطراب . .
وقال أخيراً :

ـ هل تقبل دعوتي إلى فنجان من الشاهي .. أو القهوة .. في الكافتيريا ...

وتوقف هشام عن السير ، ونظر إليه مستغربا ، وقال له وابتسامة خفيفة تتلاعب على شفتيه :

ـ لولا اننا ، كلانا ، عرب لكنت سألتك على الطريقة الأمبركية ما هي المناسبة ، اما واننا نتبع تقاليد واحدة في الضيافة ، فإنني أقبل دعوتك على هذا الأساس . .

– شكراً لك . . ألف شكر . .

واتجه الشابان نحو مبنى الكافتيريا ، وهشام يتساءل في سره عما يريد الشاب الموريتاني أن يقوله له . .

٥٩

أسند هشام مرفقيه إلى الطاولة ، ووضع ذقنه على كفيه المتشابكين وراح ينظر إلى زميله بهدوء منتظراً أن يبدأ الحديث . .

ولم ينكر هشام على نفسه انه كان يتأمل الشاب الموريتاني بدقة ، ويتطلع إلى تفاصيل وجهه الذي كان ذا وسامة واضحة ، وبخاصة عيناه السوداوان اللتان كانتا ، تلك اللحظة ، تدوران في ارجاء المكان ، وكأن صاحبهما يتحاشى أن تلتقيا بعيني هشام . .

وطال الصمت ، والارتباك يبدو واضحاً على وجه هذا الصديق الجديد ، إلى أن تكلم أخيراً ويده تعبث بفنجانه في عصبية :

– لعلك . لعلك تريد مني تفسيراً لما . . لما رأيته قبل قليل . .

وتضاحك هشام ، وأجابه بهدوء :

– أبداً . . وما شأني أنا بالأمر ؟

– كيف . . لقد قالت لي باتريشيا أنك صديقها المفضل . .

– رغما عني . . صديقها المفضل رغما عني . . هي التي اجبرتني على ذلك وضربت حولي نطاقا لم استطع اختراقه . .

– لم أفهم . .

– ليس ضروريا ان تفهم . . لقد انتهت المسألة .

وعاد الشاب يدير عينيه في المكان باضطراب ، ثم اندفع في الحديث الذي يبدو أنه كان يتحين اية فرصة لكي ينفس به عن نفسه :

– أرجوك اذن أن تسمعني ... نحن من بيئتين متماثلتين ،أعني نفس العادات ، نفس التقاليد ، نفس القيم ، إنك لا تعلم كم شعرت بالتعاسة والتمزق منذ أن جئت إلى هذه البلاد ووجدت أن كل شيء فيها مختلف عما ألفته . . أنت طبعاً تعرف شيئاً عن طبيعة الحياة في بلادي ، إننا لم نألف ما نراه هنا في هذه البلاد ، كنت وحيداً . . إنني الطالب الموريتاني الوحيد هنا كما قلت . . انت على الأقل لك عشرات أو مئات من الزملاء السعوديين . . تستطيع أن تفضي إليهم بما في نفسك . . تستطيع أن تستشيرهم . . أن تشاركهم همومك . . . أما أنا فكما ترى ، لقد كنت اكاد اموت من الرعب إذا خاطبتني احدى الفتيات . . واشعر وكأنني أصبت بالخرس إذا سألتني احدى الزميلات عن شيء . . أحس بالأرض تكاد تميد بي إذا لمست يدي يد احداهن . . أو إذا جلست إلى جانبي في المدرج بكل بساطة . .

وابتسم هشام ، وقال لنفسه : « ... ليته يعلم انه يكاد يصف حالتي تقريباً لولا انني على مايبدو أقوى اعصابا منه . . . » .

ولاحظ الشاب ابتسامته ، فامتقع وجهه ، إذ حسب ان هشام يسخر منه ، فقال له بلهجة اقرب إلى التوسل :

– أرجوك ، لا تسخر مني . . إنني في أشد الحاجة إليك لكي أفضي إليك بما في نفسي . .

– أبداً . . اقسم لك انني لاأسخر . . ولكنني ، فقط ، كنت أحدث نفسي بأن هذا هو شأن معظم الشباب العرب الذين يدرسون هنا . . كلنا مررنا بهذه التجربة . . .

وتنهد الشاب بارتياح ، وشعر بالشجاعة تملأ نفسه أكثر من ذي قبل ، لكي يتحدث عما يعتمل في داخله :

– تلك الفتاة ... باتريشيا .. إنها ، كما تعلم ، فتاة متميزة .. وجميع الطلبة والطالبات يعرفونها ، لاسيما وان مرحها وصخبها يزيدان عن الحد المألوف ..

وعلق هشام في سره قائلاً :

– ومع هذا . . فإنها تشكو الوحدة . . هكذا قالت لي . .

واستطرد الشاب :

– كنت احرص دائماً على الابتعاد عن الجميع ، والفتيات منهم بوجه خاص وهذا اليوم ... اعني قبل قليل .. كنت جالسا وحدي في ذلك المكان الذي رأيتني فيه .. معها ، وفجأة ارتسم ظلها على الكتاب الذي كنت أقرأه ، ورفعت نظري فوجدتها واقفة تبتسم . . حيتني . . فرددت التحية فجلست إلى جانبي وراحت تتحدث ، سألتني عن بلدي ، ودراستي ، واحوالي ، وكنت اجيب على اسئلتها بارتباك ، ولم يكن وجهها غريباً عني ، فقد سبق ان التقيت بها مرات عديدة في اروقة الجامعة وفي الكافتيريا . . .

وصمت الشاب قليلا ، ثم اردف وقد اكتسب صوته اضطربا واضحا :

– لقد وضعت يدها على يدي ، ومع انني احسست بمثل سلك من الكهرباء يلذعني إلا أنني لم أتحرك . . ثم . . ثم لفت ذراعها حول عنقي . . ووجدت نفسي – دون شعور مني – أطوقها بذراعي ثم . .

وقاطعه هشام قائلاً :

– وجئت أنا أفسد عليكما ذلك . .

— فعلا . . اقصد . . جئت أنت فعلا . . فكان ما كان . . وشعرت بأن عليّ أن أخبرك . . وأن اشرح لك . . . فإذا كان الآخرون يرون مثل هذه الأمور شيئاً عاديا فالأمر مختلف بالنسبة لنا . . اعني . . انت وأنا . . انت تفهم ما أعني . .

ومد هشام يده . . وأمسك بها يد زميله وقال له باسما في عطف :

— أجل أفهم ... ولكن اطمئن .. فليس بيني وبين الفتاة أي شيء .. ولك ان تفعل ما يحلو لك .. صحيح انني لم أشعر بارتياح إلى ذلك المشهد ... ولكن ..

وارتسم الاستغراب على وجه الشاب وقال له :

— لقد قالت لي غير ذلك . . . قالت إنك صديقها . . . اعني . . كما يقولون هنا « بوي فرند » . .

وقال هشام بهدوء :

— لا « بوي فرند » ولا حاجة . . كانت كما قلت لك في بداية لقائنا هي التي فرضت نفسها عليّ . . كانت علاقة عابرة ، من جانبي ، نشأت في الشهور الماضية وهذا هو كل شيء . .

ولم يعلق الشاب الموريتاني بشيء . .

واردف هشام وقد بدأ يحس في داخله بضيق من هذا الحديث :

— هه . . هل من اسئلة اخرى ؟

وأطرق مصطفى بعض الوقت ، ثم عاد ينظر في عيني هشام وهو يقول :

— لست ادري . . لست أدري . . على اية حال لايمكنك ان تتصور كم اراحني حديثنا هذا . . واتمنى ان نصبح اصدقاء . .

— بدون شك . .

رد هشام وهو ينهض مصافحا الشاب الذي سارع إلى احتواء يده بكلتا يديه في حرارة صادقة . .

وتحرك هشام يريد الاتجاه نحو باب الخروج ، فرأى باتريشيا واقفة تنظر إليهما من بعيد وقد بدا الاهتمام والانفعال على وجهها . . .

وبحركة طبيعية اتجه هشام إلى باب آخر ، عبر منه متجها إلى مبنى السكن الجامعي ، ولكنه استطاع ان يلمح الفتاة ، عبر زجاج قاعة الكافتيريا ، وهي تتجه بخطوات سريعة نحو مصطفى . .

٦٠

فتح توم باب الغرفة بهدوء ، كعادته عندما يعود في ساعة متأخرة ، ليفاجأ بأن زميله مازال ساهراً . .

ووقف عند باب الغرفة ينظر إلى هشام الذي كان قد عقد ذراعيه وراء رأسه واسند ظهره إلى الوسادة ، وقد استغرق في تفكير عميق . .

وقال توم بلهجته المرحة :

ــ ما هذا ياصديقي ؟ هذه أول مرة اراك فيها ساهراً إلى هذه الساعة . . . كنت أحسدك على استغراقك في النوم فور استلقائك على الفراش ، فهل ياترى حدث ماغيّر عادتك هذه ؟

وأدار هشام بصره إليه ببطء ، وقال باقتضاب :

ــ كنت أفكر . . هذا هو كل شيء . .

وأدرك الأميركي من لهجة زميله أنه زاهد في الحديث ، وكان قد اكتسب خبرة تامة بطباع هشام فلزم الصمت وراح يهيىء نفسه للنوم دون أن ينبس

ببنت شفة . . ولكنه كان يتساءل في سره حائراً : فيم يفكر هذا الزميل غريب الاطوار ؟ . .

والواقع أن رأس هشام ، كان مسرحا لصراع لم يكن يتوقعه في يوم من الأيام . .

كان يستعيد في ذهنه كلمات الحديث الذي دار بينه وبين زميله الموريتاني مصطفى ولد حمد . وكانت الجملة التي قالها هذا الشاب تتردد في ذهنه بقوة : « وإذا كان الآخرون يرون مثل هذه الأمور شيئاً عاديا فالامر مختلف بالنسبة لنا ، أعني انت وأنا ، أنت تفهم ما أعني » . . .

وكان هشام يفهم ، بطبيعة الحال ، ماذا كان يعني مصطفى بعبارته تلك ، ان الطباع العربية ترفض مثل هذا الأمر . . فإذا كانت باتريشيا هي « صديقة » هشام فلا حق لمصطفى — ولا سواه — في ان يقترب منها ، فكيف أن يتجاوز مجرد الاقتراب إلى ماهو أكثر . . .

ولأول مرة وجد نفسه يفكر في باتريشيا . .

كان ، في السابق ، يعتبر أن علاقته بها هي — كما قال لمصطفى — علاقة أملاها عليه عطفه على الفتاة ، وإشفاقه عليها ، وتفهمه لمشاعرها ، وكان إذ يرافقها او يبادلها الحديث ، يشعر بأنه يؤدي « واجبا » ليس غير . . حتى إذا افترق عنها ، نسيها تماما ، وغابت عن ذاكرته . . .

ماباله ، هذه الليلة يفكر فيها ويطيل التفكير ؟ أتراه قد وقع في المحذور الذي كان يخشاه ويتخوف منه دائماً ؟ أتراه انساق في علاقته بالفتاة إلى ماهو أبعد من الصداقة ؟ . .

إنه لايتذكر مرة حاول فيها أن يتجاوز الحدود التي رسمها لهذه الصداقة

فهو لم يكن ينظر إلى باتريشيا الانظرته إلى اي « زميل » آخر ، لم يكن ينظر إليها على جمالها الباهر وأنوثتها المتفجرة ، كفتاة أبدا . .

لماذا يحاول أن يستعيد – في استغراقه هذا بالتفكير – صورتها في ذهنه ، ويتذكر وجهها الوضاء ، وشعرها المسترسل على كتفيها كالشلال ؟ . .

وأغمض عينيه في ألم . . إنه لا يسمح لنفسه بمثل هذه الأفكار . . كما أنه لا يسمح لنفسه بأن يفقد تماسكه وهو في الفترة الاخيرة من هذه المرحلة من دراسته ولن يلبث أن يعود إلى بلاده لاصطحاب زوجته معه . .

ولكنه لم يكتم ان في اعماقه نوعا من الغضب ، ام لعلها الغيرة ، بعد أن رأى باتريشيا بعينيه في ذلك الموقف ، وبعد ان حكى له مصطفى ماحكى عن التمزق الذي عاشه منذ أن وصل إلى هذه البلاد ، وما كان من أمر باتريشيا معه . .

وانتبه هشام من خواطره على زميله الذي كان قد أوى إلى فراشه وقال له بلهجة ظاهرها الجد ، وباطنها المداعبة :

– هل ستترك النور مضاء طوال الليل ؟ انك تعلم انني لا أستطيع النوم هكذا . .

ولم يرد هشام بشيء ، وإنما مد يده إلى زر النور فأطفأه ، وغطى توم نفسه وهو يتساءل :

– ترى . . هل أطفأ زميله النور لينام هو الآخر . . ام ليكمل الليل ساهرا في الظلام ؟

٦١

ـ هل استطيع ان اجلس هنا . . ؟

ـ اوه . . بالتأكيد . .

قالت « جين » الجملة الاخيرة وهي تلقي نظرة خاطفة على مخاطبها ، ولكنها مالبثت ان شهقت بدهشة : فقد كان المتحدث هو هشام ، المعروف بانعزاله ، وابتعاده عن زميلاته ، بوجه خاص ، ومعاملتهن بتحفظ يصل إلى درجة البرود . .

واردفت الفتاة تقول وقد ارتسمت ابتسامة عريضة على شفتيها :

ـ مرحباً بك . . . آسفة . . لم أكن اظن انك انت الذي يخاطبني . .

وابتسم هشام بدوره وسحب الكرسي وجلس تجاه جين وقال لها متسائلا :

ـ كيف سمحت لي بالجلوس إذن مادمت لم تنتبهي إليّ بادىء الأمر . .

وردت الفتاة ببساطة :

ـ انت تعرف .. انه « روتين » ... فلا يمكنني ان امنع أحدا من الجلوس إلى الطاولة إذا أراد . .

وحدّق هشام في عيني جين التي بدا الاستغراب على وجهها وقالت له :

ـ ماذا بك ؟ كأنك تراني لأول مرة . .

ـ فعلا . . هذه أول مرة أراك فيها . .

– غريب . . . ما الذي يجعلك تقول هذا القول ؟ . . إننا كثيراً ما التقينا من قبل . .

– صحيح . . . ولكنني لم أكن اركِ إذ ذاك . . .

– اعترف لك . . انني لم أفهم شيئاً . . ومع هذا . . مرحباً بك . .

ومضت جين تثرثر ، بعد ان انست من هشام إقبالا عليها ، فهو لم يحول نظره عنها قط ، بل كان يتأملها ، ويقارن في خياله بينها وبين باتريشيا ، أما جين فكانت تتساءل في داخلها عما دعاه إلى اختيارها هي من بين كافة الجالسات في المكان ، وهو الذي كان بوسامته واناقته ، موضع اهتمام الكثيرات وموضع اقبال زملائه الذين كانوا يحرصون على دعوته إلى حفلاتهم . .

والواقع ان هشام لم يعِ كلمة واحدة مما كانت جين تتحدث به ، كان رنين صوتها يأتيه بغير انقطاع ، ولكن باله كان مشغولا بشيء آخر ، كان يختلس النظرة تلو النظرة إلى ابواب قاعة الكافتيريا منتظراً أن تطل باتريشيا كعادتها في مثل هذا الموعد ، فقد كانت لديه رغبة طفولية جامحة في ان تراه وهو جالس مع جين . .

وفجأة اطلق هشام ضحكة صاخبة . .

وتوقفت جين عن الكلام ، وقطبت حاجبيها وقالت له بقلق :

– هل ترى في كلامي مايستحق هذه الضحكة ؟ . . .

وانتبه هشام إلى نفسه ، فهو لم يضحك إلا لأنه رأى باتريشيا تدخل إلى القاعة ، وإلى جانبها مصطفى ، وما ان وقع نظرها عليه حتى أطلق تلك الضحكة ، كان يريدها ان تراه وهو يضحك أثناء جلوسه مع جين .. وهذا هو كل شيء...

وعادت جين تسأله بالحاح :

ـ هل في كلامي ما يضحك ؟

ـ آه . . آسف . . لقد ضحكت لنكتة خطرت ببالي . .

ـ ولكنني كنت أتحدث إليك عن مأساة البارحة فما الذي جعلك تضحك؟..

ـ أكرر اسفي . . . ولكنك تعلمين . . في بعض الأحيان تستوي الأسباب التي تجعل الإنسان يضحك أو يبكي . .

وفكرت جين قليلا ، وكأنما راق لها هذا الرأي ، فضحكت هي الأخرى ضحكة عالية ، وشعر هشام في اعماقه بامتنان شديد للفتاة ، فهي بضحكتها هذه قد شاركت في « إخراج » المشهد الذي أراد لباتريشيا ان تراه . .

ورأى باتريشيا وزميلها يجلسان إلى احدى الموائد البعيدة ، فكان نظره موزعا بينهما وبين جين التي عادت إلى ثرثرتها المتواصلة التي لم يستوعب هشام حرفا واحدا منها ، بل كان ينقل بصره بخفة بينها وبين باتريشيا ، في مقارنة صريحة ، خرج منها برأي اقتنع به ، وارتاح له ، وهو أن الاثنتين على درجة متساوية من الجمال . .

ولاحظت جين ، أخيراً ، أنه لم يكن يصغي إلى حديثها ، فتوقفت ثم قالت له :

ـ هل يمكن ان تفسر لي سبب انصرافك عني بهذه الطريقة ؟ . . .

ـ أنا ؟ ابداً . . إنني أصغي إليك . . .

ـ قل لي إذن . . . ما هي آخر جملة قلتها لك ؟ . . .

ـ الحقيقة . . الحقيقة ان صوتك يطربني بحد ذاته ، كنت استمع إلى نغماته بصورة صرفتني عن تتبع معانيه ، صدقيني يا جين إنك فتاة اجتماعية . .

وكأية انثى ، ازدهاها هذا الإطراء الشاعري ، كما قالت ، فضحكت من أعماقها وقالت وهي تضحك :

– آه منكم ايها الشرقيون . . يقولون إنكم جميعاً شعراء . .

ولاحظ هشام أن باتريشيا انحنت على مصطفى وراحت تخاطبه باهتمام وهو يهز رأسه موافقاً ، ثم نهض واتجه نحو المائدة التي جلس إليها هشام وجين وألقى التحية على الاثنين بالإنجليزية ثم جلس وخاطب هشام بالعربية قائلاً :

– الحقني يا سي هشام يا خويا . .

– خيراً ؟ . . .

– البنت تدعوني لزيارة أهلها والاقامة عندهم بضعة أيام خلال العطلة المقبلة . .

ووجد هشام نفسه يجيب بصوت أجش حاول ان يجرده من نبرات الانفعال :

– وايش فيها ؟ تستطيع أن تذهب . .

– ايش فيها .. ؟ ناس اغراب .. لا أعرفهم ولا يعرفونني ... لو كانت « بات » شابا لهان الأمر . . ولكنها . . بنت . . بنت ياسي هشام . .

وشعر هشام بانزعاج في داخله ؛ فإن مصطفى يستخدم اسم « التدليل » في الاشارة إلى باتريشيا ، ومعنى هذا أن العلاقة بينهما قد اصبحت قوية وحميمة ، وهاهي تدعوه لزيارة أهلها . . أتراها تفعل ذلك بصورة طبيعية ام انها تفعله لكي تغيظ هشام ؟ . . .

ووجد هشام نفسه يجيبه بهدوء تام :

– انت تعلم ان علينا مجاراة الاوضاع هنا . . . إنها أمور عادية بالنسبة لهم . . ولك الخيار في أن تذهب اولا تذهب . .

وحدّق مصطفى في هشام مبهوتا بعض الوقت . . ثم مالبث أن نهض واستأذن ، وعاد إلى باتريشيا . .

وقالت جين ضاحكة :

ـ لماذا كنتما تتشاجران ؟ . . .

وكان سؤال جين يحمل رنة ذات معنى ، ولكن هشام لم يرد . .

وعادت جين تقطب وهي تقول :

ـ هل يمكن أن أفهم منك يا صديقي معنى هذه الألغاز ؟ تأتي إلى مائدتي وتجلس معي . . . ثم تنصرف عني . . وتزعم أن لي صوتا موسيقيا يصرفك عن فهم معنى ما أقول ؟ . . هل لاحظت انك لم تقل لي شيئاً منذ جلست ؟ أريد تفسيرا لذلك إذا سمحت . .

وتنهد هشام ، وابتسم ابتسامة مغتصبة وقال في نفسه : « البنت معاها حق »

ثم قال لها :

ـ أنا آسف لكل ما بدر مني . . آسف فعلا . . وإثباتا لذلك فإنني أدعوك هذه الليلة إلى تناول العشاء في أحد المطاعم . .

وأشرق وجه الفتاة بابتسامة سعيدة وهتفت :

ـ حقاً ؟

ـ أجل . . لم لا ؟ . . .

ـ اشكرك كثيراً ياعزيزي . . ولكن لي شرطاً واحدا . .

ـ هه ؟

ـ أن تمر عليّ في السكن لنذهب معا . .

ورد على الفور :

— لم لا ؟ . .

فقد كانت تسكن بجوار باتريشيا ، ولعل هذه تراه وهو يأتي ليصطحب جين . .

٦٢

عندما عاد هشام إلى غرفته ، في ساعة متأخرة من الليل ، وجد زميله توم نائماً ، فلم يشأ إزعاجه ، وراح يخلع ثيابه ، ويرتدي ثياب النوم في الظلام ، ثم اتجه إلى الشرفة ، وجلس فيها يرقب أضواء البلدة المتلألئة من بعيد . . كان يريد أن يعيد ترتيب خواطره ، وان يجد نفسه وسط هذه الدوامة التي يعيش فيها . إنه لاينكر ان اقباله على « جين » لم يكن إلا إغاظة لباتريشيا ، فلقد شعر أن الأخيرة قد أساءت إليه بشكل ما ، رغم صراحة الاتفاق الذي كان بينهما ، على أن يكونا صديقين ، كأي شابين من زملاء الدراسة . . ولكنه ، بطبيعته ، لايستطيع أن يقبل رؤية ذلك المشهد الذي رآه في الحديقة من غير أن ينتقم .. أجل .. أراد ، عامداً ، أن يغيظ باتريشيا ، بل وان يشعرها بالغيرة وهو يعتقد انه قد وفق في ذلك . . ولكن ماهي نهاية هذا كله ؟ انه لا يلبث ان يعود إلى بلاده بعد أسابيع . . ولا يلبث أن يعود إلى هنا ومعه زوجته ، وعندها يضع حدا لكل هذه الامور وينفض يديه ايضاً من موضوع « جين » التي لاتزيد في مكانتها عنده عن باتريشيا فهي مجرد « صديق » — صديق لا صديقة — وقد حقق غايته في الكافتيريا حينما رأته باتريشيا معها واذن فليقف الأمر عند هذا الحد . . وليلتفت لاموره الخاصة ، وليعد كما كان فهذا اسلم له ، واجدى عليه . .

وشعر براحة عظيمة تتسلل إلى روحه مع قراره هذا ، وعرف في تلك اللحظة معنى ان يعود السمك إلى مائه الأليف . .

وتمتم بكلمات الحمد لله على هذه النتيجة ، ثم اتجه إلى فراشه . .



بعد بضعة أيام حلت العطلة . . وتضاءل عدد الطلبة الذين يرتادون الكافتيريا والحدائق إلى حد ملحوظ . .

وقضى هشام ايام العطلة في الاستعداد للسفر إلى جده ، وراح ينتقي الهدايا لزوجته ، وأهله ، وقد صفا ذهنه واستقرت مشاعره ، وظلت تلك الراحة النفسية تخالجه . .

وذات يوم ، وكان وحيدا في الغرفة ، سمع طرقا ملحا على الباب ، وحين اذن بالدخول ، فتح الباب وظهر وراءه مصطفى ولد حمد الذي ما ان القى السلام ، حتى ارتمى على احد المقاعد وهو يلهث وكأنه جرى شوطا طويلا . .

وسأله هشام باهتمام :

ـ خيراً . . مابك ؟

ـ آه . . اسكت يا سي هشام . . ان ماجرى لي لم يجر لاحد من قبلي . .

وضحك هشام وقال على الفور :

ـ بالعكس . . انه يجري كل يوم . . بل كل ساعة . .

وقال مصطفى :

ـ انا لم أتعود على مثل هذه الاشياء . . هل تصدق ؟ انني لم أكد اصل إلى غرفتي حتى رميت حقيبتي واتجهت إليك في الحال . . فأنت الوحيد الذي يفهمني . . وأنت الوحيد الذي يمكن ان يفيدني . .

ونهض هشام إلى المطبخ الصغير الملحق بالغرفة وهو يقول :

– تستطيع أن تتكلم كما تشاء .. انني مصغ إليك .. سأعد شيئاً من الشاهي ..

وتكلم مصطفى :

– لقد أخذتني إلى بيت أهلها . . ان بلدتها لاتبعد اكثر من مائتي ميل عن هنا ... كنت مهموما طول الوقت .. ماذا سيقول أهلها عني ؟ هل يهشم اخوها انفي بقبضته ، ام يطلق ابوها علي الرصاص . . كنت اعد الكلمات التي سأدافع بها عن نفسي . . لأقول لهم بأن ابنتهم هي التي اجبرتني على المجيء . . كنت في شغل شاغل عن الفتاة وحديثها الذي لاينقطع . . بالمناسبة لقد تحدثت عنك عدة مرات . .

– انا ؟ ...

– نعم . . لست ادري تماماً ما هي نوعية العلاقة بينك وبينها . . ولكن يبدو لي انها مغتاظة من صداقتك الطارئة مع تلك الفتاة . .

– هكذا ؟ ...

– أجل . .

– المهم ... ماذا حدث معك بعد ذلك ؟ ...

سأل هشام وهو يحمل الشاي ليضعه امام ضيفه ، بينما كان مصطفى يواصل حديثه المحموم :

– هل تصدق ان أهلها استقبلوني بالترحاب ؟ لقد التفوا حولي يسألونني عن بلادي وأصروا على معرفة موقعها في الخارطة . . ثم انهالوا عليّ باسئلة عديدة عن كل مايتعلق بي وبالبلد الذي جئت منه . ثم دلوني على غرفة قالوا

انهم اعتادوا تأجيرها للراغبين في قضاء بعض الوقت في بلدتهم ، لاقضي فيها مدة اقامتي عندهم . .

آه . . ماذا أقول لك ياسي هشام ، كنت مذهولا مما أرى ، وما اسمع ، فان أحدا ما لم يسأل بات عن العلاقة بيني وبينها ... ولا لماذا جاءت بي ... هل يمكن لعقل ان يتصور هذا ؟ . .

في اليوم التالي جاءني اخوها ، الذي كنت أخشى ان يهشم انفي بقبضته وعرض علي ان اذهب إلى المسبح الملحق بحديقة المنزل ، وذهبت بكل بساطة وأنا خالي الذهن من اي شيء . . فاذا بي افاجأ بالفتاة وهي بملابس السباحة ، تدعوني للنزول في الماء . . اقول لك الحق ، ياسي هشام ، انني شعرت بالرعب فاعتذرت بعبارات مبهمة انني لا أجيد السباحة . .

وقال هشام في اشفاق :

– إذن فأنت لم تستمتع بالعطلة ؟ ...

– الحق انني استمتعت . . . في البداية كنت منطويا على نفسي . واعتذر عن اي شيء يدعونني إليه . . ولكن تكرار الدعوة اخجلني . . وهكذا . . وهكذا تعلمت السباحة . . واستطعت ان استمتع بالعطلة بعد أن اقتنعت بأن نظرتهم إلى الامور تختلف . . .

– كيف ؟ ...

– انهم ينظرون إلى علاقات بناتهم بالآخرين نظرة عادية . .

وضحك هشام وهو يقول :

– يبدو ان هذا تبرير تريد ان تريح به ضميرك . .

وبادله مصطفى الضحك ، ثم قال :

– لقد تحدثت بات عنك كثيراً . . امامي وامام أهلها . . تريد الحق ياسي هشام . .

– هه ؟

– انني كنت اشعر بأنها كانت معي بجسمها . . ومعك بقلبها . .

– لقد تبنا . . وتاب الله علينا . .

– ماذا تعني ؟

– أعني انني في طريقي إلى المملكة بعد بضعة ايام ان شاء الله . .



لم يكن هشام يصدق انه ، في هذه اللحظة ، على متن طائرة تطوي به الاجواء طيا في طريقها ، به ، إلى بلاده . .

فلقد ادى المهمة التي سافر من اجلها بنجاح تام ، وأنهى دراساته في اللغة الانجليزية على النحو المطلوب ، وبات الآن اكثر خبرة ، بما لايقاس ، بهذه اللغة ، بحيث اصبح قادراً على متابعة الدراسة العليا للحصول على الماجستير التي ابتعث من أجلها .

ومضى يقارن ، وابتسامة خفيفة تتلاعب على شفتيه ، بين حاله عندما كانت طائرته تطير به في الاتجاه المعاكس، وكان وحيدا ، مستوحشا ، يصادف في كل ساعة مفاجأة ، ويلتقي مع كل خطوة بشيء غير مألوف . .

لقد انهار هذا الجدار الآن . . وبات واثق الخطوة ، يتصرف بخبرة ، ويتكلم الانجليزية بطلاقة ولا يشعر بدهشة مما يمر به . . .

وعاد بذهنه إلى الاشهر التي مضت ، منذ ان غادر جدة آخر مرة ، وإلى اللحظة التي يطير بها – الآن – عائداً إلى عروس البحر الأحمر . .

لقد صادف في سفرته هذه كثيراً من الاشياء التي لم تكن تخطر له ببال فواجهها بكل ما استطاع من مقدرة على التصرف ، وخبرة في الحياة ، اخفق احيانا ، ونجح احيانا اخرى ، ولكنه – في جميع الاحوال – قد اكتسب خبرة بل خبرات ، جديدة ، وتأكد – وهذا هو المهم – من متانة ارادته ، وقوة اخلاقه ، وعمق تربيته ، فاذا كان قد بدا في نظر بعض زملائه وزميلاته على شيء من الغرابة والتفرد في المواقف والتصرفات فانه ليس نادما قط على حفاظه على تلك المبادىء التربوية التي عاش في كنفها طوال حياته ، قبل ان يذهب إلى بلاد الغربة في الوجه الآخر من الكرة الأرضية .

وتذكر زميله توم ، واستعرض علاقته معه منذ ان رآه لأول مرة ، لقد انتهت هذه العلاقة على خير مايرام بعد ان انهى دوراته المتقدمة في اللغة الإنجليزية واستطاع ان يفرض احترامه على زميله الاميركي ، الذي قد لا يكون قد اقتنع – داخلياً – بمبررات مواقفه الاخلاقية تلك ، الا انه لم يتمالك من التسليم بأن تلك المواقف الاخلاقية التي وقفها هشام ، كانت تنبع من قناعة عميقة وايمان كلي بها . .

ثم تذكر باتريشيا – واتسعت ابتسامته اذ ذاك – وكيف حملته على ان يقيم علاقته البريئة معها ، وكيف كشفت له ، في لحظة ضعفها تلك ، عن الوحدة التي تعيش فيها رغم كل مظاهر المرح التي تحيط بها ؛ ثم موقفها وهو يراها في الحديقة مع مصطفى ولد حمد . .

وحمد الله في سره ، اذ انتهت الامور إلى ما انتهت إليه ؛ لاسيما بعد ان كاد يتورط مع تلك الفتاة الاخرى « جين » نتيجة رغبته في العناد والتحدي . .

ثم اتجه بذهنه إليها . .

إلى هيا . .

إنه لم يخبرها ، ولم يخبر أهله كذلك ، بموعد عودته ، إذ لم يشأ ان يجشمهم عناء الانتقال من مكة وحائل لاستقباله في جدة ، وما يستدعيه ذلك من مشقة ، فألمح لهم في آخر رسائله إليهم بأنه يأمل في أن يكون عندهم بعد أسبوعين من تاريخ الخطاب ، وأنه لايعرف موعد وصوله بالضبط . .

ولقد اختار لرحلته طريقاً مباشراً ؛ لايتوقف سوى ساعة في مطار لندن ، قضاها في قاعة الترانزيت ، فلقد كان شوقه إلى لقاء الاحبّة يفوق كل شوق وتوقه إلى رؤية أبيه وأمه وأخواته وزوجته وأهلها ، يفوق كل توق . .

وراح يتمتم ، في سره ، بعبارات الحمد لله والشكر له . . على ما أفاء عليه من نعمائه ، وما حقق له ، بعونه ، من توفيق ونجاح .

وأغمض عينيه ، وراح في سبات عميق ، فلقد أمضى في الجو ساعات طوالاً . . متنقلا من مطار إلى مطار ، ومن قارة إلى قارة ، وها هو الآن يتجه إلى قارة ثالثة ، في اقدس مدنها عاش ، وفي رحابها الطاهرة درج وترعرع ، وان هو الا بعض وقت حتّى يكون ــ باذن الله ــ فيها .

٦٥

وما يذكر هشام كيف وصل ، اخيرا ، إلى جدة ، ولا كيف انهى اجراءات الدخول ، ولا كيف استأجر أول سيارة تكسي صادفها لتحمله مع حقائبه الكثيرة إلى مكة حرسها الله .

كل ما كان يهمه ــ اذ ذاك ــ هو ان يصل إلى مكة باسرع وقت ، فكان

ينظر إلى الطريق العريض المسفلت الذي لاتبدو منه — في عتمة الغروب — سوى الخطوط البيضاء التي رسمت عليه ، وعلى جانبيه اللافتات الاعلانية الضخمة وعلى مبعدة منه تبدو انوار خافتة لمنازل بعيدة في بعض القرى الصغيرة ، وسلسلة الجبال الهائلة ترتفع بشموخها المهيب . .

الحمد لك يارب . . هأنا اعود إلى مكاني الطبيعي . . هذا هو الجو الاليف الذي احببته وعشت فيه طوال حياتي . . هذا هو الهواء الذي ملأ الصدر والدم والجوارح . .

واستنشق الهواء الآتي إليه عبر نافذة السيارة بقوة ، وهو يشعر بفرح طاغ مايدري كيف يعبر عنه . .

ووصلت السيارة إلى مكة ، وراحت تخترق شوارعها وحواريها في طريقها إلى المنزل ، وسيطر على قلب هشام ذلك الشعور الذي ينتاب كل من أمّ الأراضي المقدسة التي أمنها الله ، شعور الطمأنينة ، وسكينة النفس ، والخشوع ؛ وود هشام لو استطاع ان يزور المسجد الحرام ، ويجتلي الكعبة المشرفة ، ويؤدي الصلاة في بيت الله ، لولا انه كان مثقلا بحقائبه واشيائه التي اصطحبها معه في سفرته ، وعول على ان يفعل ذلك بعد وصوله . .

وكان صوته يرن في اذنه رنينا خاصا وهو يدلي بتعليماته إلى سائق السيارة في ان ينعطف يميناً ، أو يستدير يسارا ، او يأخذ هذا الشارع أو ذاك إلى أن وقف اخيراً أمام البيت ، فأنزل حقائبه ، ونقد السائق اجرته ، ثم راح ينظر إلى الباب وقد ذاب قلبه شوقا وحنيناً . . . فها هو — بعد تلك الغيبة التي بدت له طويلة طويلة — يعود إلى المكان الذي فيه ولد وعاش ونشأ . .

وضغط جرس الباب وهو يشعر بقلبه يركض بين ضلوعه ، وراح ينتظر

متلهفا ، ثم عاود الضغط وقد نفد صبره ، إلى ان اتاه صوت عرفه في الحال.. انه صوت اخته رجاء تسأل عمن يكون الطارق . .

وفي لمحة من لمحات التصرفات الصبيانية التي يحلو للانسان ــ احيانا ــ ان يأتيها من غير قرار مسبق ، غيّر هشام صوته وهو يقول :

ــ هنا بيت أبو هشام ؟ . .

ــ ايوه . .

ــ الباشمهندس هشام فيه . .

ــ لأ . . مين يبغاه . .

ــ كيف لا ؟ اجل وين راح ؟ . . وكيف يعني ما هو موجود ؟ . . .

وصمتت رجاء ، وكاد هشام أن ينفجر ضاحكا ، فهو قد توقع من رجاء أن تنفجر فيه ، كعادتها . . صائحة « وانت مالك » ؟ . . فعاد يضغط على جرس الباب وهو يقول بصوته العادي :

ــ افتحي يارجاء . . أنا هشام . . .

ــ هشام . . أخويا . .

ارتفعت صيحة رجاء من وراء الباب وقد جاءها الصوت الاليف وفتحت الباب بسرعة وهي تقول :

ــ الحمد لله على السلامة ، الحمد لله على السلامة ، الله يخزي شيطانك ياشيخ . . لقد أدهشني سؤالك وانت تخاطبني بعد ان غيّرت صوتك . .

وقاطعها هشام قائلا وهو يضحك :

ــ عارف .. عارف .. وكنتي تبغي تسمعيني موشح من الكلمات اللاذعة...

ـ الحقيقة انني كنت أتساءل ماهو معنى سؤالك البارد . .

وعانق هشام اخته ، ثم بدأ في نقل حقائبه إلى داخل المنزل ، بينما انطلقت رجاء تصيح وهي تغيب داخل البيت :

ـ ابويا . . أمي . . هيا . . سناء . . هشام جه . .

وضج اسم هيا في نفس هشام اذ سمع اخته تناديه فهي هنا ، إذن ، ولسوف يراها بعد ثوان بعد ان كان قد رسم في ذهنه ان يذهب في اليوم التالي إلى حائل ليراها . . وخرج الجميع للقاء هشام ، واختلطت الضحكات مع اصوات القبلات ، يطبعها الاب والام والاختان الآخريان . .

ووقفت هيا بقامتها الممشوقة ترقب اللقاء بين هشام واهله ، وهي لاتكاد تصدق بأنها ترى هشام امام عينيها ، وانه عاد بعد تلك الغيبة التي بدت لها وكأنها دهر طويل ، وتشابكت الايدي في لقاء غلب فيه التأثر على الزوجين الشابين وكأنهما لايجدان مايقولان بعد ان من الله عليهما باللقاء . .

وهمست هيا بصوت مرتجف :

ـ الحمد لله على السلامة . .

وانتقل الاهل جميعاً إلى غرفة المجلس ، وعبارات الترحيب ، والفرح ، والتأثر ، تتناثر هنا وهناك ، فلقد كان حضوره المفاجىء ، رغم توقعهم له ، أقوى تأثيراً في نفوسهم ، بعد ان كانوا يعتقدون انه سيأتي بعد ايام . .

وقال الاب معاتبا :

ـ لو كنت قلت لنا يا ابني . كنا استقبلناك في المطار . .

ـ لم اشأ ان اجشمكم عناء هذا الاستقبال .

وقالت الأم :

– الله يهديك ياوليدي . . انت دايما تعمل معانا كده . .

– الله يسلمك يا أمي . . ما أبغى اكلف عليكي . .

وقالت رجاء :

– والله العظيم انا قلبي كان حاسس انه راح يجي في هاليومين . . . اصلي عارفاه . . وعارفه مفاجآته . . .

– فيكي الخير يا رجاء . . وما أبغى اقول اكثر من كده . .

– ايش تقصد ؟ . . .

– ولا حاجة . . .

وارتفعت الضحكات ، فالحوار التصادمي بين الاثنين ، كان سمة مميزة لهما منذ ان وعيا على الدنيا ، فرجاء لا تصغر هشام إلا بعام واحد ، وكانت الام تفسر امثال هذه الحوار ، بأنه نتيجة لتقارب السن ، ومجيء رجاء إلى الدنيا بعد هشام مباشرة ، ولكن المحبة العميقة التي يتبادلها الاثنان – في الحقيقة – لم تكن موضع شك . . .

ونظر هشام إلى هيا متسائلا ، وكأنه ينتظر منها ، هي الاخرى ، تعليقا . . وتضرج وجه هيا بالحمرة وهمست :

– منذ ان وصلتني رسالتك التي تقول فيها انك ستكون هنا بعد اسبوعين آثرت القدوم إلى مكة وانتظارك فيها . .

واكملت رجاء عبارة هيا :

– يعني بصريح العبارة ياباشمهندس شوشو . . الست هيا لم تطق الانتظار حتى تصل سيادتك إلى مكة ، ومن ثم تتوجه إلى حائل . . مفهوم ؟ . . .

وقال لها هشام ضاحكا وهو يشد على يد هيا بين يديه الاثنتين :

ـ مفهوم يا آنسة رجاء . . وربنا يسترنا من لسانك هذا . .

وأضاف :

ـ المرة هاذي بس يا رجاء سامحتك عن كلمة شوشو التي سبق ان طلبت منك الا تناديني بها . .

وارتفعت الضحكات في الغرفة ، وانهالت الاسئلة على هشام من كل فم فالعائلة تريد أن تعرف كيف قضى هشام تلك الاشهر في بلاد الغربة على ذلك النحو الذي كان مؤلما للجميع .

وقال هشام :

ـ هذه حكاية طويلة . . مضحكة ومبكية في آن واحد . . وأرى ان نؤجلها للسهرة . . الآن موعد تسليم الهدايا لاصحابها ، وبعد ذلك اغير ثيابي ونبدأ حديثنا الطويل . .

وتساءلت الام بلهفة :

ـ قبلها قل لي يا بني . . هل تعشيت ؟ . .

واطلق هشام زفرة حرى واجاب :

ـ آه يا أمي . . لا تذكريني بمسألة الطعام . . والله العظيم من يوم ما سافرت إلى دا حين لم أذق طعاما مثل الطعام الذي تطهينه أنت أو هيا . .

ونهضت الام في الحال وهي تقول :

ـ اقوم احضر لك لقمة تاكلها . .

وضحك هشام ، فقد هبت امه وزوجته في آن واحد لتحضير الطعام له وقال :

– لا . . أنا ماني جيعان الآن . . تكفيني مشاهدتكم . . وأيضاً هناك الهدايا التي احضرتها لكم . .

واقبل على الحقائب يفتحها وهو يقول مخاطباً الجميع :

– والله الواحد يحمد ربنا على النعمة اللي عايشين فيها في المملكة . . لايمكنكم ان تتصوروا كم عانيت في اختيار الهدايا . . فكل ماهو موجود في امريكا موجود مثله في المملكة . . وقد حاولت بقدر امكاني ان اجد لكم الهدايا المناسبة . .

وتركزت العيون في فضول ملح على الحقائب العديدة التي جاء بها هشام معه ، والتي ملأها كلها بالهدايا التي اختارها لاهله ، وأهل زوجته . .



كان هشام يشعر بنوع من الاطمئنان التام ، وهو يأوي إلى غرفته هو وزوجته ، فها هو الآن في المكان الذي طالما حلم به في غربته ، والذي طالما اشتاق إليه وهو بعيد عنه ، وطالما فتح عينيه – وهو على بعد آلاف الاميال منه – على سواه في الاماكن التي تنقل بينها خلال غيابه الذي بدا له وكأنه سنوات ، مع انه لم يزد عن اشهر معدودات . .

واقبل على الاشياء التي رافقته في صباه وفتوته يتأملها ، يتفحصها ، يلمسها بيديه في حنان وكأنه يراها لاول مرة . . وتنهد اخيراً في ارتياح ، والتفت إلى هيا التي كانت جالسة على كنبة وثيرة ترقبه في صمت ، وكأنها تعرف مايدور في داخله تلك اللحظات . .

وجلس تجاهها على كنبة اخرى وامسك يديها بيديه في عطف بالغ وقال لها بصوت خافت :

ـ آه لو تعلمين كم افتقدتك واشتقت إليك . .

وارخت هيا اهدابها وهي تهمس :

ـ وأنا أيضاً . .

ـ لن نفترق بعد الآن ابداً ان شاء الله . . لقد ثبت لي ان رأيك كان هو الاصوب ، وان مازعمه بعض الزملاء حول مستلزمات دراسة اللغة الانجليزية لا ينطبق كل الانطباق على الواقع ، وما كان ضرني لو انني اصطحبتك وعشت حياتي بصورة طبيعية ، بدلا من العناء الذي تحملته ، مرة في ازدراد ذلك الطعام الذي لم آلفه ، قسرا ، ومرة في احتمال صحبة آخرين لا ارتاح إلى صحبتهم ثم الوحشة والوجوم اللذين كانا يسيطران على نفسي كلما عدت إلى غرفتي التي يشاركني فيها انسان آخر لا أعرفه ، ولا يعرفني ، رغم المدة التي قضيناها معا ...

ورفعت هيا ، التي كانت تصغي إلى كلامه في سعادة طاغية لم تحاول اخفاءها ، نظرها إليه ومع أنها تألمت لهذه الصورة الموحشة التي رسمها هشام لحياته في بلاد الغربة ، إلا أنها وجدت نفسها تقول له وفرحة طفولية حلوة تطل من عينيها :

ـ تستاهل . . أنت الذي جنيت على نفسك . . اردت ان تذهب وحدك فطاوعتك لا لشيء الا لتكون راضيا . . وليتك تعلم كم عانيت من الضغط النفسي الذي كاد يزهق انفاسي وانا ابدي لاهلك موافقتي على سفرك وحيدا . .

وضحك هشام وقال لها وعيناه تفصحان عن اعمق ما يمكن ان تفصح عنه عينان من المحبة والشوق :

ـ يحق لك أن تقولي ماتشائين ، فأنا المذنب . . ولكن ثقي بأن طيفك مابارح مخيلتي لحظة واحدة . . منذ أن وجدت نفسي وحيداً في الطائرة . . . وإلى ان رأيتك اليوم عند وصولي . . لقد كانت تجربة ارجو من الله تعالى الا يعيدها مرة أخرى . .

وطال الحديث وتشعب بين الزوجين الشابين ، ومضت ساعات لم يصمتا خلالها لحظة واحدة ، فهيا تريد ان تعرف كل شيء عما جرى مع هشام في رحلته ، وهو — من جهته — يريد ان يزيح عن قلبه اثقال الهموم التي رانت عليه خلال الاشهر الفائتة . . فمضى يثرثر ويثرثر ، وهيا تصغي ، وتعلق ، تضحك تارة ، وتعبس اخرى ، وفق ما يأتي في حديث هشام من عبارات وصفها ، هو ، عند قدومه بأنها قصة مضحكة ومبكية في آن واحد . . .

ولم يتوقف الحديث إلا مع تصاعد أصوات المؤذنين في هدأة الليل ، تدعو الناس إلى صلاة الفجر ، فنهض هشام ، وارتدى ملابسه ليتوجه ، مع ابيه ، إلى المسجد الحرام ، ويكحل عينيه بمرأى كعبته المشرفة ، ويؤدي في رحابه الطاهرة صلاة الفجر . . وقد سكنت نفسه إلى هذا الجو الذي عاش فيه معظم سنوات حياته . . .



٦٧

— هه يا باشمهندس شوشو . . حدثنا . .

كانت صاحبة العبارة هي ، بالطبع ، اخته رجاء التي عادت إلى مبارزاتها الكلامية المرحة معه ، والتي ما كان احد في المنزل يخاطبه بها مثلما تخاطبه هي..

وادار هشام عينيه في غرفة المجلس وتساءل ببراءة مصطنعة :

— مين شوشو ؟ هو حد هنا في الغرفة يدعى شوشو ؟ . . .

وضحك الجميع ، وعلقت الام قائلة لهيا :

— تصدقي يا بنتي ؟ من يوم ما كبروا وهم كده دايما . . كلمة منها . . وكلمة منه . . وتلاقيهم نزلوا اخذ ورد كأنه فيه بينهم ثار . .

وقال هشام :

ـ اجل ايش اسوي ؟ كذا مرة وأنا اقول لها لا تناديني شوشو . . . وهي ما هي راضية تسمع مني . .

وردت رجاء ، بكل ما في عواطف الاخوة من محبة واخلاص :

ـ اصل ماعندنا غيرك ياشوشو يا خويا . . ابغى ادلعك . .

وتدخل الاب في الحديث :

ـ وبعدين بقى ؟ تبغوا تعملوها سيرة ؟ اسكتي يا رجاء يابنتي الله يهديكي خللينا نسمع منه ايش صار معاه في امريكا . .

وتحدث هشام واصغى الجميع في لهفة . .

حدثهم عما جرى معه منذ أن ركب الطائرة متوجها إلى لندن ، وحتى عاد من امريكا إلى المملكة ، لم يترك شيئاً من التفاصيل إلا وذكرها ، ولكنه اغفل ـ عامداً ـ قصة الفتاة الاميركية باتريشيا ، لانه قدر بأن هيا لن تتقبلها بارتياح ، رغم انه كان ملتزما حدود اخلاقه وتربيته ، ولم يتجاوز هذه الحدود على الاطلاق ، ولكنها ـ كأية انثى ـ لن ترضى بأن يروي لها ، على مسمع من العائلة ، تفاصيل علاقته الغريبة مع تلك الفتاة ، ولكنه ـ بالمقابل ـ لم يكن ينوي كتمان هذه القصة ولكنه آثر ان يتركها إلى فرصة اخرى وربما عرّف هيا على الفتاة الاميركية عند مايذهبان معا إلى امريكا . . وعندها ستكون هيا أكثر تفهما لتلك العلاقة البريئة العابرة التي ربطت شكليا بينه وبين باتريشيا . .

وكانت كل جملة ينطق بها هشام تثير تعليقات شتى من السامعين ، فهم لم يقتنعوا بكثير مما رواه لهم من تفاصيل عن الحياة الاميركية ، المحكومة

بالمادة ، والتلفزيون ، والترف الزائد عن المعقول ، حتى باتت العلاقات الانسانية في مرتبة متدنية عن تلك التي نعرفها في بلادنا . .

وأضاف هشام :

– تصوروا ان العلاقات العائلية في حكم المعدومة هناك . . كل فرد مسئول عن نفسه ، ويندر ان نجد شابا او فتاة يعيشان في كنف اهلهما متى بلغا سن الثامنة عشرة . . يندر ان نجد ابنا يتكفل بابيه في شيخوخته . . انهم يقيمون مؤسسات تضم المتقدمين في السن من الجنسين يقضون فيها ماتبقى من حياتهم ، تصوروا ان زميلي في الغرفة « توم » قال لي مرة انه يريد ان يزور جده لأمه . . حسبت بادىء الامر انه سيزوره في بيت العائلة ، كما هو الحال عندنا ، ولكنه قال لي بكل بساطة ان جده يقيم في مأوى للعجزة ، وحين لاحظ عليّ معالم الذهول والدهشة ، سألني بتلك البساطة الاميركية التي تثير الغيظ احيانا « وانتم كيف تعاملون آباءكم واجدادكم ، وامهاتكم وجداتكم » فقلت له بلهجة لم تخل من شيء من الحدة : اننا نجلهم ونحترمهم ونتفانى في خدمتهم طول حياتهم ، لهم المقام الأول في بيوتنا ولهم الافضلية القصوى في العائلة ، ولايمكن ان نتصرف بشيء من غير موافقتهم ومشورتهم ، وكل مانكسبه نضعه بين ايديهم يتصرفون به كما يشاؤون ».. وبدا لي عندها ان الذهول قد انتقل مني إليه ، فهو لم يستطع ان يفهم كيف يحدث ذلك . .

وعلق الاب بتؤدة وهو يسمع هذه المعلومات الجديدة عليه :

– بارك الله فيك يابني . . الواقع ان هذا هو الفارق الأساسي بين المجتمع الاسلامي والمجتمعات الاخرى ، والمادة هي آخر مايمكن ان نفكر به في علاقاتنا العائلية . . انه امر الله تعالى الذي حض على بر الوالدين وعلى التواد والتحاب والتراحم بين ابناء الدين الواحد . . فكيف بين ابناء الدم الواحد ؟ . .

وهزت الام رأسها في تعجب وقالت معلقة :

ـ الحمد لله على نعمة الاسلام يا ولدي . .

ـ صدقت يا أماه . . . صدقت . .

٦٨

بعد أيام توجه هشام ، تصحبه هيا ، إلى حائل حيث قدم تحيته واحترامه للشيخ عبد الله والد هيا ، والتقى بزميله العزيز ناصر الذي كان فرحه بلقاء هشام يفوق كل وصف ، فقد تكرر عند زيارة هشام وهيا لحائل نفس ماحدث عند وصول هشام إلى مكة . . وصول مفاجىء من غير سابق علم ، ودهشة مفاجئة ، ثم ترحيب حار ، وعتاب على عدم اخبارهم مسبقاً بوصوله ، ثم سيل من الاسئلة يتناول تفاصيل حياته في امريكا ، وكيف كانت الدراسة وكيف استطاع التعامل مع المجتمع الاميركي ، إلى غير ذلك من التفاصيل التي يستقبل بها ـ عادة ـ كل عائد من رحلة طويلة في الخارج . . .

وفي سهرة عائلية بمنزل الشيخ عبد الله راح هشام يعيد مرة أخرى رواية ما جرى معه بايجابياته وسلبياته على السواء ، واختتم حديثه وهو يرمق هيا بطرف عينه مخاطبا ناصر :

ـ خلاص ، توبة ياناصر إذا كنت اتحرك خطوة واحدة دون ان تكون هيا معي ، ليس يعلم إلا الله ماعانيت . . .

وقال له ناصر باسما :

ـ صدقني ان هذا كان رأيي منذ البداية . . ولكنني لم أشأ ان اقوله لك بعد أن لاحظت انك كنت مقتنعا بقرارك ، بالذهاب وحيداً ، كل الاقتناع

وعلى كل حال . . الحمد الله ، هأنت معنا مرة أخرى على اتم صحة . . وللك ان تقرر ماتراه عند عودتك لبدء الدراسة للماجستير . . .

ورد هشام بسرعة :

– لقد قررت واتكلت على الله ، منذ ان وطئت قدماي مدينة لندن . . هل تصدق هذا ؟ يعني انني اكتشفت خطأي لحظة ان نزلت من الطائرة السعودية وشعرت بأنني تركت قلبي معها . . .

وكانت معالم السعادة ترتسم على وجه هيا وهي تستمع إلى هذا الكلام ، فهي قد استجابت لرغبته ، في ان تبقى في المملكة خلال غيابه ، رغم ماكلفها ذلك من ألم ودموع وقلق ، ترجو من الله الا يعيدها مرة أخرى . .

ولم يكن هشام نفسه بعيداً عن هذا الاحساس ، فقد قدر لهذه الزوجة الوفية موقفها منذ البداية ولم ينس يوم راحت تنشج على كتفه بعد ان استمعت إلى تلك الاغنية التي تتحدث عن ألم الفراق والشوق ، ولم ينس كذلك محاولاتها للتجلد والتسلح بالشجاعة وهي تراه يستعد للسفر ، فتساعده فيه ، باعداد حقائبه ، وتدارك لوازمه ، ودموع اليمة قد تحجرت في مقلتيها ، قد منعتها من الانسكاب بقوة الارادة ، وصدق الوفاء . .

وكان الشيخ عبد الله يستمع إلى هشام ، ويسأله بين الحين والحين سؤالا يستوضح فيه عن احدى النقاط التي غمضت عليه ، ويهز رأسه في أسف ، إذ يروي له هشام الاسلوب الغريب الذي يدير آلة الحياة الاميركية ، إلى جانب الامور الاخرى التي تختلف عن حياتنا وتقاليدنا ونمط سلوكنا كل الاختلاف . .

وعلق الشيخ عبد الله في ختام الحديث :

ـ الحمد لله الذي منّ علينا بنعمة الاسلام . . واعطانا من القيم الاخلاقية مالا يستقيم لامة حال بدونها . . . فلا تغرنك ، يابني ، مظاهر الحضارة التي تبهر السذج وتصرفهم عن الجوهر . . الحضارة اخلاق قبل كل شيء . . فبالاخلاق اقمنا نحن حضارتنا السالفة ، وبالاخلاق نستعيد ، باذن الله ، امجادنا وعزتنا . .

٦٩

قضى هشام في حائل قرابة اسبوعين ، كان خلالهما موضع الحفاوة والتكريم ، من أهل زوجته ، ومن زملائه السابقين في العمل ، ومن قائد المنطقة الذي هنأه بحرارة على النتائج الممتازة التي حققها ، وحثه على مواصلة الجهد ، ليكون عند حسن الظن به ، ويرفع من مستواه العلمي والفني بما يخدم به بلاده في الحقل الذي تخصص فيه . .

وخلال ذلك ، كانت هيا في منتهى السعادة ، واقصى درجات الفرح والحبور . . كانت تكاد لاتصدق ان الزوج الحبيب قد عاد ، وأن أيام الوحدة التي عانتها قد زالت ، وكانت تشعر بقلبها يخفق في صدرها بقوة وهو يحدثها عن حياتهما المقبلة في امريكا ، وكانت تقول له باستمرار :

ـ لا يهمني انني ذاهبة إلى امريكا او سواها . . انني سعيدة لان وجودك يسعدني ولان وجودي يسعدك . . ولو خيرتني لاخترت البقاء في بلادنا . . . فهنا ولدنا .. وهنا عشنا . . . وهنا اعتدناعلى طريقة حياتنا التي نفخر بها ونعتز . .

كانت تضغط على يديه بيديها ، وهي تروي له كيف كانت أفكارها تحوم حوله باستمرار ، وكيف كانت تتساءل ـ كما توقعت ـ في كل لحظة عن حاله وكيف يعيش . . وكيف يتدبر اموره ، وكانت سحابة من الخوف

الشديد تغشى جبينها كلما تذكرت حادثة الطائرة التي رواها لها ، والخطر الذي تعرض له . . .

وقالت :

– منذ أن رويت لي تلك الحادثة المروعة وانا أحاول ان اتذكر ماذا كنت افعل في تلك اللحظة . . اتراني كنت جالسة على مقعد ، آمنة ، اسمع الراديو أو اقرأ في كتاب . . أم لعلني كنت نائمة على سريري . . ام كنت في زيارة لاحدى الصديقات وانت معلق بين الأرض والسماء ؟ آه ياهشام لو كنت معك لحظتها لما خفت ابدا ، فالاعمار بيد الله ، ولكنني لا أقبل لنفسي ان اكون في أمان بينما انت تعايش الخطر والقلق . .

وأجابها هشام وقد لمعت عيناه ببريق السعادة :

– صدقيني انني لم أشعر بذرة من الخوف في تلك اللحظات . . وهذا ما أدهش الرجل الاميركي الجالس إلى جانبي . . كنت – اذ ذاك – افكر فيك . . وفي أهلنا . . وفي ديارنا . . وكنت على ثقة من أن الله تعالى لن يضيعني ولن يحرمني ، بعونه ، من أن أراك وأراهم مرة أخرى . . وها نحن معاً كما ترين . .



لم تكن هيا كثيرة الحماسة للرحلة المزمعة إلى الولايات المتحدة مع زوجها فهي قد ألفت الجو الذي نشأت فيه بحائل ، ولم تشعر بكبير فارق حين صارت تتنقل ما بين حائل ومكة المكرمة فنمط الحياة هو ذاته في جوهره ، والاهل هم الاهل ، والناس هم الناس ، أما الانتقال إلى جو آخر ، كذاك الذي كان هشام يتحدث عنه ، فلم يكن يروق لها كثيراً ، وازدادت نفورا منه عندما

سمعت احاديث زوجها ، وتوقعت ان تجد صعوبة شديدة في التكيف مع هذه الحياة .

كانت لا تمانع في ان تذهب مع هشام إلى اي مكان من العالم ، فهي لاترغب في ان تفارقه ، ولو لحظة واحدة ، بعد الآن . .

وفي نفس الوقت كان في داخلها نوع من التشوف والتوق إلى الحياة الجديدة التي توشك ان تلج غمارها ، ولكنها تتوجس خيفة منها . .

وخلال ذلك كان هشام يستكمل اجراءات السفر ، ويستخرج الوثائق اللازمة ، حتى بات كل شيء مهيأ للرحيل . .

وقضى الزوجان آخر ليلة لهما بحائل ، في سهرة عائلية امتدت حتى الساعات الأولى من الصباح ، وكان الوداع اليما بالنسبة لها وهي التي لم تفترق عن أهلها قط الا تلك الايام القليلة التي قضتها في مكة بعد زواجها .

وهمست لها امها وهي تعانقها بقوة ، وتضمها إلى صدرها كطفلة صغيرة انها ترجولها ان يرزقها الله بطفل يملأ عليها حياتها ، ويسعدها بأن تسمعه يناديها « جدتي » وتضرج وجه هيا بحمرة قانية وهي تجيبها بنفس الطريقة الهامسة ، انها تشاركها هذه الامنية وانه لا فارق لديها ان كان الطفل ولدا ام بنتا . .

وضحكت الام ، ومسحت دموعها ، وراحت تودعهما بعبارات الدعاء بالتوفيق ، والنجاح ، والامنيات الطيبة . .

وتكررت الصورة نفسها في مكة ، حيث قضى الزوجان ليلة اخرى ، تبادلت فيها – وزوجها – الاحاديث مع أهل هشام ، وأصغت إلى كلام ام

هشام الهامس التي تمنت لها نفس الامنية التي سمعتها من امها ، فابتسمت وهمست في اذن حماتها بمشاركتها لها هذه الامنية .

وقال هشام ضاحكا :

ــ ايش الحكاية يا أمي ؟ الوشوشة شغالة بينك وبين هيا ؟ . . .

فقالت له الام على الفور :

ــ اسكت يا ولد . . هذه احاديث نساء . . لا يجوز لك ان تسمعها . .

وهكذا انقضت الليلة دون ان ينام أحد ، ففي الصباح الباكر سيغادر الزوجان مكة في طريقهما إلى جدة ، ومنها إلى تلك القارة الاخرى التي حدثهم عنها هشام احاديث بدت لهم غاية في الغرابة واثارة للاستغراب والدهشة . .

٧١

كان هشام يشعر بسعادة غامرة ، وهيا تجلس إلى جانبه في الطائرة التي اقلتهما من جدة في طريقها إلى لندن . .

كان يبدو عليها شيء من الارتباك ، تحاول ان تخفيه بابتسامة مغتصبة ، ولم يستغرب هشام ذلك ، فقد مرّ بهذه التجربة من قبل ، وهو الرجل ، فكيف اذن بفتاة مثل هيا ، لم تغادر حائل من قبل الا مرات قليلة داخل المملكة ؟ . .

وكان هشام يحاول دائماً ان يوجه انتباهها إلى مايجب ان تفعله فتطيع ونفس الابتسامة المرتبكة تبدو على وجهها . . .

أما هو ، فكان يتصرف بثقة تختلف كل الاختلاف عن تصرفه يوم اجتاز الطريق نفسه قبل الآن ، كما ان شعور الوحشة الذي ملك عليه مشاعره ــ قبلا ــ

قد خف كثيراً ان لم نقل انه قد زال ، فهو – هذه المرة – يجلس إلى جانب هيا ، ولا يفصله عنها شيء . وهو – هذه المرة – قادر على أن يتحدث بخواطره بصوت مسموع ، بعد ان كان في المرة الماضية يخاطب نفسه ولا أحد يسمعه .

هذه المرة – حدث هشام نفسه – ليس مضطرا لان يبحث عن وجه هيا في الفضاء الرحب البادي امامه من وراء زجاج نافذة الطائرة ، ولا ان يجد نفسه مجبراً على تبادل الحديث مع اشخاص لايعرفهم . .

وتنهد بارتياح واسترخى على مقعده في سعادة ، واصغى إلى تعليقات هيا التي كانت تهمس له بها بين الحين والاخر ، فاما ان يجيب بايماءة من رأسه ، أو يرد بابتسامة أو يعلق بكلمات قليلة . فهو – في داخله – يريد ان يستمتع بهذا الشعور الغريب من الاطمئنان ، الذي افتقده – ايما افتقاد – في رحلته الأولى . .



وسار كل شيء على مايرام : وصلت الطائرة إلى لندن ، وهبط الزوجان منها مع الركاب الآخرين ، واجتازا حواجز الجوازات والجمارك ، وصارا الآن – لاول مرة معا – في مدينة لندن .

والواقع أن هشام حرص على أن يعيد خط رحلته الأولى كما هو ، فلئن كان قد حرم نفسه في المرة السابقة من الاستمتاع بما رآه من اشياء جديدة في العاصمة البريطانية لانه لم يشأ أن يستمتع بشيء لاتشاركه هيا اياه ، فانه – هذه المرة – قد اقبل على ماتراه عيناه بشوق واهتمام وكأنه يراه لأول مرة ، وكانت هيا تحاول قدر امكانها ان تكتم دهشتها مما تراه ، فهو مختلف كل الاختلاف عما عرفته ورأته وعايشته طوال حياتها .

لم تلفت انتباهها الابنية الضخمة بطرازاتها اللندنية المتميزة ، قديمها وحديثها ، ولا نهر التيمز بمياهه الغزيرة السائرة في طريقها بهدوء وصمت ، ولا الاتوبيسات ذات الطابقين ، ولا السيارات التي تأخذ اليسار في اتجاهها بدلا من اليمين كما تعرف ، فلقد كانت قد وطنت النفس على أن ترى ، وتكتم دهشتها مما ترى ، ولقد حدثها هشام عن ذلك كثيراً وهو يروي لها مشاهداته في العاصمة البريطانية ، ولكن الذي أدهشها حقا هو تلك المناظر التي اشعرتها بالنفور والتقزز ، لاسيما أولئك « الهيبيز » الذين اطالوا شعورهم واظافرهم وبدوا وكأن اجسامهم لم تمسها مياه حمام منذ زمن طويل ، وعليهم تلك الملابس الممزقة والمهلهلة التي تعتبر من علاماتهم المعروفة ، وبعضهم قد تمدد بكل بساطة على احد ارصفة ساحة البيكاديللي ، وبعضهم كان يعزف على آلة موسيقية مستجديا القطع النقدية الصغيرة التي كان بعض المارة يرمون بها إليه ، وشعرت بالدماء تتصاعد إلى وجهها حتى لتكاد تلهبه ، وهي ترى إلى فتى وفتاة يتعانقان على حافة احدى الحدائق وكأنهما وحدهما في غرفة منعزلة غير آبهين لاحد ، بل ان احدا لم يأبه لهما فالناس يمرون بهما دون ان يكلفوا انفسهم عناء القاء نظرة عليهما ، ووجدت نفسها تتوقف رغماعنها على مبعدة من ذلكما « العاشقين » ولكن هشام جذبها من يدها وقال لها بسرعة :

– اياك ان تتوقفي ، انهم يعتبرون التوقف امام مثل هذه المظاهر نوعا من التدخل في الامور الشخصية للاخرين . .

– امور شخصية ؟ ...

هتفت هيا بسرعة ، رغما عنها ، وقالت بلهجة غاضبة وهي تواصل السير إلى جانب هشام :

– اما كان بامكان هذين المخلوقين ان يجدا مكانا يتستران فيه على الاقل بدل ان يفعلا ذلك امام المارة ... ؟

وقهقه هشام ، وقال لها :

ـ تشبيه جميل . . وتساؤل في محله . . ولكن القوم هنا لايهتمون لهذه الاشياء . . انها ليست عيبا في نظرهم . العيب ، عندهم ، هو أن يتوقف انسان ليتفرج . . انهم يعتبرون ذلك نوعا من الفضول غير المحبب . .

وقلبت هيا شفتها ، وهزت رأسها في غير اقتناع :

ـ انني لا أستطيع ان افهم هذا المنطق العجيب . .

وسار هشام بها إلى احد المقاهي وهو يقول ضاحكا :

ـ ايه . . سوف ترين من امثال هذا المشهد ، وافظع منه ، شيئاً كثيراً ، وعليك ان تتمالكي اعصابك دائماً ، وان تمري بها دون أن تعيريها اي اهتمام ان هذا يعتبر من علامات التحضر . . اما التوقف وابداء الدهشة فانها دليل على التأخر والفضول والتدخل في امور الاخرين .

وجاس الاثنان في المقهى ، وطلب هشام فنجانين من الشاي ، وهيا تفكر فيما سمعت ورأت منذ نزلا في الفندق ، ووضعا امتعتهما ، ثم خرجا يتجولان ، فهشام يحس في قرارة نفسه بانه الآن في ظرف يسمح له بالاستمتاع بالمدينة الجميلة ، رغم الخلاف العابر الذي وقع بينه وبين زوجته لحظة ان عزما على الخروج . . كانت هيا تريد الخروج بعباءتها السوداء ، التي كانت تلف اعلاها حول رأسها بطريقة انيقة ، ولكن هشام رفض ، واصر على ان تخلعها ، وان تخرج بثوبها الذي كان قد اتاها به من امريكا خصيصاً لذلك . .

وصعقت هيا بادىء الامر ، وصاحت به مستنكرة ، فهي لم تعتد على الخروج بغير العباءة التي تفخر بها وتعتز ، وقال لها هشام مهدئا ، انه يشاركها

فخرها واعتزازها ، ولكنه لايريد لها ان تلفت الانظار بلباسها الغريب على تلك البيئة . . وحدثها — بمرارة — عما قاسى وكم شعر بالتمزق ، عندما وجد نفسه منذ ان غادر بلاده حائرا مابين التمسك بما اعتاد عليه ، وما بين مسايرة الوضع الجديد الذي هو فيه ، وختم حديثه قائلاً :

— ان ملابسك محتشمة جداً ، ومادمت قد رضيت لك ان تخرجي بها فهي اذن مناسبة ، لاتظني انني ارضى لزوجتي ان تكون نهبا للأنظار .. وعلينا ان نساير الامور . .

وجلست هيا على المقعد وقد ارتجفت شفتاها في تأثر بطريقة يعرفها هشام عنها ، فهي مقدمة للبكاء او هي بكاء مكتوم ، لاسيما وان الدموع قد التمعت في عينيها ، وتجمعت في مآقيها . . ثم مالبثت ان سالت على صفحة وجهها دون ان تصدر عنها نأمة واحدة . .

وتألم هشام ، ورأى انه قد قسا عليها اكثر مما ينبغي ، وانه كان عليه ان يمهد للموضوع ، بدل ان يطلبه منها بتلك الطريقة المباشرة المفاجئة . .

واستجابت هيا لرغبته ، ولكن الارتباك الشديد كان يبدو عليها وهي تخطو إلى الشارع دون ان ترتدي العباءة ، لاول مرة في حياتها ، ثم مالبثت ان شغلتها المشاهد التي رأتها : الأبنية ، النهر ، الشوارع ، الناس ، ثم . . تلك المناظر الغريبة التي اثارت استنكارها وخجلها . .

وفي المقهى ، جاءتهما الساقية بالشاي الذي طلباه ، فراحت هيا تتطلع إليها بفضول واستغراب ولاحظ هشام ذلك فقال لها بلطف باسما :

— هل ادهشك ان تعمل فتاة كساقية في مقهى ؟

— لست ادري . . ولكن يبدو لي ان هؤلاء القوم لا يحترمون المرأة . .

ـ آه . . انك تثيرين قضية اخذت من قبل وقتا طويلا في الأخذ والرد بيننا وبينهم . . انهم ينظرون إلينا نظرة لاتخلو من الاستنكار لاننا نعتبر البيت هو المكان الأول للمرأة . .

ـ هذا طبيعي . .

ـ في نظرنا نحن . . . نعم . . . ولكن في نظرهم هم المقاييس تختلف . .

ـ كيف ؟

ـ انهم ، كما تعلمين ، يقدمون المرأة على الرجل فيما يسمونه «الاتيكيت» أو قواعد السلوك ويقبلون يدها تعبيرا عن احترامهم و . .

ـ ويدعونها تعمل ساقية في مقهى يؤمه آلاف الناس . .

ـ انها من المتناقضات التي لانستطيع أن نفهمها . . فهم يعتبرونها طبيعية ونحن نعتبرها عكس ذلك . .

ـ ارجوك . . اريد ان اعود إلى الفندق . .

قالت هيا ذلك في ضيق واضح استلفت انتباه هشام ، فلم يجد بدا من مسايرتها ، فوضع ثمن ماطلباه على المائدة ، ثم خرجا متوجهين سيرا على الاقدام إلى الفندق ، وقد بدا على وجه هيا السهوم والوجوم ، وأدرك هشام مابها ، فلم يتبادلا كلمة واحدة خلال الطريق .

وفي غرفة الفندق ، راح هشام يربت على شعرها الطويل المتدلي في موجات طائشة على كتفيها وراح يحدثها :

ـ لا أريدك أن تنفري هكذا من المجتمعات الغريبة عنا . . ولا تتصوري

أن المجتمع الانجليزي بالذات كله من « الهيبيز » الذين رأيناهم . . ان لهم نظرة خاصة إلى ما يسمونه الحرية الشخصية . . وهم لايتدخلون فيها إلا إذا ادت إلى ايذاء احد . . او الاعتداء على الحقوق العامة أو الخاصة . . ولكن لهم بالمقابل تقاليد محترمة ، بعضها يبلغ درجة التزمت الذي لايتصوره العقل . . .

– انا لايهمني سوى ما أراه بعيني . وما رأيناه في الشارع لا يدعو إلى الارتياح . . ولايمكن ان يقبله انسان يزعم انه متمدن . .

– المسألة مسألة وجهات نظر كما قلت لك . . ونحن لاشأن لنا بهم على اية حال . . . وكل ما يهمني هو الا تنزعجي وان تستمتعي برحلتك . .



عندما استقرا داخل الطائرة المتوجهة إلى الولايات المتحدة ، كان هشام يحس في داخله بشيء من الامتعاض وعدم الارتياح ، فلقد اصرت هيا على ان يختصرا مدة اقامتهما في لندن ، وان يتوجها باسرع وقت إلى مقر دراسة زوجها . .

وقالت له بلهجة اقرب إلى التوسل :

– ارجوك ياهشام ان تفهمني . . انني اقدر لك عنايتك واهتمامك بي . . واشكر لك رغبتك في ان نقضي في لندن اسبوعا كاملا لكي نراها ونتجول في ارجائها ، ولكنني لا أشعر بالارتياح في هذه المدينة . . انني لا أستطيع ولا أرغب ، في ان اغير ما اعتدت عليه . . انني لم استطيع ان اهضم ، قط ، ماشاهدت ، ان لندن اكبر من حائل دون شك . . بل هي اكبر من اية مدينة في المملكة . . هذا صحيح . . ولكننا في بلادنا نشعر بالطمأنينة والارتياح . . . لنا تقاليدنا ، ونظم حياتنا ، وطرق تصرفاتنا ، وهي – في نظري – الاسلم والأفضل . . انني أري على وجهك انك لا تؤيدني تماماً . . وتؤكد علي بضرورة

التكيف مع هذه الاجواء الجديدة عليّ . . ولكنني مع رغبتي في عدم مخالفتك اقرر لك انني كنت اشعر وكأنني اكاد اختنق كلما سرنا في الهواء الطلق في لندن . .

وربت هشام على يدها ملاطفا وقال لها :

— كما تريدين ، لقد اردت ان نستمتع معا بزيارة هذه العاصمة التي يسمونها مدينة الضباب ، فلقد كنت اشعر في زيارتي السابقة لها انه لايجوز لي أن اسمح لنفسي بالاستمتاع بشيء مما أراه فيها ، لانك لم تكوني بجانبي ، والآن وقد اصبحنا معا ، فانني كنت احاول أن اعوض مافاتني في المرة الماضية ، اما وان وجودك هنا لايسرك كما كنت اتوقع ، فليكن . . سأحجز غدا على أول طائرة متجهة إلى امريكا . .

ووقف الحوار بينهما عند هذا الحد ، ولم يعودا إلى الحديث عنه ، بل ان هيا اكتفت بأن اشرق وجهها بارتياح حين جاءها في الغد وقدم لها تذاكر الطائرة وعليها الحجز المطلوب . .

وكان لدى هشام الكثير مما يريد ان يقوله لها ازاء موقفها ذاك ليشعرها بأنه يقدر ماتشعر به لانه سبق ان عانى منه ، ولكنه كان يتمنى — في رأيه — لو انها استفادت من تجربته ، ووفرت على نفسها متاعب المعاناة ، مابين اسلوب معين من الحياة اعتادت عليه ، وما بين اسلوب آخر يترتب عليها ان تعايشه وتتكيف معه طوال مدة الابتعاث . .

واختلس هشام نظرة إليها وقد اسندت رأسها إلى مقعد الطائرة وعيناها مغمضتان ، ثم تنهد في استسلام ، واغمض عينيه هو الآخر . . فان عليه ان يوطن النفس على احتمال هذا النوع من الخلاف إلى ان تألف هيا الجو الجديد الذي ستعيش فيه ، وعندها سوف تتغير — كما يتوقع — بصورة تلقائية . .

٧٤

ولكن ما توقعه هشام لم يتحقق . .

فلقد تبين له بعد ان وصلا إلى منزلهما في « لانسنغ » ، وهو المنزل الذي كان قد أعده قبل سفره ، ان هيا ترفض الاندماج في الحياة الجديدة التي اخذها إليها . .

لقد أعادت هيا إلى حياته ما كان ينقصها ، وهو وجودها هي نفسها إلى جانبه ، واشرافها على شؤونه ، واعدادها للمآكل المفضلة لديه ، وتهيئتها للجو الحميم الذي كان يسود بيتهما في حائل ، ولكنها — ابداً — لم تتجاوب معه كلما عرض عليها ان تغير شيئاً مما اعتادت عليه . .

ولأول مرة منذ زواجهما يقع بينهما خلاف حاد ، يتشبث كل منهما فيه بموقفه ، وذلك عندما أبلغها بانهما سيسهران تلك الليلة في منزل احد زملائه المبتعثين السعوديين المتزوجين ، فلقد اصرت على ان ترتدي ملابسها الطويلة التي اعتادت عليها ، ولفت رأسها بشال اسود . .

وقالت له بلهجة مداعبة :

— يكون في علمك . . . اجلس انا وزوجة زميلك هذا في غرفة وتجلس انت معه في غرفة اخرى . .

وشعر هشام بالغيظ ، وقال لها بشيء من الحدة :

— يابنت الناس افهميني . . . سوف يضحكون علينا . .

— يضحكوا او ما يضحكوا هم احرار . . والا فأنا أفضل انا أبقى . .

— وهذه الملابس التي ترتدينها ؟ . . .

— ما لها ؟ . .

ـ هل رأيت منذ وصولك إلى هنا امرأة تلبس مثلها ؟ . .

ـ هذه هي الملابس التي اعتدت عليها . . فجسدي ملك لزوجي فقط . . وعلي ان اخفيه بهذه الملابس كما تعودت . . .

وفتح هشام فمه يريد ان يتكلم ، ولكنه اطلق زفرة حرى تدل على الغيظ الشديد ، وقال لها بلهجة اقرب إلى التأنيب :

ـ أين الملابس التي اشتريتها لك في لندن ؟ . .

ـ انها موجودة طبعاً . .

ـ ألم تعجبك . .

ـ جداً . .

ـ لم لاترتدين شيئاً منها في زيارتنا هذه ؟

ـ انها قصيرة بعض الشيء . . ولا أستطيع ارتداءها الا في المنزل . . .

وصمت هشام ، اذ لم يشأ أن تصدر عنه كلمة تجرح زوجته ، فهو يدرك الاسباب والخلفيات التي تجعل زوجته تعارضه ، لاول مرة ، ولكنه لم يكن يتمالك نفسه من الشعر بالغيظ لاصرارها على موقفها . .

وأرخى هشام رأسه على صدره واجما ، فاقتربت منه هيا ، وجلست على مسند المقعد وقالت له بلطف :

ـ زعلت مني ؟

ـ أبدا . . ولكن تصرفاتك هذه . .

ـ مالها ؟

ـ انها . . انها ، بصراحة ، تغيظني . .

ـ وهل فعلت او قلت ما يخالف واجبي كزوجة . .

ولم يتمالك هشام نفسه ، فضحك رغما عنه ، ولكنها ضحكة المغلوب على امره ، الذي لايعرف كيف يوضح لها الامور . .

وبالمقابل ، لم يكن له عليها مأخذ يبرر غضبه ، فهي ـ من قبل ومن بعد ـ زوجته الحبيبة التي طالما افتقدها وهو في بلاد الغربة . .

وقال لنفسه :

ـ لعلها تحتاج إلى وقت اطول كي تقتنع . . وتتكيف مع هذا الجو . .

وتنهد في استسلام . .

وضحكت هيا لتنهده هذا ، فان معنى هذا أن الموضوع قد انتهى ، فقالت له :

ـ شفت ؟ . . انك توافقني في قرارة نفسك . .

ـ خلاص . . انتهينا . .

ـ هل رضيت . . .

ـ أرجوك . . دعيني الآن . .

ـ اكرر . . هل رضيت ؟ . . .

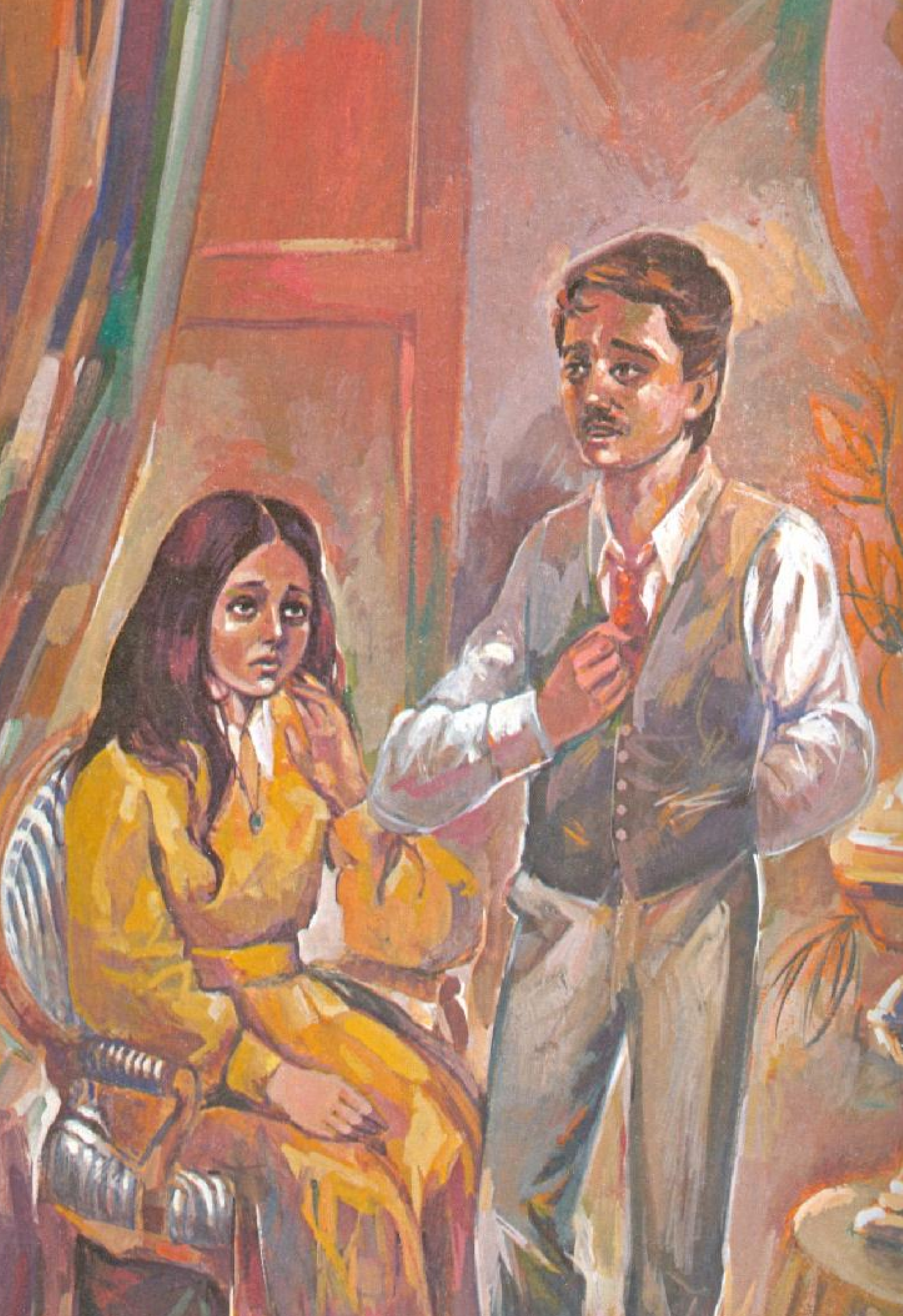
ـ اجل . . . رضيت . .

ـ اذن اسمع . . اريد منك شيئاً . .

ونظر إليها متسائلا . . لأن لهجة الحماسة التي قالت بها جملتها الاخيرة قد أثارت استغرابه ...

وأردفت هيا تقول :

ـ اريدك أن تأتيني بكتب وتسجيلات لتعليم اللغة الانجليزية .. أنت تعرف



اني قد درست هذه اللغة في « التوجيهي » ولذا فاعتقد ان بامكاني ان استأنف دراستها بسهولة . . طبعاً لا أريد أن آخذ من وقتك كي تعلمني انت . . فقط اريد منك أن تأتيني بالكتب والتسجيلات . . وسوف ترى النتيجة بنفسك . .

وابتسم هشام في سعادة ، فقد نسي غضبه تماماً ، وومض في قرارته ذلك الشعور بالاعجاب والتقدير تجاه هذه الفتاة ذات الروح العالية . . والتي لاتتوقف امام الصعوبات . . وهو لاينسى ، ولاينكر ، انها هي التي كانت قد فاتحته في موضوع البعثة بعد زواجهما بزمن وجيز ، ورفع نظره إليها ، فرآها تنظر إليه بلهفة شديدة وكأنها طفلة صغيرة تنتظر من أبيها الاذن بشيء . .

وتناول يدها بين كفيه وقال باسما :

– ماأدري ياهيا .. هل كل البنات مثلك .. أم انك نسيج وحدك بينهن؟..

وردت بمثل ابتسامته :

– استغفر الله يا باشمهندس . . ما أنا الا فتاة بسيطة تحاول أن تكون جديرة بمهندس عظيم . .

ثم تنهدت بارتياح ، فلقد مرت الازمة بسلام . .

ورأى هشام من جانبه ، ان يعتذر عن الزيارة المقررة ، إذ لم يستطع ان يتصور كيف يمكن ان يذهب مع هيا إلى السهرة ، ثم يطلب من مضيفه أن تبقى هيا مع زوجته وحدها . .

ورفع سماعة التليفون ليتصل بزميله وهو يقول لهيا بصوت جهد ان يكون هادئا قدر الامكان :

– أرى أن نعتذر عن عدم القيام بالزيارة . .

ثم اردف بسرعة قبل أن تتألم هيا من تصرفه هذا :

ـ علينا أن ندرس مشروعك الجديد هذا . . اعني مشروع تعلمك للغة الانجليزية ونضع له الترتيبات اللازمة .. ويمكن أن نلبي الدعوة في وقت آخر...

وراح يدير قرص التلفون وهو يتساءل في سره . . ترى هل عرفت السبب الحقيقي ام لا ؟ ونظر إليها ولكن وجهها كان هادئاً فراح يتساءل في نفسه :

ـ اتراها فهمت وتجاهلت . . ام انها صدقت المبرر الذي اختلقته لها ؟

ورجح ، في داخله ، ان تكون قد فهمت و . . تجاهلت . .



جلس هشام وحيدا في ركن من (الكافتريا) التي كانت تغص بالطلبة من الجنسين ، ومع أن الضوضاء واصوات الملاعق والاطباق ، وصوت الموسيقى المنبعث من (الجوك بوكس) يكاد يصم الآذان ، إلا أن هشام كان مشغولا تماما عما حوله ، ولا يكاد يسمع منه شيئاً . .

كان يحاول ترتيب افكاره ، والتوصل إلى رأي او موقف فيما كان يعتبره « مشكلة » لم يحسب لها حسابا . .

كانت هيا ، هي مدار تفكيره . .

انه يشعر ، في قرارة نفسه ، انه قد بدأ يضيق اكثر فأكثر بتصرفاتها التي اصبحت ، ولاول مرة منذ أن تزوجا ، تسبب شيئاً من الخلاف ، والجدل بينهما . . فهي تصر على موقفها تجاه كل محاولة منه لاقناعها بأن تتكيف ولو بعض الشيء مع الجو الذي تعيش فيه ، كان يعتقد بأن التجربة التي مر

بها قبلها ، ستجعله قادرا على أن يأخذ بيدها لاتقاء المواقف المحرجة والمؤلمة التي واجهها عندما وجد نفسه في هذا الجو الغريب عنه ، ولقد بذل جهداً عظيماً للتكيف ، والتلاؤم ، واستطاع ان يبـــدو امام زملائه وزميلاته انسانا طبيعيا مثلهم ، بعد ان كان يبدو لهم من قبل وكأنه قادم من عالم آخر ، يرونه غريباً ومثيراً للدهشة والاستغراب . .

انه لم يتخل عن شيء من مبادئه الاخلاقية التي تربى عليها ، واستطاع ان يمر بكل التجارب المريرة بنجاح ، وان كان ذلك على حساب اعصابه وراحته النفسية ، واستطاع ان يقاوم كل المغريات التي تعرض لها ، والتي يعتبرها منافية لاخلاقه وتربيته ، وان يفرض موقفه هذا على جميع الزملاء والزميلات ، وان يجبرهم على قبوله كما هو ، الا أن هذا لم يمنعه من مشاركتهم نشاطاتهم وحفلاتهم ورحلاتهم ، خلال الفترة السابقة ، حتى توصل إلى الاسلوب السليم للتعامل معهم بشكل لا يثير فيهم اية دهشة كما كان يحدث بادىء الامر . .

ولقد حاول أن يجعل هيا تبدأ من حيث انتهى هو ، وان تتصرف في هذا البلد الغريب عنها بحيث تكون تصرفاتها طبيعية . . ولكنها — ويالللاسف — تأبى ذلك ، وتصر — كما كان يصر هو في البداية — على التقيد بما نشأت عليه وماكان يسبب له مايراه احراجا جعله ينقطع عن كثير من الزملاء والزميلات وان يقضي معها اغلب الامسيات في المنزل ، مع انه كان يأمل في ان يعوضها عن بقائها وحيدة طول النهار ، بسهرات يقضيانها في مطاعم او مقاه ، أو زيارات لبعض الزملاء أو مشاركة في احدى الحفلات . انها لم تكن تمانع في ذلك ولكنها كانت تتمسك بارتداء ملابسها على النحو الذي اعتادت عليه . .

وبالامس فقط ، تفاقم الخلاف بينهما حول هذا الامر على نحو فاق كل ماسبق ، وكان هذا هو سبب جلوس هشام — الآن — مهموما يفكر . .

كانا قد اتفقا على الخروج مساء ، وغاب هو في الكلية طوال اليوم ، وعاد في آخر النهار ليذهبا معا إلى حفلة اقامها بعض الزملاء . .

ونظر إليها بدهشة ، اذ رآها ، وقال لها بصوت حاول ان يكتم رنة الغضب فيه قدر الامكان :

ـ ماهذا ؟

ـ ماذا ؟ . .

ـ شعرك . .

ـ ماله ؟

ـ الاتدرين ؟ ماهذه اللفة التي تضعينها على شعرك . .

ـ مابها ؟

سألته بهدوء تام ، دل على انها تدرك مغزى سؤاله ، ولكنها تتجاهله عن قصد علّه يفهم مقصدها . .

ـ انك ستكونين موضع سخرية بهذا اللباس ؟

ـ اتظن ذلك ؟

ـ ماذا تظنين انت اذن ؟

واقتربت هيا منه ، وامسكت بذراعه وقالت له في لطف شديد :

ـ اصغ الي ياحبيبي . . انا امرأة اعتادت على نمط معين من الحياة . . من القيم . . وملابسي هذه هي جزء من حياتي وقيمي . . انني لاشاركك الرأي في انني سأكون موضع سخرية بذلك . أنا أعتقد العكس . . وانهم سيحترمون فيّ احترامي لقيمي ، وكان يمكن ان اكون موضع سخرية فعلاً لو انني لبست كما يلبسون . . فأكون بذلك كالغراب الذي ما اصبح طاووسا ولا بقي غرابا . . . هل تفهمني يا هشام . . .

وصاح هشام بغضب مفاجىء :

ـ لا .. لا .. لأفهمك . ولا أريد ان افهمك . . انا لم اكن اظن انك معقدة بهذا الشكل .. انك ستجعلينني موضع سخرية بآرائك هذه . . الا يكفي انهم مازالوا يعتقدون اننا بدو جاؤوا من الصحراء ؟ . .

ـ وماذا في ذلك؟ نحن فعلاً بدو . . ومن باديتنا نبع اساس حضارتنا ... اننا نأخذ من حضارتهم مايفيد وليس كيفما اتفق . . هل نسيت ، انت ، مواقفك التي رويتها لي عندما كنت وحدك هنا قبل اشهر ؟ . .

ـ ولكنني عانيت كثيراً كما تعلمين . .

ـ وانتصرت . .

ـ وهأنت الآن تريدينني ان اعود إلى نقطة البداية ، ليتهامس القوم فيما بينهم عن زوجتي التي تأبى ان تتصرف ، وتلبس ، مثلهم . . بصورة حضارية . .

واتسعت عينا هيا بذهول ، وانهمرت الدموع من عينيها وقالت في لوعة وألم :

ـ هشام . . انت تقول هذا ؟ هل تسمي احتشامي . . همجية . . أوعدم حضارة ؟ . .

ـ أنا لم أقل ذلك . .

وهرعت هيا الى غرفة النوم ، وأغلقت بابها عليها ، وارتمت على السرير لتطلق العنان لدموعها وليصل صوت بكائها إلى هشام الذي فوجىء بحركتها هذه ، فجمد في مكانه مشدوها بادىء الامر ، ثم تهالك على كرسي ووضع

رأسه بين كفيه وقد انتابه اسف عظيم ، فهو لم يكن يتوقع ، ولم يكن يريد طبعاً ، ان تصل الامور إلى هذا الحد . . ولكنه كان يشعر بالغضب لاصرار هيا على مخالفته في كل ما يتعلق بهذه المسألة . .

ونهض واقفا ثم اتجه إلى غرفة النوم ، فوجد هيا تنهنه في بكاء صامت ، وقد وضعت منديلها بين اسنانها . . .

وقال لها برفق :

ــ أنا آسف . .

ــ لم أكن أتوقع أن اسمع منك هذا الكلام ياهشام ... هذا آخر ما كان يخطر ببالي . . .

ــ اكرر اسفي . . وحقك عليّ . . والآن هلا ابدلت ملابسك لنذهب إلى الحفلة ؟ . .

ــ ولكن . .

ــ أرجوك . .

وعاد الغضب يجتاحه مرة أخرى ، فقال لها بلهجة وعيد :

ــ سأذهب وحدي . .

ــ مع السلامة . .

وفعلا ذهب وحده ، ولكنه ظلّ كئيبا طوال الوقت ، فقد كان نهبا ما بين تأنيب الضمير على ما تسبب به من ألم لزوجته التي لم ير منها الا كل مايريد اي زوج من زوجته من محبة ورعاية ، وبين الغضب الجامح بسبب اصرارها الشديد على التمسك بموقفها . .

ولم ترق له الحفلة ، وهو يتذكر انه ترك زوجته والدموع تنهمر من عينيها ، فغادر المكان وعاد إلى الشقة ليجدها جالسة وراء طاولة المكتب تتابع دروس اللغة الانجليزية . .

وابتسم رغما عنه ، لاسيما حينما رفعت عينيها عن الكتاب ، واوقفت آلة التسجيل التي كانت تصغي إلى الدروس منها ، وابتسمت وقالت له بلهجة مرحة وكأن شيئاً لم يكن :

– الحمد لله على السلامة . .

وقال لها بشيء من الاستغراب :

– ما انتي زعلانه مني ؟ . .

فقالت والابتسامة لاتزال على شفتيها :

– ايش الفايدة من اني ازعل وبعدين نرجع نتصالح ؟ . . قلت اختصر الطريق وانسى ماحدث . . .

وبالفعل بدا عليها وكأنها نسيت – او تناست – ماحدث . . فقد نهضت على الفور وراحت تعد له العشاء بعد ان ذكر لها انه لم يتناوله في الحفلة ، وانه عاد لشعوره بالضيق . .

وكان مايؤلم هشام ، وهو في جلسته في الكافيتيريا ، مستعيدا ذاك الذي حدث قبل أيام ، انه لم يتوصل إلى حل لهذا الشيء الذي اعتبره « مشكلة » والذي بات هو العنصر الوحيد الذي ينغص عليه حياته . ففي جميع الامور كانت هيا تبدو له في احسن حالاتها ، تبدي له المحبة والطاعة والرعاية . وتهتم بأموره كبيرها وصغيرها ، كعادتها منذ ان تزوجا ، وتأبى له ان يخرج إلى الكلية قبل

ان تلقى نظرة متفحصة على ملابسه لتتأكد من ان كل شيء على مايرام ، وكانت تقول له مداعبة وهي تسوي وضع « الكرافتة » او المنديل :

ـ أبغاك تكون أحلى واحد في الكلية ، علشان البنات يحبوك ، وبعدين يزعلوا لما يعرفوا انك لي انا وحدي بس ..

وتعقب عبارتها بضحكة سعيدة ، ثم تناوله حقيبة اوراقه وتدعو له بالسلامة والتوفيق . .

وتنهد هشام ، وهو يصل بأفكاره إلى هذا الحد ، ورشف آخر رشفة من قدح الشاي الذي امامه ، ثم نهض وسار متجها إلى الفصل وهو لايخلو من الشعور بالانزعاج ، لانه لم يصل إلى رأي او موقف ، ذلك انه لم يكن يتصور ان زوجته التي احبته ذلك الحب كله تقف ، وفي مثل عناد النمرة الشرسة ، موقفا سلبيا كلما ارادها ان « تندمج » في المجتمع الجديد الذي يعيشان فيه . .



كانت هيا تتنقل ما بين المطبخ وغرفة الطعام ، وهي تعد العشاء صامتة على غير عادتها ، وكان هشام يرقبها محاولا ان يتلمس على وجهها الساكن اي تعبير ينبئه عما يعتمل في صدرها ، ولكنه اخفق . . وكان تحفظها هذا شيئاً جديدا لم يألفه . . فمن قبل كانت هيا تؤدي المهمة ذاتها ، وهي تدندن بصوت خافت باحدى اغنياتها المفضلة ، وتعلق بين المقطع والآخر من الاغنية تعليقا مرحا يثير ضحك هشام ، اما اليوم فقد كانت تبدو مشغولة البال بشيء لدرجة ان هذا « الشيء » قد انساها طريقتها المحببة في اعداد المائدة . .

وحتى عندما بدآ يتناولان الطعام ، كانت هيا صامتة ، لاتتكلم الا باقتضاب جوابا على اسئلته ، ولكن الامر الذي حار له هشام كثيرا ، انه لم يكن

يبدو عليها أنها غاضبة او منزعجة ، أو ان في نفسها تجاهه شيئاً . . .

وحين جلسا يحتسيان الشاي في ركن الغرفة امام التلفزيون ، كعادتهما ، كان انتباهها — على مايبدو — منصرفا إلى الشاشة الصغيرة اكثر من انصرافه إليه . .

وشعر هشام بالقلق ، فقد كان لديه مايقوله لها ، وهو واثق من ان مايقوله سوف يثير بينهما النزاع المعتاد ، وكان يأمل في أن يبدأ الحديث بداية مرحة عله يتوصل إلى اقناعها ، ولكن صمتها وتحفظها جعلاه يحاول ان يعرف سببهما متناسيا الموضوع الذي اراد ان يفاتحها به . .

وتكلم اخيراً ، فقال بعد ان تنحنح عدة مرات :

— مالك ؟ . .

— ولا حاجة . .

— ما انتي زي عوايدك . .

— ابدا ، بس انت متهيألك . .

وعاد الصمت يخيم من جديد . .

وأطرق هشام ، وبدل من جلسته بصورة دلت على مايشعر به من قلق ، ثم نظر إليها وقال بهدوء :

— ممكن تسيبي التليفزيون ونتكلم شويه ؟ . .

فاستدارت إليه بوجهها الجامد ، وقالت له بمثل هدوئه :

— ليه لأ . . تفضل . .

— ممكن ، أولا ، اعرف ايش السبب في انك ساكتة وعابسة على غير عادتك ؟ . .

ـ تريد أن تعرف السبب حقا ؟ . .

ـ طبعاً . .

ـ وبكل صراحة ؟

ـ طبعاً . . لأن الصراحة هي اساس الثقة . .

ـ كما تريد . .

واستدارت إليه بكليتها ، وراحت تتكلم بحرارة :

ـ هل تعلم انني كنت احسد نفسي على السعادة التي عشنا فيها منذ ان تزوجنا ؟ . . كنت أدعو دائماً في سري ان يكفينا الله شر الحسد . .

ـ آمين . .

ـ وسارت امورنا ، كما تعلم ، على خير مايرام . . انت لم تقصر في احاطتي بكل ماعندك من محبة ورعاية وعطف . . وانا من جهتي حاولت ، قدر امكاني ، ان افعل مثلك . .

ـ صحيح . .

ـ وأقول لك الحق . . انني فكرت طويلا في هذا الذي يجري بيننا منذ ان وصلنا إلى هذه البلاد . . أقول لك الحق . . وأنا آسفة . . انني احس بأن شرخا قد اصاب حياتنا المشتركة . .

ونهض هشام واقفا ، وراح يتمشى في الغرفة ، وهي تتابعه بنظراتها في هدوء ، ثم قال لها :

ـ عمرك اطول من عمري . . هل تصدقين انني كنت أنوي مفاتحتك في هذا الموضوع بالذات ؟ . .

– جائز . . ولكنني ، من جهتي ، فكرت . . وفكرت طويلا . . . وحاولت ان احدد الخطأ الذي ارتكبته حتى بت تعاملني بعصبية . . وتثور في وجهي . . وتجبرني على البكاء . . لقد حاولت أن اتصابر . . . ان اتجاهل . . ان احتمل . . ولكنني ، بصراحة ، لم أعد استطيع ان احتمل اكثر من ذلك . .

وتوقف هشام عن السير وقال لها وكأن فكرة قد خطرت له فجأة على غير توقع :

– هل تعتقدين . . انه قد يكون من المناسب ان . . أن تعودي إلى المملكة ؟

وعضت هيا على شفتها ، واغمضت عينيها في ألم . . وهزت رأسها قائلة في مرارة :

– اذن فأنت ترى انني قد ارتكبت من الاخطاء مايجعلك تتخلص مني وتضيق بي ؟ شكراً لك على اية حال . .

ونهضت متحاملة على نفسها ، وغادرت الغرفة وهي تكاد تترنح ، وهشام ينظر إليها مشدوها ، فهو قد فوجىء بهذه الفكرة التي نطق بها لسانه دون تفكير مسبق ، كما فوجىء برد فعلها الذي طوى الجرح على الالم واكتفى بذلك الكلام الذي كان ، على رقته ، اشبه بطعنة خنجر . .

ووقف حائراً برهة من الوقت ، يشعر بالخجل والالم ، ولا يدري مايصنع ثم تبعها حيث وجدها قد اخفت وجهها في بكاء مكتوم ، وقال لها من غير تردد :

– هيا . . انا آسف . . سامحيني . . لقد كانت جملتي تلك هفوة جاءت

بغير تفكير . . انك تملأ ين عليّ حياتي ، هنا وهناك وفي كل مكان ، وما كان يجوز لي ان انطق بها . .

فردت بصوت اشبه بالهمس :

ــ ولكنك فعلت . .

ــ اكرر اسفي . .

وراح يربت على يديها اللتين كانتا في مثل برودة الثلج ، ويردد كلمات الاعتذار ، وما كان اشد فرحه وسروره حين اشرق وجهها بتلك الابتسامة التي يحبها منها ، والتي ترتسم على وجهها كله ، وليس على شفتيها وحدهما ، وقالت له بصوت لايخلو من أي اثر البكاء :

ــ خلاص . . دوشتني وانت تعتذر . .

فقال لها بفرح :

ــ يعني خلاص . . صافي يالبن ؟

ــ صافي يالبن ولكن بشرط . .

ــ هه . .

ــ الا تأتي بعد الآن على الاسباب التي جعلت هذا النكد يدخل حياتنا على غير توقع . .

ــ وهو كذلك . . ولكن . .

ــ ماذا . . هل تراجعت عن موقفك ؟ . .

– لا . . وانما . . هناك . . هناك دعوة وجهها إليّ الدكتور باركر . . وبالاصح وجهها لنا معا . . أنا وانت . .

– ومن هو الدكتور باركر هذا ؟ . . .

– انه احد اساتذتي . . وهناك مودة خاصة بيني وبينه . . وقد دعانا إلى حفلة صغيرة يقيمها هو وزوجته بعد غد في بيته تكريما لنا . .

– تعني انت وانا ؟ . . .

– نعم ، وهذا ما كان يقلقني . . .

– تعني انك لا تريدني ان احضر ؟ . .

– بالعكس . . .

– انا من جهتي قبلت الدعوة . ولكن بشروطي الخاصة التي تعرفها . . .

ولم يتمالك هشام أن اطلق زفرة وهو يقول :

– كما تريدين . . . كما تريدين . . . قبلت . . . ولك ان تستعدي منذ الآن لزيارة منزل الدكتور باركر .

ونهض وقد بدا عليه وكأنه قد يئس نهائيا من تغيير موقفها ، كما ضاق بما تسببت به خلافاتهما حول هذا الموقف من ظلال خيمت على بيتهما بصورة لم يعهداها من قبل . . .



لم يتمالك هشام من الاعتراف ، فيما بينه وبين نفسه ، بأن هيا كانت رائعة كل الروعة بملابسها ، وخاصة اللفة الانيقة التي احاطت رأسها بها ، وتذكر في

مثل ومض البرق أن هذا المنظر – بالذات – كان هو الذي سحره يوم لمحها لتلك اللحظة الخاطفة في بيت أبيها . .

ولكنه كتم اعجابه في نفسه ، فلعله يزيدها تمسكا بما هي عليه بينما هو يحاول بشتى الطرق ان تلبس وتتصرف كالاخريات في هذا البلد الغريب ، والذي يعتقد بأن من الافضل التكيف ، بعض الشيء ، مع اسلوب الناس في الحياة فيه . . .

وكانت هيا تجلس صامتة إلى جانبه في السيارة وهما يتجهان إلى منزل الدكتور باركر ، وما كانت تطمع في ان يبدى هشام رأيا ايجابياً في الملابس التي ارتدتها ، والتي بذلت مجهوداً كبيراً في انتقائها ، فقد كان يكفيها ان يمتنع عن انتقادها والإصرار على ارتداء تلك الملابس التي اشتراها لها من لندن والتي رفضت – وترفض – ان يراها بها أحد خارج بيتها . .

ووصلا أخيرا إلى البيت ، ليستقبلهما مضيفهما الدكتور باركر وزوجته عند الباب ، وشعرت هيا بقشعريرة باردة تسري في جسدها حين لمس الدكتور باركر يدها مصافحا ، ثم صعقت حين رأته ينحني انحناءة قصيرة ويجذب يدها إلى شفتيه يريد أن يقبلهـــا ، فأجفلت ثم سحبت يدها بسرعة وهي تبتسم بارتباك . . .

وبدا على الضيف انه فوجىء بحركة هيا تلك ، ولكنه – وهو الذي خبر الناس وقابل آلافا منهم خلال حياته في الجامعة – ابتسم ابتسامة هادئة ، واشار بيده إلى ضيفيه يعرض عليهما التوجه إلى الصالون . .

ولم يفت هيا ان تلاحظ ان هشام قد قبل يد زوجة مضيفه بعد ان صافحها ، فشعرت بالامتعاض الشديد ولكنها كتمت مابها . . وجلس الاثنان في الصالون.

ومضت السهرة بهدوء . . في جلسة احتسى فيها الجميع الشاي ، وكانت تلك لفتة جميلة من الدكتور باركر الذي استطاع ان يعرف نوعية زوجة تلميذه وضيفه ، فقد انتحى بزوجته ركنا من الصالون ، وحذرها بعبارات سريعة من تقديم اية مشروبات روحية . . .

ودار الحديث بين هشام ومضيفيه ، وكانت هيا تصغي ، وتفهم معظم الحديث ، ولكنها لم تكن قادرة على الاشتراك فيه بطلاقة ، وان كانت قد استطاعت ان تفهم ان زوجها كان يشرح لزوجة مضيفه سبب رفض هيا ان يقبل زوجها يدها .

وابتسمت المضيفة وقالت بلباقة :

– جميل يا سيد هشام أن يحتفظ كل انسان بعاداته وتقاليده . . لقد ذهبنا انا وزوجي اكثر من مرة إلى « الشرق الأوسط » . . زرنا بعض بلدانه . . ولاحظنا بطبيعة الحال الاختلاف الجسيم في العادات والتقاليد والحياة الإجتماعية بيننا وبينكم . . .

ورد هشام شاكرا لها ملاحظتها اللبقة تلك ، محاولا ان يوضح لها مزيداً من المعلومات عن طبيعة المجتمع المسلم ووجوه الاختلاف بينه وبين المجتمعات الاخرى . .

ومرت السهرة بسلام ، بعد ذلك الايضاح ، وتناول الجميع الطعام، وقضى الضيفان بعض الوقت ، ثم مالبثا ان قفلا عائدين إلى منزلهما . .

٧٨

وفي المنزل ، كانت الغضبة العارمة من الطرفين . .

لقد ضرب هشام المنضدة بعنف وهو يصيح في هيا بغضب :

ـ هل هذا تصرف يليق ياست هيا ؟ تسحبين يدك من يد الرجل ، وهو في مثل عمر ابيك ، بتلك الطريقة عندما أراد أن يقبلها ؟ . .

ونظرت إليه هيا باستغراب وقالت له :

ـ وهل كنت تتوقع مني ان اترك رجلا غريبا يقبل يدي ؟

فقال هشام بسرعة :

ـ انه في مثل عمر أبيك . .

ـ آه . . في هذه الحالة انا على استعداد لان اقبل يده إذا كان هناك داع لذلك . . ثم هل تسمح بأن تقول لي كيف تقبل يد تلك المرأة ؟ زوجته . .

ـ انها في مثل عمر امي . . وهذه هي قواعد الاتيكيت في هذه البلاد . .

ـ اتيكيت . . اتيكيت . . هذه كلمة لا افهمها . . ولا أريد أن افهمها . . يجاملون المرأة ويقبلون يدها . . ثم يتركونها للذئاب تنتهشها وكأنها لاتمت إليهم بأية صلة ؟ . . انني افضل غيرة أهلي وزوجي وعائلتي علي . . وحرصهم على سلامتي وكرامتي وشرفي .. على هذه المظاهر الخادعة التي يزعمون معها ، هنا ، انهم يحترمون المرأة أكثر منا . .

ـ والنتيجة ؟ . .

– النتيجة هي ماقلته لك . . واصررت على قوله . . انني ارجوك ياهشام ان تفهم ، وتقدر ، وضعي .. انا لاأستطيع أن افعل مثلما تفعل الاخريات هنا ، بل ولا أستطيع حتى أن ارضى عن تصرفات كهذه من قبلك انت . . انت تعرف محبتي لك . . وخوفي عليك .. لقد افترقت عن أهلي من أجلك .. واصبحت ، أنت ؛ كل شيء لي هنا . . فلا تحرجني اكثر مما احرجتني . ولا تجرحني أكثر مما جرحتني . . انت قاس ياهشام . . تريد ان تصبني في هذا المجتمع كالقالب ما بين يوم وليلة دون ان تدرك ابعاد مشاعري وتربيتي التي ترفض كل ذلك . .

وخنقها البكاء ، فغطت وجهها بيديها ، ثم رفعت إليه عينيها المخضلتين بالدموع وقالت في لهجة اقرب إلى التوسل :

– أرجوك ياهشام . . ارجوك لا تدفعني إلى هاوية الاختيار بينك وبين طبيعتي واخلاقي التي نشأت عليها . . مع انك تعرف انني احبك . . احبك . . هل تعرف معنى هذا ؟ . .

وشعر هشام بالالم الشديد وهو يرى نفسه في هذا الموقف ، تجاه زوجته الحبيبة التي وقفت إلى جانبه بكل قواها ، منذ أن ربطت الزوجية بينهما ، وعبرت له عن محبتها واخلاصها وتفانيها بمالا مجال معه إلى مزيد . .

وجلس إلى جانبها ، ووضع يده على كتفها في مودة . . وقال لها بلطف :

– انا آسف إذا كنت قد تسببت لك في هذا الالم . . ونحن لم نصل ، على كل حال ، إلى مرحلة الاختيار التي تتحدثين عنها . . انني شديد الاعتزاز بك . . وابادلك المحبة بمثلها وأكثر . . واعرف كل المعرفة نوعية المشاعر التي تعتمل في نفسك . . وأرجو الاتظني انني اقل عنك تمسكا باخلاقنا وتربيتنا

وتقاليدنا . . كل ما في الامر انني حاولت ان نجاري القوم فيما لاضرر فيه . . كيلا نبدو امامهم ، كما حدث معي اول مرة ، بصورة تثير استغرابهم وتقولهم علينا . .

ـ ليقولوا مايشاؤون . . مادمنا واثقين من أنفسنا . . مطمئنين إلى اننا على صواب أكثر منهم . . هذه مسألة يمكن ادراكها بالحس السليم . . .

ـ خلاص . . لك عليّ منذ الآن ان اتركك على راحتك . . والا اجبرك على شيء لاترضينه . . فهل هذا مناسب ؟ ...

ولمعت ضحكة هنيئة في عيني هيا ، وهي ترفع رأسها من اطراقته ، وتقول له بارتياح :

ـ مناسب جداً . . وشكراً لك يازوجي الحبيب . .



مضت الايام تباعا ، وقد عادت ـ خلالها ـ حياة الزوجين إلى طبيعتها الأولى ، فلقد أيقن هشام من أنه لا أمل لديه في تغيير طبيعة زوجته التي نشأت على قيم معينة ، يعتز بها ـ هو نفسه ـ أشد الاعتزاز ، وما كان يريد ـ ولا يرضى طبعا ـ أن تغيرها او أن تتخلى عنها ، وكل ما كان يرجوه هو شيء من « التكيف » مع المجتمع الذي يعيشان فيه ، وإذ انس في هيا اصرارا حاسما ، يتفق مع شخصيتها القوية ذات الإرادة الصلبة ، فقد رأى ان يترك هذا الموضوع للزمن ، بعد ان بات عامل قلق وهم وازعاج ، بالنسبة لهما معا . .

أما هيا فقد ظلت كما عرفها وعهدها منذ أن تزوجا ، الزوجة المحبة المطيعة التي تتفانى في تهيئة افضل اجواء الراحة والسعادة في البيت ، باسلوبها الفريد ،

وذوقها المرهف ، فلقد تناست من جهتها ، كل ما مضى ، وعاملت زوجها كما اعتادت ان تعامله : حبا ، ورعاية ، واهتماما ، ولم تشر بشيء إلى تلك المنغصات التي وقفت فيها ذلك الموقف الصلب . .

ولطالما اعجب هشام بطريقة هيا في تنظيم حياتهما وتقسيم وقتهما ، فهو لايكاد يخرج إلى الكلية حتى تنصرف إلى أعمال البيت والطهور والغسيل ، ثم تجلس إلى دروسها في اللغة الانجليزية تواصلها بهمة ونشاط لتفاجيء هشام ، كل يوم ، بقدر غير قليل من الكلمات الجديدة التي تعلمتها فيصحح لها بعضها ويزيد من معلوماتها حول بعضها الآخر ، بل انها باتت تخاطبه احيانا ببعض الجمل الانجليزية . . كانت في البداية تنطقها بتلعثم وبطء . . . ولكنها اكتسبت مع المران قدرة على الطلاقة اكثر ، فاستطاعت ان تطلب حاجياتها تلفونيا ، بالانجليزية ، بعد ان كانت تطلب من هشام ان يقوم بذلك قبل خروجه من البيت . .

وذات يوم قال لها هشام بعد ان انتهيا من الغداء :

– ربنا يستر ياست هيا . . . لان عندي لك دعوة إلى حفلة . .

وتوقفت هيا عن جمع الاطباق عن المائدة ، ونظرت إليه متسائلة وهي تقول :

– حفلة من اياهم ؟ ام حفلة بريئة ؟ . . .

– بريئة طبعا . . وهل عهدتني احضر حفلات غير بريئة ؟ . .

– لماذا تتوقع إذن ان ارفض او اثور ؟ . .

– انه احتياط فحسب . . .

– وماهي هذه الحفلة ؟ . .

ـ انها حفلة جامعية كبرى . . اعتادت الجامعة على أن تقيمها في مثل هذا التاريخ من كل عام واليها يدعى جميع من تخرجوا سابقاً من الجامعة . . أو الذين يدرسون فيها الآن . . أو الذين التحقوا بها حديثا . .

ـ وما هي الغاية من هذه الحفلة ؟ . .

ـ انها تقليد من تقاليد بعض الجامعات الاميركية . . والغاية من اقامتها هي توثيق الصلات بين طلبة الجامعة الواحدة مهما تباعد الزمن مابين اوقات دراستهم فيها . .

ـ فكرة جميلة . .

ـ وطبعاً دعينا ، انت وانا ، إلى هذه الحفلة ، باعتباري من منسوبي الجامعة . .

ـ وتريدني ان اذهب ؟ . .

ـ اجل ليش قلت ربنا يستّر ؟

وابتسمت هيا . واكملت ما كانت فيه ، وهي تقول :

ـ خلاص ... نروح الحفلة ياباشمهندس ...



كان الازدحام على اشده في الساحة الكبرى للجامعة وفي الحدائق المحيطة بها ، وقد نصبت في وسط الساحة خيام كثيرة ، يحمل كل منها رقم احدى السنوات منذ الاربعينات ، فهذه خيمة علتها لوحة تحمل رقم (١٩٤٠) ، واخرى حملت رقم (١٩٥٥) وثالثة حملت رقم سنة أخرى من السنوات .

كانت كل خيمة ، برقم السنة الذي تحمله تمثل احدى دفعات المتخرجين من الجامعة ، وكان بعضهم يحرصون على حضور هذا الحفل السنوي ، فهو مناسبة طيبة لتجديد صداقاتهم مع زملاء الدراسة . .

وكان الملاحظ انه كلما بعدت السنة كان شاغلو الخيمة التي تحملها اقل عددا . . بل ان بعض الخيام لم يكن يضم احدا . . ومعنى ذلك انه لم يحضر الحفل احد من متخرجي السنة التي تحمل تلك الخيام ارقامها ، لسبب أو لآخر ، بينما كانت الخيام التي تحمل تواريخ قريبة اكثر ازدحاما بالحاضرين . .

ومضى هشام يتجول هو وهيا بين الخيام ، وكانت هيا تعلق على كل خيمة يمران بها تعليقا مرحا ، بعد ان شرح لها هشام سر الخيام وارقام السنوات التي تحملها . . بينما كان يرد تحيات الزملاء والزميلات الذين يمران بهم . .

واقترب الاثنان من ساحة فسيحة كانت تضم بضع مئات من الشباب والشابات وهم يرقصون معا في مرح صاخب ، وقد ارتفعت اصوات الموسيقى حتى لتكاد تصم الآذان . . وتبادل هشام وهيا نظرة ذات معنى ، ابتسما ، كلاهما ، على اثرها وانتحيا جانبا من المكان يرقبان المشهد الذي كان أول مشهد من نوعه تراه هيا رأي العين . .

وفجأة اقترب منهما شاب من زملاء هشام في الكلية — وهو من احدى بلاد امريكا اللاتينية — وحياهما مصافحا ، وحين صافحته هيا ، بعد تردد يسير ، استبقى يدها في يده وهو يقول لها ببساطة :

— هل تسمحين ياسيدتي بمشاركتي هذه الرقصة ؟

وردت عليه هيا بالانجليزية قائلة :

– آسفه ... لا استطيع . .

وسحبت يدها بسرعة ، وقد علا الاحمرار وجهها ، وبدا على الشاب انه قد فوجىء بحركة هيا وجوابها فجمد في مكانه بغير حراك ، فسارع هشام إلى القول :

– السيدة متوعكة قليلا . .

فابتسم الشاب ، عندها ، وقال :

– آه . . إذن ارجو المعذرة وشكراً . .

وابتعد الشاب وهو يشعر بشيء من الخجل ، إذ لم يعتد ان ترفض اية فتاة مراقصته ، ولو من قبيل المجاملة كما جرت العادة .

واصطدم ، وهو يبتعد ، بالدكتور باركر الذي كان يشارك في الحفل شأنه شأن معظم اساتذة الجامعة ، وكان يراقص فتاة صغيرة احدى تلك الرقصات المجنونة التي انتشرت في ذلك الحين ، بينما كانت زوجته تراقص شابا وقد اختلطت صرخات الراقصين والراقصات بأصوات الموسيقى وضجيج المتفرجين وتوقف الدكتور باركر عن الرقص ، وتناول الشاب من ذراعه وجذبه بعيدا وهو يقول له بصوت مرتفع ليسمعه وسط ذلك الضجيج :

– لقد رأيت ما حدث . . اظن انك عرضت على تلك السيدة المراقصة ورفضت . . . اليس كذلك ؟ . .

فاضطرم وجه الشاب خجلا وقال له بمثل ارتفاع صوته :

– اجل يادكتور . .

ـ اسمع يابني . . اذهب حالا واعتذر لها . .

فهتف الشاب بدهشة :

ـ اعتذر لها ؟ ... كيف ؟ . . أعتقد انها هي المدينة لي بالاعتذار . .

ـ افعل كما اقول لك . . اذهب وقدم لها اعتذارك واحترامك . . وقل لها انك لم تكن تعرفها . .

ـ أعرفها ؟ ومن تكون . .

ـ انها على الأقل أول امرأة اقابلها في حياتي وتفرض احترامها عليّ... هيا . . اذهب . . اذهب . .

وتابع الدكتور باركر الرقص بينما وقف الشاب حائرا يتلفت حوله باحثا بعينيه عن هشام وزوجته إلى أن رآهما وقد انتحيا ركنا في احدى الكافتيريات المنتشرة في ارجاء المكان . .

واقترب الشاب منهما بارتباك ، واستند إلى كرسي كان قرب المنضدة التي جلس الاثنان اليها ، وقال مخاطبا هيا بتعلثم :

ـ آسف ياسيدتي . . لم أكن أعلم . .

وسارع هشام إلى القول :

ـ لابأس . . لابأس . .

واتجه الشاب ببصره إلى هشام وقال له :

ـ قال لي الدكتور باركر ان عليّ ان اعتذر للسيدة . . وانا آسف جدا ... ولم أكن اعلم . .

ورد هشام :

– لم يحدث شيء ذو بال ، ولاداعي للاعتذار ..

وراح الشاب ينقل بصره بين الاثنين ، وكأن مالديه من الكلام قد انتهى فما عاد يدري مايقول ، وبدا عليه التردد لحظة ، ثم مالبث ان اندفع مبتعدا ليختلط وسط الراقصين في جوهم المحموم . .

أما هيا فقد فهمت مجمل الحديث الذي دار بين زوجها وذلك الشاب ، ولكنها لم تفهم تفاصيله فسألت هشام :

– ماذا به ؟ وماذا كان يقول ؟...

واجابها هشام من بين اسنانه بصورة دلت على غضب مكتوم :

– انه جاء يعتذر لنا عما حدث . . يبدو ان الدكتور باركر قد نصحه بذلك . . .

وعلقت هيا بهدوء :

– عظيم . . لقد ادرك إذن انه قد ارتكب خطأ . . هذه نتيجة طيبة .

– نتيجة طيبة ؟ . .

هتف هشام بلهجة اقرب إلى الانكار وردت هيا :

– طبعا . . وجميل أن يعرف الانسان خطأه ويعتذر عنه . .

– ولكن الرجل لم يفعل شيئا . .

– الم يتقدم إلي طالبا مني ان اراقصه ؟

وقال هشام بلهجة قاطعة :

– مفهوم ... مفهوم ... انتهينا . .

وساد الوجوم جو الركن الذي جلسا فيه . . وراحا كلاهما ينظران إلى ماحولهما وهما غارقان في دوامة من الأفكار . .

وكان الارتياح يبدو بوضوح على وجه هيا ، وكأنها قد حققت انجازا عظيما ، اما هشام فكان تجهمه يدل على استيائه من هذا الذي حدث ، ومن تكراره في مناسبات عديدة سابقة ، منذ ان جاءت هيا معه إلى هذه البلاد . .

ولم يكن ذلك ليخفى على هيا ، التي كانت تستطيع ان تستنتج بسهولة معنى الافكار التي تدور في رأس زوجها . . .

وقالت له بصوت هادىء :

– هل هناك شيء سبب هذا الوجوم الذي يبدو عليك ؟ . .

– ليس بي شيء . .

– أتقول لي انا ذلك ؟ أنا اعرفك جيدا ياباشمهندس . .

وابتسم هشام رغما عنه ، فان طريقتها المحببة هذه في تحاشي الصدام بينهما ، وقدرتها على التحكم باعصابها في مثل هذه المواقف ، كانا من الامور التي تعجبه فيها ، والتي يعتبرها ميزات نادرة اودعها الله هذه الفتاة التي اصبحت زوجته . . .

وعادت هيا تقول باصرار :

ـ هه ... انك لم تجب على سؤالي . .

وحدق هشام فيها ، وهزه انها كانت تنظر إليه بهدوء تام ، ولكن باصرار على أن تعرف جواب سؤالها :

ـ تريدين أن تعرفي الجواب ؟

ـ طبعا يا باشمهندس . .

ـ اعلمي إذن انك قد قسوت على ذلك الشاب . .

ـ قسوت عليه ؟ بل قل انني كنت غاية في الرقة . . كان يجب ان اصفعه على وجهه عندما قال لي بتلك الوقاحة انه يريد مراقصتي . .

وزفر هشام وقال بضيق :

ـ أنا لم أقل ان عليك ان تراقصيه . . . انني ، أنا نفسي ، ارفض ذلك طبعا ولكن . . ولكن كان يمكن ان تكون طريقتك في الرفض اقل قسوة . . هذا هو كل شيء . .

ـ آه . . فهمت . .

وأحكمت هيا وضع الشال الذي كانت تضعه على كتفيها ، وعادت تنظر إلى المكان وتراقب الجو الصاخب الذي يحيط بها . .

والتزم هشام ، بدوره ، الصمت وراح ينظر مثلها . .

كان واضحا ان عاصفة تعتمل داخل الاثنين وانهما كتماها تحاشيا للصدام كما كان واضحا لهما ، معا ، ان هذا الصدام لابد وان يقع . . ربما الآن . وربما بعد زمن . .

وقالت هيا لهشام بهدوء :

– اريد ان اعود إلى المنزل . . .

ونهض هشام في الحال وهو يقول :

– هذا افضل . . هيا بنا . .



وكأنما كان هناك اتفاق ضمني بين الزوجين على عدم التطرق إلى ماحدث تلك الليلة ، وكانت لكل منهما اسبابه الخاصة .. هشام كان يخشى ان يتفاقم الخلاف ، وان يصدر عنه ما يزعج زوجته التي يحب ، وهيا بعقلها الراجح واعصابها القوية ، كانت ترى انه لافائدة ترجى من الحديث في ذلك الموضوع فهي قد قالت كلمتها بصورة عملية ، ولم تعد ترى ان هناك حاجة إلى المزيد من الكلام . .

غير ان الامر الذي اثار انتباه هشام أن هيا قد ضاعفت جهودها في تعلم اللغة الانجليزية بصورة غير عادية . . .

كان يعود من الكلية وما ان يفتح الباب حتى يتناهى إليه صوت آلة التسجيل التي تستخدمها هيا في دروسها ، حتى إذا أطل عليها ، وجدها منهمكة في متابعة الكلمات على الكتاب كأية تلميذة مجدة ، فاذا ما ألقى عليها التحية . . رفعت رأسها إليه . . وعيناها تلمعان ببريق طفولي جميل ، فتضغط باصبعها على زر المسجل لتوقفه ، وتنهض على الفور لاعداد المائدة ، بينما تحاول الثرثرة اثناء ذلك ، باللغة الانجليزية التي كان هشام يلمس في كلماتها تقدما مستمرا وحين تعوزها الكلمة المناسبة تسأله بالانجليزية عنها بكل بساطة.. فيقولها لها باسماً ويلاحظ – راضيا – سعادتها وهي تقطع مراحل تعلم اللغة بنجاح كبير . .

ولم يستغرب هشام هذا النجاح الذي حققته ، فهو يعرف جيداً ارادتها الفولاذية التي تختفي تحت اهابها الرقيق ، والتي تبدو بكل ما فيها من قوة في المواقف الصعبة والمناسبات الحرجة .

كانت هيا ، في البداية ، تتلعثم وتتلجلج في الحديث ، وتداري ذلك بضحكة خجولة وقد احمر وجهها ، ولكنها – شيئا فشيئا – تخطت هذه المرحلة ، واصبحت تتحدث بسهولة أكثر ، بل وصارت تقرأ في بعض المجلات والقصص المخصصة للأطفال والمبتدئين في دراسة اللغة الانجليزية .

أول مرة رآها تقرأ في تلك المجلات انفجر ضاحكا ، ولكنها نظرت إليه بهدوء وقالت له :

– لا تنس ، ياباشمهندس ، انني اعتبر في المرحلة الابتدائية . . ولست اتوقع أن أتمكن من قراءة مسرحيات شكسبير وانا في هذه المرحلة ولكن انتظر . . وسوف ترى بنفسك ان شاء الله . . .

وخجل هشام ، ورمقها بنظرة مختلسة ، فقد كان يخشى أن تكون ضحكته تلك قد جرحت شعورها ، ولكن وجهها كان هادئا وانصرفت ببساطة تامة إلى البحث عن احدى الكلمات في القاموس ، ثم سجلت ترجمتها في دفترها الصغير بعناية ، وتابعت القراءة بنفس البساطة والهدوء . . .

وقطب هشام حاجبيه ، وتمنى لو أن ضحكته قد أزعجتها فعلا ، إذ لم يكن يهزه شيء قدر أن يرى هذه الفتاة وهي تُعبّر بشتى الوسائل عن روحها العظيمة ، فهي تترفع أمام الصغائر ، وتكتم ما في نفسها بقدرة غريبة ، وتتصرف بصورة لا يمكن معها لأي انسان أن يعرف ما في داخلها . . .

واعترف هشام ، بينه وبين نفسه ، ولأول مرة منذ أن رأى هيا ، انه يتمنى

لو أن زوجته كانت من طراز آخر . . طراز عادي كما هو الشأن لدى معظم النساء . . .

كانت سيطرة عقلها على تصرفاتها تدهشه : وقدرتها على التفريق بدقة تامة بين ما يجوز وما لا يجوز تشعره بأنه قد تزوج امرأة صعبة المراس ، تعرف ما لها وما عليها بوعي كامل . .

وكان أشد ما يغيظ هشام ، بعد أن صارح نفسه بتلك الفكرة ، انه لم يكن لديه ما يأخذه عليها . . فقد كانت نعم الزوجة المثالية التي تبتكر كل يوم أساليب جديدة لإدخال السعادة على نفسه ، وتبذل جهودا كبيرة لكي توفر له كل أسباب الراحة والهناء في بيته . .

كانت تفرض الصمت على البيت عندما يبدأ الدراسة ، فلا تُسمع فيه نأمة واحدة . . .

وكانت تحيل البيت إلى ضجيج من الحيوية والمرح في أوقات فراغه . .

انه لم يشعر يوما انها قد قصرت في حقه بشيء . . بل العكس هو الصحيح . . انها تتفانى في رعايته وإسعاده ولكن . .

وتنهد هشام ، وهمس في سره :

— آه من «لكن» هذه . . دائما تعترضني «لكن» هذه . .

وعاد إلى الاسترسال في خواطره . .

ولكن . .

ولكن هذه الكتلة من الجمال والرقة والنعومة والحب ، تتحول في مثل ومض البرق إلى كتلة من الصلابة والرفض إذا ما حاول أن يجعلها تتكيف ولو بعض الشيء مع الجو الذي يعيشان فيه مما تعتبره منافيا لتربيتها ومبادئها . .

انه لا يكاد يتذكر عدد المرات التي اختلفا فيها حول هذا الموضوع . .

انها كثيرة جدا . . صراخ . . وغضب . . ودموع . . واصرار على موقفهما . . بل الأصح أن يقول هشام ، أو يعترف ، بأن جميع تلك المواقف قد انتهت إلى انتصارها عليه . . أجل . . لقد انتصرت عليه وهو الرجل . . وهو سيد البيت . . انتصرت عليه وهي زوجته . . وهُزم امامها مع أنه الأقوى . . .

ونظر إليها مرة أخرى وقد اجتاحه غيظ مفاجئ ، وراح يرمقها وهي تركز نظراتها في القصة التي بين يديها ، وتلفظ احيانا احدى الكلمات بصوت خافت ، أو تبحث عن معنى كلمة أخرى في القاموس . . .

ومن غير أن يشعر وجد نفسه يقول لها بحدة :

ـ خلاص . . أنا ما ابغاكي تتعلمي انجليزي . .

ورفعت بصرها إليه بهدوء وقالت له دون أن تبدو في صوتها أية رنة للاستغراب :

ـ ايش السبب ؟ . .

ولم يجب على تساؤلها ، إذ لم يكن لديه في الواقع أي سبب ، سوى ذلك الشعور بأنها لا تطيع رغباته كلها وأن لها مواقفها المستقلة حيث ترى أنه يجب الاستقلال . . .

ونهضت من مكانها واتجهت إليه وجلست بجانبه ثم تناولت يده في راحتيها تربت عليها وهي تتكلم :

ـ اسمع يا هشام . . لقد قلت لك أكثر من مرة انني شديدة الألم لهذا الذي يجرى بيننا . . وأكاد لا أجد شيئا اضيفه إلى ما سبق أن قلته لك . . انني

زوجتك المحبة والمطيعة والوفية إلا فيما يخالف ما نشأت عليه من قيم . . وأنت تعلم انه لا طاعة لمخلوق في معصيه الخالق . . وإذا كنت لا تريدني أن اواصل دراستي للغة الانجليزية فليكن . . سأمتنع منذ هذه اللحظة عن الدراسة . . ولكنك تعلم انني وحيدة معظم ساعات النهار ، وقد وجدت في هذه الدراسة فرصتي لتغطية الوقت بشيء نافع . . وكنت آمل أن توافق على أن اواصل الدراسة وانتسب إلى « الجونيور كوليج » حيث لا تستغرق الدراسة أكثر من سنتين أحصل بعدها على شهادة جامعية . .

ونظر إليها ، فوجدها تسدد نظراتها بنفس الهدوء الذي تتكلم به ، فحوّل عينيه عنها بارتباك وقال لها وهو ينهض :

ــ افعلي ما شئت . . وانا آسف لما بدر مني . .

وإذ غاب وراء غرفة النوم ، تلاشت معالم الهدوء التي كانت تبدو عليها فأحنت رأسها على ركبتيها وراحت تنشج في بكاء صامت . .



ــ آه . . . هشام ؟ . . غير معقول . . هذا أنت ؟ . .

كانت المتكلمة هي جين التي لم يقع بصرها على هشام منذ نهاية السنة الدراسية الفائتة ، فعبرت عن سرورها بتلك الجملة التي سبقتها صيحة فرح أطلقتها بمجرد أن رأت هشام . .

كان اللقاء في أحد أروقة الجامعة حيث كان هشام في طريقه لحضور إحدى المحاضرات . .

وشد هشام على يدها الممدودة إليه بفرح شديد وقال لها بسرور صادق :

ـ جين . . كم أنا سعيد بهذا اللقاء . . إلى أين تذهبين ؟ . .

ـ إلى الكافتيريا . . لقد خرجت لتوي من المحاضرة . . وأنت ؟ . .

ـ انني ذاهب إلى محاضرة . .

ـ أمر مؤسف . . كان بودي أن نجلس معا بعض الوقت . .

وبدون شعور منه وجد هشام نفسه يقول لها :

ـ لم لا ؟ . . هيا بنا إلى الكافتيريا . .

ـ ومحاضرتك ؟ . .

ـ لا يهم . . انني أشعر ببعض التوعك . .

ـ هل أنت مريض ؟ . . قالتها باهتمام . .

ـ لا . . ان التوعك هو في . . في مزاجي . .

واعقب كلامه بضحكة مفتعلة ، فضحكت هي الأخرى ، وتأبطت ذراعه في طريقهما إلى الكافتيريا ، وفي أعماق هشام شعور عميق بالأسف ، فتلك هي أول مرة في حياته يُفَضِّلُ فيها شيئا ما على واجباته الدراسية . .

وجلس الاثنان في الكافتيريا ، وجين تثرثر كعادتها بينما كان هشام منصرفا عنها ، فقد أدهشه ، وأحزنه ، عزوفه عن الدراسة بتلك الصورة المفاجئة التي لم يكن يتوقعها ، وأن يكون جالسا هذه اللحظة مع هذه الفتاة ومكانه في قاعة المحاضرات خال . . ولكنه ـ بالمقابل ـ استمرأ تخلصه من ذلك الشعور الثقيل بالواجب الذي ظل يسيطر عليه طوال حياته ، وأحس بأنه حرٌ طليق ، يستطيع أن يفعل ما يشاء . .

وانتبه من خواطره على جين وهي تقول له :

– كيف هي ؟ . . ما شكلها ؟ . .

فقال لها هشام بارتباك :

– من هي ؟ . .

– آه عدت للشرود مرة أخرى . . تتركني أتحدث وتغيب بأفكارك بعيدا عني . .

– آسف . . لن أفعل ذلك مرة أخرى . .

– صفها لي . .

– من ؟ . .

– زوجتك . . كنت أسألك عن زوجتك . .

– آه . . دعينا من هذا الحديث . .

وحدقت جين فيه وقالت :

– اذن فصحيح ما سمعته عنكم . .

– وماذا سمعتِ عنا ؟ . .

– سمعت أنكم تغارون على نسائكم كثيرا . .

– هذا صحيح . .

– ما أبدع هذا . .

قالت جين ذلك وفي لهجتها شيء من الأسف . .

وسألها هشام بدهشة :

– هل يعجبك ذلك ؟ . .

– جدا . .

– غريب . . ألا تعلمين أن وجود من يغار عليك معناه أن تفقدي كثيرا من حريتك ؟ . .

– هل تظنني الآن حرة حتى تتوقع أن أخاف افتقاد حريتي ؟ . .

– لم أفهم . .

– أقول لك . . انا لا أعرف كثيرا عنكم وعن حياتكم . . ولكنني سمعت شيئا عن ذلك جعلني أكون رأيا . . صحيح أن المرأة عندنا تتمتع بحرية كاملة . . وهذا قد يبدو جميلا بادىء الأمر . . ولكن ما هي النهاية ؟ . . اننا نلهو ونرقص ونفعل ما نشاء في مقتبل حياتنا . . ولكن ما ان يتقدم العمر بالمرأة بعض الشيء حتى ينفض الرجال من حولها شيئا فشيئا ، ولذا فان عليها أن تكون ذكية وتصطاد زوجها في الوقت الملائم . .

وتوقفت الفتاة عن الحديث وقد ارتسمت معالم الجدية التامة على وجهها ، ولكن هشام لم يعلق بشيء ، فاستطردت :

– جميل جدا أن أجد رجلا يقاتل من أجلي . . رجلا يصفعني إذا رآني مع سواه . . رجلا يشعرني بأنني له وحده . . وأنه لي وحدي . .

٨٣

عندما دخل هشام إلى البيت في ساعة متأخرة ، وجد هيا ساهرة وقد جلست على كنبة دون أن تواصل دراستها كعادتها ، فالقى عليها السلام بصوت خافت فردت عليه متسائلة :

– أين كنت إلى هذه الساعة ؟ . .

– كنت . . كنت مع بعض الاصدقاء . .

– اما كان بوسعك أن تتصل تليفونيا وتخبرني بأنك ستتأخر ؟ . .

– فاتني ذلك . .

– هشام . . مالك ؟ . .

وتحاشى أن تلتقي عيناه بعينيها وهو يجيبها بشيء من الارتباك :

– لا شيء . . لا شيء . .

– سأحضر لك العشاء . . انه جاهز منذ فترة . .

– لا داعي . . لقد تعشيت . .

ولم تقل هيا شيئا ، وارخت رأسها في الم ، فقد بدا لها أن شيئا ما قد تغير في زوجها ، لاسيما عندما توجه إلى غرفة النوم مباشرة دون أن يقوم بأعماله الدراسية كما كانت عادته . .

والواقع أن هشام لم ينم كما اعتقدت هيا ، بل عقد ذراعيه وراء رأسه ومضى يفكر . .

كان قد امضى النهار وشطراً من الليل بصحبة جين ، يسمع ثرثرتها ولا يصغي اليها ، فقد خرج معها إلى الكافتيريا ومنها إلى الحديقة ، ثم توجها إلى

مطعم تناولا فيه طعام الغداء ، وبعدها توجها إلى احدى دور السينما ومن ثم ذهبا إلى مطعم آخر لتناول العشاء . .

كانت الافكار تصطرع في رأسه في مثل تلاطم الموج ، فهو قد فعل اليوم ما لم يفعله في حياته قط . . اهمل دراسته ، وطرح واجباته وراء ظهره ، وراح يمضي الوقت بلا مبالاة . .

وفي حين ان اعماقه كانت ترفض هذا السلوك ، وهو الذي نشأ على احترام الواجب واعطائه الاولوية على أي شيء آخر ، فقد استمر – وياللغرابة – هذا النوع من اللامبالاة ، وارتاح إلى ان يخلي ذهنه من أي شيء . .

ولم يحاول هذه المرة ، أن يحلل أفكاره ، ويتعرف إلى مساراتها المتشعبة ، وتقبل احداث يومه المنصرم كما هي ، وهو يحاول كبت ذلك الشعور العميق بالأسف والأسى ، فلقد أضاع – هذا اليوم – محاضرات يوم كامل من الدراسة . .

ولم يخطر بباله أن يتساءل عما سيعقب ذلك من نتائج . .

وهكذا ، جذب الغطاء على جسمه ، واستغرق في نوم عميق ، فلقد كان نهاره – على اية حال – حافلا ، بصرف النظر عما حقق فيه ، أو لم يحقق ، من خطوات على طريق الهدف الذي جاء إلى هنا من أجله . .



ومضت اشهر . . تغير هشام خلالها بصورة لم تعهدها هيا فيه ، بل وما عهدها هو في نفسه ، فلقد تحول نشاطه السابق إلى خمول ، واجتهاده إلى كسل ، وحماسته إلى ركود . .

لقد كثر تغيبه عن المحاضرات . . واهمل واجباته الدراسية . . وبات يقضي وقته في الكافتيريات ، والمطاعم ، ودور السينما والحدائق . .

وكانت جين هي صديقته المفضلة التي لا يفارقها في معظم الأماكن التي يتردد عليها . .

وكانت هيا تراقب هذا التحول الفاجع في صمت وألم ، فهي قد لاحظت ذلك التغيير منذ اليوم الأول الذي جاء فيه هشام متأخرا ، ثم تزايد يقينها مع ما رأته من اهمال هشام لدراسته ، وقضائه اغلب اوقاته خارج المنزل ، وقلة كلامه معها ، وعدم اكتراثه بأن تصحبه كما كان يفعل سابقا . .

وهكذا خيم ظل ثقيل من الهم على حياتهما ، وتحولت هيا من تلك الفتاة المرحة التي ملأت المنزل شدوا وغناء ، إلى كتلة من السهوم والوجوم ، ترقب ذلك التحول في ألم ، وتطوي جوانحها على ما رأت من انهيار اصاب حياتها الزوجية ولم يكن يخطر لها على بال منذ أن تزوجها هشام وحتى اليوم الذي جاءت فيه معه إلى هذه البلاد الغريبة . .

ولقد كان حريا بأية زوجة ، غير هيا ، ان تثور لهذا الوضع وان تعلن سخطها ، وان تطلب العودة إلى بلادها في الحال . .

كان حريا بأية زوجة ان تناقش زوجها الحساب على الاقل ، وان تسأله عن اسباب وخلفيات ذلك التحول ، وان تنبهه إلى نتائجه الوخيمة التي ليس اقلها تزعزع حياتهما الزوجية ثم اخفاقه في دراسته وعودته إلى المملكة فاشلا من غير ان يحصل على الشهادة الموعودة . .

ولكن هيا لم تفعل من ذلك شيئا قط . .

وكان موقفها هذا نابعا من فهم عميق لنفسية هشام وطبيعته ، فلو انها طلبت اليه ان يفسر مسلكه هذا لغضب وتمسك به اكثر فأكثر . .

ولو انها حاولت ان توجه انتباهه إلى الطريق الخاطئ الذي يسير فيه . فلسوف يتحول النقاش ، حتما ، إلى شجار ثم إلى ما هو ابعد . . لان عقلها المنظم ، واسلوبها الفريد في التصرف وصلابتها تجاه ما تراه خاطئا ، ستجعلها تقف امام هشام بقوة . . فاذا اصطدمت القوتان فمن يدري ما يحدث ؟ . .

لقد ادرك هشام ، فيما بعد ، ان الموقف الذي اتخذته زوجته بالتزامها الصمت والترقب ازاء ما رأته من حاله ، انما كان وجها آخر من وجوه شخصيتها القوية المتميزة ، وهو لا يقل عن موقفها يوم قبلت سفر زوجها وحده ولما يمض على زواجها منه سوى زمن قصير . .

وهكذا ساد التحفظ جو المنزل ، واصبح الكلام بين الاثنين نادرا لا يكاد يتعدى بضع جمل عادية في اليوم ، ووجهت هيا اهتمامها إلى دروسها بهمة اكبر فقطعت عدة مراحل من مستويات الدراسة حتى بات بوسعها ان تقرأ جريدة او مجلة وان تلم بما تقرأ بصورة كافية . .

* * *

وإذ انتهى الفصل الدراسي : تسلم هشام رسالة صادرة عن الملحق التعليمي في نيويورك . . وما كاد يقرأها حتى تهالك جالسا على المقعد وقد دارت به الارض ، بينما كانت هيا جالسة في مقعدها ترقبه صامتة . . .



كانت رسالة الملحق التعليمي مقتضبة ، لا تزيد عن بضعة اسطر ، ولكنها احالت نور النهار في عيني هشام إلى ظلام . .

« ... نشير إلى المعدلات الضئيلة التي حققتها خلال الفصل الدراسي المنصرم ، ويؤسفنا ان نبلغكم ان بعثتكم تعتبر لاغية ، ونأمل مراجعتنا خلال اسبوعين

من تاريخه لاتخاذ الترتيبات اللازمة لعودتك إلى المملكة وطي قيدك من كشوف المبتعثين السعوديين في الولايات المتحدة ، ولكم تحياتنا . . . » .

حدق هشام في الرسالة بذهول وقد غامت المرئيات امام عينيه ، وتراقصت الاسطر امام بصره الذاهل . .

انه الفشل . . ويا له من فشل . .

الآمال . . والطموحات . . والصورة الزاهية للمستقبل . . كلها تلاشت . . ضاعت . . لم يعد لها وجود . . وعليه أن يعود إلى بلاده مهزوما محسورا . .

واطرق هشام ، وترك الورقة تسقط من بين اصابعه ، واطلق زفرة دلت على ما سببت له الرسالة من الم موجع . .

وغاص قلب هيا بين ضلوعها ، وشعرت بالخوف ، فقالت لهشام بصوت مرتجف يهزه القلق والتوجس :

— خير يا هشام . . ايش فيه ؟ . .

ولم يجب هشام ، وظل رأسه ملقى على صدره في انكسار . .

كان يشعر بخجل شديد لم يتمكن معه من ان يرفع رأسه خشية ان تلتقي عيناه بعينيها . .

ونهضت هيا وهي تكاد ترنح ، والقلق قد اخذ منها كل مأخذ . .

وبيد مرتجفة تناولت الورقة الملقاة على الارض ، وود هشام لو يمنعها من قراءتها لولا ان قواه كانت قد خارت بشكل لم يعد يستطيع معه ان يقوم بأية حركة . .

وبنظرة متلهفة ألمت هيا بمحتويات الرسالة ، فشعرت وكأن هوة قد فغرت فاها لتبتلعها وهشام ، وتبتلع معها كل الآمال العراض التي عاشت على تهاويلها منذ ان طرأت فكرة البعثة على بالها . .

وترنحت في اعياء ، وبذلت مجهودا خارقا حتى استطاعت ان تحرك ساقيها وتتجه إلى مقعدها لتتهالك عليه وقد جثم جبل هائل من الهم والحزن على كتفيها . .

هذه هي النهاية اذن ؟ . .

والزمن الذي قضاه هشام ، ثم هيا ، قد ضاع هباء . .

انه الفشل . . انه الضياع . . فما عاد في وسع هشام ان يرفع نظره إلى احد من اهله . .

وتصورت هيا اي وقع صاعق للنبأ على اهله واهلها ، ثم على رؤساء هشام الذين محضوه ثقتهم وهيأوا له هذه البعثة لكي يرفع من مستواه العلمي والوظيفي . .

وارتجفت شفتاها بطريقتها التي تعبر بها عن ألمها ، وودت لو سمحت للدموع التي تجمعت في مآقيها ان تنساح على صفحة وجهها علها تخفف شيئا من الشعور الاليم الذي انتابها . .

ولكن الدموع تحجرت ، بقوة ارادتها ، والالم ظل حبيس القلب والروح والوجدان . .

ـ فلنحاول مرة اخرى . .

همست بهذه الجملة بصوت مرتجف رغم ما بذلت من مجهود لكي يبدو طبيعيا وهادئا . .

– نحاول ؟ . . نحاول ايش ؟ . . ما خلاص . . الخطاب صريح . . انه انهاء للبعثة . . وامر بالعودة إلى المملكة . .

– ولكنني اعلم ان هناك مجالا لاعادة السنة والمحاولة من جديد . .

– هذا يحدث عندما تكون التقديرات في مستوى معين من الضعف . . اما بالنسبة لي فان التقديرات شيء . . شيء مخجل لا يبشر بأمل . .

ونظرت إلى الورقة المرفقة بخطاب الملحق التعليمي ، وجرت بعينيها عليها في عجلة ، ثم قالت في نفسها « حقا . . شيء مخجل . . اقصد . . مؤسف فعلا . . . » .

ثم قالت بصوت مسموع :

– لابد وان نجد طريقة . .

– يمكن ان نجد طريقة في أي شيء الا هذا . . الانظمة صريحة والتعليمات واضحة . . لقد بعثوا بي لكي احقق نتائج مشرفة . . لا هذه النتائج المخزية . .

– هدئ من روعك ودعنا نفكر بهدوء لكي نتمكن من ان نجد طريقة مناسبة . .

وفي هذه اللحظة رن جرس التلفون ، فلم يتحرك هشام الذي اعتاد ، قبلا ، ان يرد بنفسه . .

– التلفون . .

قالت هيا . .

وتكرر الرنين دون ان تبدو على هشام رغبة في الرد فقد اشار بيده في

حركة تدل على عدم الاكتراث عندما كررت هيا تنبيهه . فلم تجد بدا من الاتجاه إلى التلفون ولم تكد ترفع السماعة حتى اتاها صوت فتاة :

ــ مستر هشام هنا ؟ . .

وبكل هدوء اجابت هيا :

ــ نعم . . لحظة واحدة . .

وعادت إلى مقعدها وهي تقول لهشام :

ــ التلفون لك يا هشام . .

ونهض هشام متثاقلا ، ورفع السماعة ولم يكد ينطق بكلمة « هالو » حتى جاءه صوت جين قائلة له :

ــ هاي . . كيف حالك ؟ . . سهرتنا الليلة في . . .

ولكن هشام قاطعها بسرعة قائلا :

ــ آسف . . لا يمكنني المجيء . .

ــ ولكن . .

ــ كما اقول لك . . باي باي . .

ووضع السماعة في الحال ، وعاد إلى مقعده فتهالك عليه وراح يفكر فيما هو فيه ، بينما نظرت هيا اليه في صمت وقد ومضت في ذهنها فكرة . . أترى هذا الموقف الذي وقفه من المتحدثة على التلفون هو اول دليل على انه قد بدأ يعي مقدار الخطأ الذي ارتكبه ، وعزم بالتالي على ان يسلك الطريق الصحيح إلى اصلاحه ؟ . .

٨٦

في صباح اليوم التالي كان تصرف هشام مختلفا كثيرا عما كان عليه قبل ان يتلقى خطاب الملحق التعليمي . . .

فخلال الفترة التي انقضت منذ ان امتنع ، لاول مرة ، عن الذهاب إلى المحاضرة ، وحتى يوم امس ، كان يتصرف وكأن شيئا ما لا يهمه ، فهو يولي عنايته التامة لهندامه قبل ان يخرج ، ودون ان ينتظر هيا لكي تتفقده كما كانت تفعل . .

ولم يكن يولي كثير اهتمام لكتبه ومراجعه وادواته قبل الخروج ، كما كان يفعل من قبل ، اذ كان واضحا ان ذهنه متجه إلى ما سوف يفعله في يومه ، من الذهاب إلى مكان او تفضيل آخر ، فما كان حريصا على استكمال ما يأخذه معه كما كان يفعل في حياته الدراسية الأولى عندما كان يضع اوراقه وكتبه في حقيبته بعناية ، ويشغل ذهنه بالتفكير في موضوع من مواضيع الدراسة . .

اما اليوم . . وخطاب الملحق التعليمي مازال في مكانه على الطاولة كما تركه بالامس ، فقد نهض في تثاقل ووجوم ، وبعد ان ارتدى ملابسه عاد إلى الخطاب يلقي نظرة عليه وكأنه لا يصدق ما احتواه من عبارات تؤذن بهدم آماله وآمال زوجته كلها . .

ولكن الخطاب كان واضحا صريحا ، وعليه ان يواجه هذه المشكلة التي تسبب بها نتيجة لخروجه على ما اعتاد عليه من جد واجتهاد ، وعناية بدراسته وجامعته . .

وكانت هيا تراقبه في صمت ، ولم تتبادل معه سوى عبارات قليلة ، ولكن رنة صوتها ، وصفحة وجهها تدلان على عطف شديد ، وتفهم عميق ، وحرص على مشاركته ما هو فيه . .

وحين قال لها انه سيخرج لساعة او ساعتين ويعود سريعا قالت له في لطف :

ـ خذ راحتك . . المهم الا نترك هذا الحادث يعطل تفكيرنا ويمنعنا من تلمس سبيل الخلاص . .

وارتسمت ابتسامة باهتة على شفتيه تدل على انه يدرك ابعاد الفشل الذي حدث ، وانه لا يرى وسيلة اخرى غير ان يعدا حقائبهما ويعودا من حيث اتيا . .

وخرج هشام متثاقلا ، وهيا ترقبه في عطف والم ، ولم يكد يغلق الباب وراءه حتى سارعت إلى الخطاب في لهفة وركزت نظراتها على ارقام التلفونات المطبوعة في اعلاه ، ثم رفعت السماعة وادارت القرص بأحد تلك الارقام . .



جلس هشام في مقعد منعزل في احدى الحدائق وقد استغرق في تفكير عميق . .

كان الخجل والخزي يلفانه من قمة رأسه إلى اخمص قدميه . .

كان كمن صحا من نوم ثقيل ، أو من غيبوبة طويلة فراح يجيل بصره فيما حوله مستغربا وكأنه يراه لاول مرة . .

لم يكن يصدق ان تلك العبارات التي تضمنتها رسالة الملحق التعليمي تعنيه هو بالذات ، بعد ان قطع مراحل دراسته بنجاح طول حياته ، وحقق دائما معدلات عالية ونتائج ممتازة . .

ولكنها الحقيقة ، ويالالأسف . .

انه هو المقصود بالرسالة ، وهو الذي انهيت بعثته لعجزه عن تحقيق حد ادنى من النتائج . .

ان الجهات المختصة لا تعمد إلى هذا الا جراء الا اذا كانت نتائج المبتعث في حالة ميئوس منها ، بحيث يصبح استمراره في البعثة نوعا من اضاعة الوقت . .

اهو وصل ، او انحدر ، إلى هذا المستوى .؟ .

وكيف يستطيع ان يعود إلى بلاده بتلك النتيجة المخجلة ، وبم يبررها ياترى ؟ . .

ايقول لاهله ورؤسائه واصدقائه انه قد استسلم للتيار يجرفه ويهدم آماله لمجرد انسياقه معه ، وهو الذي كان فخورا بما حقق من صلابة وثبات امام كل ما واجهه عندما بدأ بعثته اول مرة ؟ . .

وهيا . . .

آه ما كان اروعها وهي تتقبل النبأ الصاعق بشجاعة وهدوء فلا تسمح للصدمة ان تحولها عن ثباتها ، او تعطل تفكيرها فتقول بثقة انهما سيجدان طريقة لمواجهة هذا الموقف . .

مسكينة كم احتملت من الالم الصامت وهي تراه سادرا في لهوه وعبثه ، فتوجه اليه اللوم بصمت يطل من عينيها ولا تسمح للسانها بأن ينطق كلمة واحدة تزعجه . .

اتراه كان ، حقا ، ساخطا على موقفها الصامد من كل محاولاته لاجبارها على التكيف مع ما لا ترضاه من قيم هذا المجتمع الغريب عليها ؟ . . ام انه – ياترى – قد اتخذ من هذا السخط ذريعة يطلق معها العنان لنفسه ،

ليهمل واجباته ويقضي اوقاته ما بين الكافتيريات والحدائق والمطاعم ودور السينما ؟ . .

– انني . . انني . .

وحاول ان يجد اقسى وصف يمكن ان يطلقه على نفسه وهو في حالته تلك فلم يجد . . كان ذهنه مشتتا ، موزعا ، وضميره مثقلا بالحجل ، بل الخزي ، لما جنت يداه وما اقترف . .

والآن . . ما العمل ؟ . . ما العمل ؟ . .

واحس بأنه عاجز تماما عن ان يجيب على هذا التساؤل . .



عندما دخل إلى المنزل تناهى اليه صوت هيا وهي تغني احدى اغنياتها المفضلة في سعادة فدهش . . لان المفروض ان تشاركه حزنه والمه بعد الفشل الذي اصيب به ، وان تؤلمها الصدمة كما آلمته ، لاسيما وانه رأى ، بالفعل ، دليلا على ذلك . .

ولم يكد نظر هيا يقع عليه حتى اشرق وجهها في سعادة فائقة زادت من دهشته ، لان معالم الاسف والحزن قد اختفت تماماً من وجهها ، وبدت وكأنها قد تلقت انباء سعيدة رسمت تلك الفرحة الواضحة على وجهها . .

وقبل ان يتكلم هتفت إذ رأته :

– لقد وجدت الحل . . وجدت الحل . .

– الحل ؟ . .

تساءل هشام في بطء ، اذ لم يكن يبدو له ان هناك اي حل سوى تنفيذ ما جاء في خطاب الملحق التعليمي . . .

وجذبته هيا من يده إلى غرفة الجلوس ، ودفعته برفق إلى المقعد ثم جلست تجاهه وقالت له وعيناها تشعان بالفرح :

– لقد وجدت الحل . .

وقبل ان يُعبر لها هشام عن استغرابه ويأسه ، اندفعت في الشرح والايضاح :

– لقد اتصلت بعد خروجك بالملحق التعليمي . . في نيويورك . .

– في نيويورك . . ؟

– اجل . . عرضت له رغبتي في ان التحق بالجامعة . . في الجونيور كوليج . . ان الدراسة فيها لا تحتاج إلى اكثر من سنتين احصل بعدها على شهادة جامعية . . فقال لي انه لا شيء يمنع من ذلك نظاما . . بالعكس . . ان الجهات المختصة يهمها جدا ان تستفيد زوجات المبتعثين من مرافقة ازواجهن خلال مدة الابتعاث بالالتحاق بأي نوع من الدراسات التي تلائم كل زوجة . .

ولم يفهم ما كانت هيا ترمي اليه فتساءل في مرارة :

– هل جئنا إلى هنا من اجل دراستي ام دراستك ؟ . .

فضحكت هيا ضحكة سعيدة وقالت له وعيناها تلمعان بذلك الفرح الطفولي القوي :

– دعني اكمل لك . . قال لي الملحق التعليمي انه لا شيء يمنع من التحاقي بالجامعة . . فقلت له وفق خطة وضعتها في ذهني ان من الضروري ان يسمحوا لك بالبقاء كمحرم . . وفقا للنظام . . فأيد الملحق كلامي . .

واشرقت الحقيقة في ذهن هشام فجأة ، واستطاع ان يفهم — اخيرا — خطة زوجته التي واصلت حديثها بحماسة فشرحت تلك الخطة التي رأت فيه حلا للمشكلة التي يواجهها زوجها . .

ولكن هشام لم يعد يتابع كلماتها ، بل اتجه تفكيره إلى الشعور بالاعجاب ، او الذهول ، امام هذه المرأة التي لا تيأس ابدا ، والتي استطاعت ان تقف معه في احرج الاوقات والظروف ، والتي لم يكن — هو نفسه — في مستوى ما هي عليه من الشجاعة ، وصواب الرأي وحسن التصرف . .

وانتبه من خواطره على صوتها وهي تختتم حديثها قائلة بنفس اللهجة الحماسية :

— . . وليس عليك اذن الا ان تنهي الاجراءات النظامية سواء بالنسبة لالتحاقي بالجامعة او بالنسبة للسماح لك بالبقاء هنا مدة دراستي . . فما رأيك ؟ . .

وقال هشام وهو يمد ذراعيه نحوها :

— رأيي ؟ . . رأيي انني لا اتمنى سوى ان اعرف مم خلقت ايتها المرأة المدهشة . .

فابتسمت وهي تلقي رأسها على صدره :

— لقد قلتها لك من قبل . . لست سوى امرأة بسيطة تحاول ان تكون لائقة بباشمهندس عظيم مثلك . .

— انك . . انك اكثر مما استحق يا هيا . .

— استغفر الله ياباشمهندس . . سأضع الطعام في الحال وبعدها نعقد جلسة غير عادية لاتخاذ الخطوات التنفيذية للخطة . .

— وهو كذلك . .

وشعر هشام بأن جبال الاسى التي اثقلت روحه قد انزاحت ، او كادت ، بسبب ما وهب الله زوجته من امكانات عجيبة تجعلها قادرة على مواجهة الصعوبات بصلابة وثبات دون ان تترك لليأس إلى نفسها سبيلا . . .



لم يشعر هشام بفداحة الخطأ الذي ارتكبه باهماله لدراسته وما ادى اليه ذالك من انهاء لبعثته الا عندما شرع في اتخاذ الاجراءات النظامية تجاه وضعه الجديد كمحرم مرافق لزوجته ليس غير . .

كان عليه ان يسوي الامر مع الملحق التعليمي ، وان يحصل على اذن من رؤسائه في وزارة الدفاع بالرياض على البقاء لمدة سنة في الولايات المتحدة ، وان يسجل اسم زوجته كمبتعثة تتلقى دراسات جامعية في اللغة الانجليزية لدى الملحق التعليمي والجامعة . .

وانتابه شعور بالمهانة وهو يتابع تلك الاجراءات ، ويضطر للسفر إلى نيويورك مرة او مرتين ، إلى ان اتخذ وضعه صورته الحديدة ، فهو لم يعد مبتعثا : زوجته هي المبتعثة ، وهو مجرد مرافق لها . .

واكثر من مرة خامرته الرغبة في العودة إلى المملكة ووضع حد لهذا الاذلال الذي كان يشعر به في قرارة نفسه ، ولكنه كان يقنع نفسه بأنه يدفع ثمن غلطته : وكان حريا به ان يفكر في ذلك حين راح يضيع وقته ، ويهمل زوجته . ويسادر في العبث ما بين الحدائق والمطاعم ودور السينما ، وان اية سلبيات يواجهها هنا هي اقل كثيرا مما يمكن ان يواجهه اذا ما عاد إلى المملكة

فاشلا خاسرا . . . كيف يستطيع ان يرفع عينيه في وجه أبيه واهله ؟ . . كيف يواجه رؤساءه الذين غمروه بمختلف مظاهر الثقة والتقدير ؟ . . كيف يواجه ناصر واباه ؟ . . كيف يواجه زملاءه ؟ . . لا . . لا . . عليه ان يبقى ، وان يتجرع ما يتجرع من شعور الهوان على نطاق ضيق لا يتعداه ، هو نفسه ، بدل ان يواجه ما هو ادهى وامر . .

واستطاع ، بعد بضعة ايام من المعاناة ، ان يطمئن إلى رأيه هذا ، وعاهد نفسه على الا يتكرر ذلك الخطأ مرة اخرى ، وان يتخذ منه درسا يفيد منه ، لكي يحول الخسارة إلى كسب ، والهزيمة إلى انتصار . .

وما كان لفتاة لمّاحة مثل هيا ان تغفل عن هذه الافكار التي تراود ذهن زوجها ، فقد كانت تكاد تلمسها لمس اليد كلما جاء إلى البيت حاملا معه الاوراق والوثائق ليخبرها بما انجز من اجراءات تجاه وضعهما الجديد . .

وحاولت هيا جهدها ان تتحاشى اية كلمة أو اشارة تسيء إلى شعور زوجها ، او تجسم له ما يعنيه الوضع الذي اخذا يعملان متعاونين من اجله . .

كانت تركز حديثها على نفس الاحلام التي عمرت فؤاديهما معا عندما جاءا إلى هذه البلاد ، واملها في ان يحقق هشام النجاح المأمول بعد ان بات عليه ان يعتمد على نفسه في سنته التالية ، وان يبذل اقصى جهده لتحقيق النجاح الذي يعيد اليه اعتباره ، ويحقق ما عقده عليه رؤساؤه واهله ، وقبلهم زوجته ، من آمال . .

وهكذا ، استكمل هشام الاجراءات اللازمة لتسوية الوضع الذي نجم عن اخفاقه ذاك ، واصبح عليه ان يستجمع كل ما آتاه الله من قوة لكي يصحح الخطأ ، ويعيد حياته إلى مسارها الطبيعي . . .

٩٠

اتجهت انظار جميع الطلبة والطالبات إلى الفتاة التي دخلت قاعة المحاضرات وقد ارتدت ثوبا طويلا ، وغطت رأسها بلفة سوداء فلم يظهر منها سوى كفيها ووجهها . .

والقت هيا التحية بصوت خافت ، ثم اتجهت إلى مقعد خال في طرف القاعة ، اتخذت مكانها فيه ، واتجهت بنظرها إلى المدرس العجوز الذي كان يتهيأ للكلام . .

ودار بين الطلبة همس مكتوم ، انتقل بسرعة البرق من واحد إلى آخر ، ومن طالبة إلى اخرى ، وهم يتساءلون جميعا عمن تكون هذه الفتاة التي القت – بمجرد دخولها – نوعا من الهالة احاط بها حتى تهيب أي من الموجودين ان يأتي بحركة او كلمة تنال منها ، كما هي عادة اولئك الشباب في مثل هذه الحالة . .

لقد اقامت ملابس هيا المحتشمة ، الانيقة في نفس الوقت ، وحركاتها الهادئة التي تدل على ثقة بالغة بالنفس ، اقامت جدارا من الاحترام بينها وبين زملائها وزميلاتها ، فكانت نظراتهم اليها تحمل معنى التساؤل والفضول اكثر مما تحمل اي شيء آخر . .

وبطبيعة الحال ، فان مظهر هيا الهادئ الذي فرض وجوده على كل من كان في القاعة ، كان يخفي تحته بركانا ثائرا من التوتر والقلق والخوف . . فهذه التجربة الجديدة التي اضطرت لخوضها من اجل زوجها كانت ابعد ما تكون عن طبيعتها ، وكم كانت تتمنى لو انها كانت – هذه الساعة – في بيتها ، تجلس آمنة مطمئنة ، بعيدا عن هذا التوتر والانفعال اللذين يكادان يمزقان اعصابها . .

وقفز ذهنها اليه . .

إلى هشام الذي بدأ ، مجددا ، معركته بعد ان عاهدها وعاهد نفسه على ان يصحح خطأه ، ويحقق الغاية التي ابتعث من اجلها . .

لقد كان الموقف صعبا عليهما ، معا ، هذا الصباح وهما يخرجان سويا إلى الجامعة . .

كان طوال الطريق صامتا ، يحدق فيما امامه وهو يقود سيارته وهيا إلى جانبه . .

كان يشعر بأنه المسئول عن هذا الموقف الذي وضعت هيا نفسها فيه ، وانه يدفع اليوم ثمن اهماله ولهوه وعبثه في السنة الدراسية المنصرمة . .

وشعرت هيا بما يعتمل في نفسه ، فتنحنحت بطريقة مرحة مصطنعة ، وقالت في هدوء :

— وبعد ياباشمهندس . . الا تزودني بنصائحك الغالية وانا ادخل هذه المرحلة المتقدمة من الدراسة . . انت اقدم مني واكثر خبرة على اية حال . .

وضحك هشام ضحكة قصيرة رغما عنه ، واجابها وقد سرته روحها المعنوية العالية :

— انا انصحك ؟ . . انك قادرة على ان تنصحي قبيلة بأكملها . . انني لا اخاف عليك ابدا . . الخوف هو على من يتعرض لك . .

وضحك الاثنان ، وقد سري عنهما ، فهما يخوضان اليوم معركة مشتركة يجب ان يفوزا فيها كلاهما لكي يستطيعا تحقيق اهدافهما المشتركة . .

وانزلها هشام عند حديقة الكلية بعد ان تواعدا على اللقاء في الكافتيريا في ساعة معينة ، ولوحت له بيدها وقد ارتسمت ابتسامة شجاعة على وجهها ، وظلت تتابعه بنظراتها إلى ان غاب عنها في طريقه إلى كليته . .

وانتبهت هيا من خواطرها على الطلبة وهم ينهضون بعد انتهاء المحاضرة ، ومع انها لم تستوعب منها شيئا يذكر ، الا انها استفادت من تجربة مواجهتها المباشرة مع نمط الحياة الامريكية الجامعية الذي لم تألف مثله من قبل ، وتصورت ان بامكانها اكمال الطريق إلى آخره قياسا على ما مر بها اليوم . .

ونهضت هي الاخرى ، واتجهت نحو باب الخروج تريد ان تبحث عن الكافتيريا التي تواعدت مع هشام على اللقاء فيها ، فاذا بها تلاحظ ان شابا من طلبة الفصل كان يقف قربها متريثا ، ولم تكد تمر امامه حتى لحق بها إلى الممر المؤدي إلى خارج المبنى وعندما حاذاها قال لها بلطف :

— هاي . .

وغاص قلبها بين جنبيها وشعرت بخوف شديد ، فبلعت ريقها بصعوبة واجابت على تحيته بكلمة مماثلة ثم اسرعت خطاها اكثر من ذي قبل ، فأسرع الشاب ، هو الآخر ، محاولا ان يساير خطواتها المتعجلة ، فاختلست النظر اليه ولاحظت مع كثير من السرور ان الشاب لا يقل ارتباكا عنها ، وانه على ما يبدو يبحث عن كلام مناسب يفتتح به حديثه . .

ودق قلب هيا بعنف ، فهي لم تواجه مثل هذا الموقف ابدا من قبل ، وليس في ذهنها ادنى فكرة عن كيفية التصرف تجاهه وراحت تبحث في ذهنها عن الجملة الانجليزية المناسبة التي ستقولها للشاب كي يبتعد عن طريقها . .

ويبدو ان صمت هيا وتعجلها في السير واتجاهها بنظرها إلى الامام ، لا تحيد

به إلى يمين او يسار ، قد زاد في ارتباك الشاب الذي كان اجنبيا مثلها ، وان لم تستطع ان تحدس من اي بلد هو . .

واخيرا تكلم الشاب فقال بانجليزية ركيكة :

– هل . . هل تقبلين دعوتي إلى . . إلى الكافتيريا ؟ . .

– آسفة . . .

فتوقف الشاب عن السير فجأة ، وتسمر في مكانه وراح يتابعها بنظرة ذهول ، وابتسمت هيا ، وتنهدت بارتياح وكأن جبلا قد انزاح عنها ، وتذكرت ما كان هشام قد حدثها به عن تجربته الاولى في هذه البلاد وقالت في نفسها :

– لا ادري . . هل جاء هؤلاء الناس إلى هنا للدراسة ام لمصاحبة بعضهم إلى الكافتيريات ؟ . .

وتنهدت في اسف واستطردت تخاطب نفسها :

– ما كان اغناني عن هذا الموقف ، ياهشام ، لو انك شديت حيلك وانتبهت إلى دراستك . .

وحين وصلت إلى الكافتيريا ، بعد ان سألت اكثر من مرة عن مكانها ، ادارت بصرها في القاعة باحثة عنه ، ولكنها لم تجد احدا ، فعادت تنظر باحثة عن منضدة خالية ، وارتاحت اذ عثرت عليها في مكان قصي ، فاتجهت اليها وهي ترى انظار الموجودين معلقة بها تتابعها في سيرها ، ولكنها لم تكترث بل جلست إلى المنضدة الخالية بكل هدوء ، ووضعت حقيبة يدها وكتبها على المقعد المقابل كيلا يأتي احد ويقحم نفسه عليها بتلك الطريقة اللامبالية ، واسندت

ذقنها إلى كفيها المتشابكين وراحت تنظر إلى ما حولها في شيء من النفور . . فحلقات الشباب والشابات كانت تملأ المكان ضحكا وصخبا ، وكان اكثر ما لفت انتباهها ، وحملها على الابتسام رغما عنها ، انها وجدت صعوبة في تمييز الشبان عن الشابات ، فالشباب قد اطلقوا لشعورهم العنان حتى استطالت كشعور النساء ، والشابات قد ارتدين ملابس كملابس الرجال . .

وهزت رأسها في تعجب ؛ وراحت تتابع تلك المناظر التي بدت لها غريبة ومستهجنة وبعيدة عن المفاهيم التي آمنت بها طول حياتها . .

وانتبهت من تأملاتها على هشام وهو يقترب منها في تعجل ويقول لها فور وصوله :

– آسف . . يبدو انني قد تأخرت قليلا . .

– لا يهم . . . المهم هو كيف كانت دراستك اليوم . .

– الحمد لله . . كل شيء على ما يرام . .

– الحمد لله . .

ونهض هشام متوجها إلى حيث يباع الطعام والشراب في الكافتيريا وعاد حاملا كوبين من الشاي وجلس امام هيا وهو يسألها :

– كيف كان يومك ؟ . .

وابتسمت هيا وقالت وهي تضع السكر في كوبها :

– مثل اول يوم لك في المعهد . . هل تذكر ؟ . .

وابتسم هشام للعبارة وازدادت ابتسامته للذكرى . .

واضافت هيا وهي تبتسم :

ــ على فكرة . . عرض علي شاب ان يصحبني إلى الكافتيريا . .

وضحكت اذ رأت هشام يقطب ويسألها باهتمام :

ــ وبم اجبته ؟ . .

ــ كنت لطيفة جدا معه . . .

ــ لطيفة جدا ؟ . .

ــ اجل . . قلت له آسفة ولم اشأ ان اقول شيئا آخر . .

ــ آه . .

وارتسم الارتياح على وجهه ، وعلقت هيا على ذلك قائلة :

ــ ارأيت ؟ . . كنت تحاول منذ جئنا إلى هذه البلاد اقناعي بالتكيف مع هذا المجتمع الغريب . . وهأنت تشعر بالغضب إذ تعلم ان شابا قد خاطب زوجتك . .

ــ هذا طبيعي . . لو رأيته لكان لي معه شأن . .

ــ الحمد لله . . الحمد لله . . هذه دلائل العافية . . الآن استطيع ان اقول انك قد عدت كما عهدتك دائما . .

ورشف هشام كوبه بسرعة ثم قال لهيا وهو ينهض :

ــ هيا بنا . .

ونهضت هيا في الحال ، فأمسك بذراعها وسار بها إلى احد الابواب الجانبية وهو يحث الخطى . .

لقد رأى جين تدخل من باب آخر وبصحبتها شاب ، واذ لم يكن واثقا كيف ستتصرف الفتاة الامريكية لو رأته ، فقد رأى ان الانسحاب بسرعة هو افضل ما يفعله . . .

٩١

وهكذا راحت هيا تنظر بارتياح شديد إلى سير حياتها مع زوجها بعد أن عاد اليها — حسب تعبيرها — كما كان ، فلقد كان يتفانى في الدراسة بصورة اشفقت هيا معها عليه منها ، ولكنه كان يقول ان هذه هي الطريقة الوحيدة لاصلاح الخطأ الذي ارتكبه ، وان عليه ان يدفع ثمن الوقت الذي اضاعه قبلا ، وان يحصل على الشهادة التي ابتعث من اجلها . .

وكان هشام من جهته صادق العزيمة فيما قاله ، اذ كان لا يزال يشعر بنوع من الخجل من ان يكون مُحتَرَما لزوجته ، وانه تمكن من البقاء في تلك البلاد من اجلها وبسببها ، بعد ان كانت قد جاءت ، هي نفسها ، من اجله وبسببه . .

كان يواجه الواقع بكل قسوته ، على طريقته في محاسبة النفس دون هوادة ولا رفق ، وكان يرى — بالتالي — ان الانصراف إلى الدراسة هو وحده السبيل إلى تصحيح الامور واعادتها إلى نصابها . .

وكان الزوجان قد اتفقا على عدم العودة إلى المملكة في الاجازات الا بعد ان يحصل هشام على شهادته ، فما كان بوسعه ان يواجه اباه واهله بذلك الفشل ، وشاركته هيا الرأي في ذلك . .

وانتظمت حياتهما على ذلك الاساس ، وعادت اليهما الالفة القديمة التي افتقداها في السنة الفائتة ، وكان اهم ما وجهت هيا اليه عنايتها هو حرصها على

بث الثقة والشجاعة في نفس زوجها ، اذ لم يكن يخفي عليها ما يشعر به ، فكان همها ان تشعره بأن شهادته هي الاصل وهي الهدف ، وان دراستها ليست الا لانقاذ الموقف اولا وتمضية الوقت ثانيا . .

وما كان اشد فرحتها واغتباطها حين حقق هشام ظنها به ، وجاءت تقديراته خلال السنة الدراسية ممتازة ومشرفة ، وبلغت هذه الفرحة اوجها عندما تكللت جهودهما – معا – بالنجاح ، وكانت النتائج خير جزاء لما بذلاه ، كلاهما ، من جهد خلال السنة الدراسية . .

وبذلك استطاع هشام ان يسوّي وضعه من جديد ، وان يستعيد صفته كمبتعث ، وساعده الملحق التعليمي في ذلك مساعدة كبيرة بعد ان تأكد له ان الفشل الذي اصيب به هشام انما كان شيئا عابرا . .

ومضت الايام . . . .

٩٢

وجاء يوم كانت الجامعة فيه ترتدي حلة قشيبة من الانوار ومعالم الزينة ، وقد انتشر الطلبة والطالبات واهلهم واصدقائهم في ارجاء احدى الحدائق الواسعة . .

انه يوم التخرج . .

وكان هشام وهيا قد حضرا إلى المكان بدورهما ، فاليوم تحصل هيا على شهادة التخرج في الجونيور كوليج بعد ان أتمت دراستها بنجاح . .

وكانت تفصل بين الزوجين مسافة بعيدة . .

هشام في مقاعد المتفرجين . .

وهيا مع المتخرجين . .

وكان هشام يشعر بسعادة عميقة ، لانه يرى كل شيء على ما يرام ، فزوجته ستتخرج اليوم ، وهو سيتخرج ــ اذا شاء المولى ــ في العام المقبل . . وقد اتخذت حياتهما مسارها الطبيعي منذ ذلك اليوم الذي تفتق فيه ذهن هيا عن فكرتها التي بدأت تؤتي ثمارها اليوم . .

ونظر هشام إلى هيا التي كانت تقف مع عدد كبير من المتخرجين والمتخرجات استعدادا للمسيرة الاكاديمية المعتادة . .

ولوح لها بيده بحركة خفيفة وهو يبتسم ، فأومأت له برأسها وكأنها تشكر له تحيته . .

واذ بدأ الاحتفال ، وسار المتخرجون امام الحاضرين ايذانا بأنهم قد انهوا الدراسات التي اختارها كل منهم ، فوجئ هشام بمرأى دموع غزيرة تنسال على وجه هيا وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة مغتصبة . .

ودهش هشام . . . فهذا يوم فرح . . يوم التخرج . . كيف تبكي هيا في مثل هذا اليوم الذي تجني فيه ثمار ما بذلت من جهد خلال السنتين الفائتتين ؟ . . . اتراها سعادة النجاح التي جاوزت حدها فعبرت عنها هيا بتلك الدموع ؟ . .

والتقت عيناه بعينيها ، وذهل اذ رأى شفتيها ترتجفان في تأثر يوحي بأنها توشك على ان تنفجر في بكاء مسموع . .

وصفق هشام مع المصفقين الذين استقبلوا مسيرة المتخرجين بحماسة وتهليل . .

وراحت هيا تتابع مراسم التخرج كما تقتضيها التقاليد الجامعية وقد خلا وجهها من كل تعبير . .

ولم تستلفت دموعها انتباه احد ، ذلك ان كثيرا سواها من المتخرجات كانت الدموع تلتمع في عيونهن . . أليس الفرح الغامر سببا للبكاء كالحزن الغامر ؟ . .

وحين استقل الزوجان سيارتهما عائدين إلى البيت ، رمت هيا بشهادة التخرج الملفوفة وجلست إلى جانب هشام دون ان تنطق بحرف واحد . .

وقال لها هشام بمودة عميقة :

— الف مبروك ياحبيبتي . .

— شكرا لك . .

وكانت هاتان الكلمتان هما كل ما نطقت به هيا طوال الطريق . .

اما هشام فلم يتوقف عند ذلك كثيرا ، لانه كان مقتنعا بأن فرحة هيا العظيمة هي سبب دموعها ووجومها ، الم تصبح — اليوم — حاملة لشهادة عليا في آداب اللغة الانجليزية ؟ . . الم تصبح الآن تجيد اللغة الانجليزية افضل من كثير من اهلها ؟ . . اذن فمن حقها ان تسمح للدموع بأن تعبر عن فرحتها في هذا اليوم الذي لا ينسى . . .

واذ دخل الاثنان إلى البيت ، تبين لهشام ان هيا لا تحمل الشهادة في يدها فقال باستغراب :

— الله . . فين الشهادة ؟ . .

وردت هيا بعدم اكتراث :

– مدري . . يمكن نسيتها في السيارة . .

– الله يهديكي يا بنت الناس . . حد ينسى شهادته كده ؟ . . انا من بكره راح اعمل لها برواز ونعلقها في صدر الصالون . .

ولم تجب هيا بشيء ، بل تهالكت فوق احد المقاعد وهي تطلق زفرة تعسة . . ونظر اليها هشام بدهشة ثم هز كتفيه ومضى مسرعا إلى السيارة ليحضر الشهادة . .

وما ان عاد حتى تسمر في مكانه مذهولا . .



كانت هيا تنشج في بكاء مكتوم وهي تسند رأسها إلى ركبتيها وقد تصاعدت شهقاتها وكأنما قد عجزت عن السيطرة على نفسها . .

واسرع هشام اليها ، وحاول ان يرفع رأسها المنحني ، ولكنها تشبثت بوضعها كطفلة عنيدة . .

– مالك ياحبيبتي ؟ . . حد يبكي في يوم زي هذا ؟ . .

وهتفت في لوعة وهي مسترسلة في نشيجها :

– انني امرأة فاشلة . . فاشلة . . فاشلة . .

– فاشلة ؟ . . من قال هذا ؟ . . وهذه الشهادة التي حصلت عليها اليوم ؟ . . اليست دليلا على العكس ؟ . .

ورفعت رأسها اليه ، فروعه مرآها وقد ارتسمت على وجهها كل معالم التعاسة والحزن والتفجع . .

ـ مالك يا حبيبتي ؟ . . انا ماني فاهم حاجة . . حصل مني حاجة زعلتك ؟ . . والا فرحة النجاح زادت عندك عن الحد الطبيعي ؟ . .

ـ النجاح ؟ . . أيّ نجاح ؟ . . اما قلت لك انني فاشلة ؟ . .

وبدت على هشام الحيرة . .

ـ انا ماني فاهم حاجة . . ممكن تقولي لي ايش الحكاية ؟ . .

ومسحت دموعها بظاهر كفها ومضت تتكلم في تؤدة ، وشهقات البكاء تقطع كلامها بين الفينة والاخرى . :

ـ لقد جئنا إلى هذا المكان من اجلك انت . . لا من اجلي . . من اجل ان تحصل على الشهادة المنشودة . . وماخطرت لي فكرة الدراسة ، بادئ الامر ، الا على سبيل التسلية وتمضية الوقت . . ثم حصل ما حصل بيننا من خلافات . . لا يهمني ان احدد من كان المسئول عنها . . ولكنني كنت الاحظ التحول الذي طرأ عليك . . وانصرافك عن الدراسة بتلك الصورة التي ادت إلى الغاء بعثتك .. هنا يكمن فشلي .. هنا ... لانني لم اكن غافلة عن ذلك التحول .. وبذلت اقصى مجهود استطعته لكي ابدو لك وكأنني لم الاحظ شيئا . . كنت اخاف على حياتنا الزوجية من ان يعصف بها الخلاف بعد ان اصبح هذا الخلاف يدب لاتفه الاسباب . . كنت اريد ان تسير في طريقك ذاك إلى منتهاه اعتقادا مني انك لا تلبث ان تعرف انه خاطئ فتعود إلى الطريق الصحيح . . لم احسب حساب الغاء البعثة واضطراري ، من ثم ، إلى الالتحاق بالدراسة لكي تتمكن من مواصلة دراستك . . اليوم بدا لي مقدار فشلي . . انت في صفوف المتفرجين وانا في صفوف المتخرجين . . وضع خاطئ كان يجب ان يحدث عكسه . . ولو انني حاولت ان اوجه انتباهك إلى الطريق الذي كنت تسير فيه فلربما استطعت ان افعل شيئا . . ان اساعدك على تقويم الخطأ عند وقوعه . .

اما ان اسكت وادعك ترتكب ذلك الخطأ وانا اتفرج فهذه نتيجته . . . ثق يا هشام انه لا توجد في الدنيا ، هذا اليوم ، امرأة اتعس مني . . الشهادة ؟ . . مالي ولها ؟ . . انا جئت من اجل شهادتك انت . . هل فهمت الآن ؟ . .

وعادت هيا تلقي رأسها على ركبتيها وهي تبكي في حرقة ، وهشام ينظر لها بذهول شديد . .

لقد صورت المسألة تصويرا دقيقا ، ورمت مسئولية فشله على عاتقها . . هذه هي طريقتها ، دائما ، في النظر إلى الامور نظرة مجردة . .

واحس هشام بأذنيه تكادان تلتهبان بدماء الخجل التي تصاعدت إلى رأسه ، فلقد بدا له خطأه ، وسوء تصرفه ، بوضوح مابعده وضوح . . وتعلم — مرة اخرى — من هذه الفتاة شيئا جديدا . . انها تواجه الحقائق بكل شجاعة . . وبكل ما في هذه الحقائق من اسباب جعلتها تنحي باللائمة على نفسها في خطأ ارتكبه هو . .

وراح يمسح بكفه على شعرها وهو يتكلم :

— هيا . . ياشريكة العمر . . انني افهم ، واقدر ، كل كلمة قلتيها . . ان روحك العظيمة هي التي جعلتك تتحملين خطأ لا ذنب لك فيه . . انا الذي اخطأ . . وانت التي دفعت الثمن . . ولكننا تعاهدنا على ان نتناسى هذا . . وان ننصرف بقوة وعزيمة إلى هدفنا . . واحسب انني قد قدمت لك الدليل على انني استفدت من ذلك الدرس . . وان هي الا سنة حتى اتخرج ، باذن الله ، فأكون قد صححت الخطأ كاملا . .

ورفعت اليه عينيها اللتين كانت الدموع تلتمع فيهما ، واشرق وجهها بابتسامة سعيدة ثم القت بنفسها على صدره في استكانة وادعة وهي تهمس :

— باذن الله . . باذن الله ياحبيبي . .

الخاتمة

اليوم الموعود . .

الجامعة ترتدي حلتها المألوفة من الانوار والزينات في مثل هذه المناسبة التي كانت تعيشها ذلك اليوم . .

انه يوم التخرج . .

الطلبة والطالبات ، واهلهم واصدقاؤهم قد انتشروا في ارجاء الحديقة الواسعة . .

وهيا بين صفوف المتفرجين تتوثب الفرحة في اضلعها ، وتطل سعادة غامرة من عينيها . .

فاليوم يحصل هشام على الماجستير ، بعد ان اتم دراساته بنجاح . .

انه يقف بين المتخرجين وقد ارتدى اللباس الجامعي وهو يبحث بعينيه عن زوجته بين صفوف الحضور . .

وتبدأ المسيرة الاكاديمية ويسير المتخرجون في صف طويل وقد اعلن الحاضرون فرحتهم بالتصفيق . .

وتركز هيا عينيها على هشام وقد سار في الصف . .

ويقترب هشام من مكانها حيث جلست في الصف الاول فيرى دموعا تنسال على خديها . .

ويهمس لها وهو يبتسم :

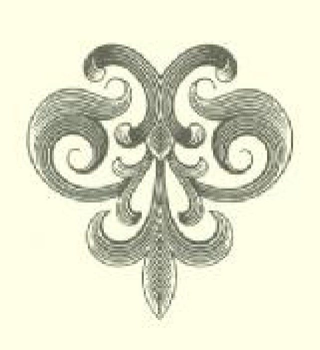
ـ الدموع ؟ . . تاني ؟ . .

وتهمس دون ان تحاول ان تتمالك نفسها :

ـ انها . . انها دموع الفرح يا هشام . . دموع الفرح . .

وتخفي وجهها بين كفيها في سعادة . .

وتواصل جموع الطلاب مسيرة التخرج . . وهشام بينهم . . .



للمؤلف :

- الجيولوجيا الاقتصادية (الطبعة الثانية) .
- المعادلة الحرجة .
- نظرات علمية حول غزو الفضاء .
- اليد السفلى – مجموعة قصصية .
- الأطباق الطائرة – حقيقة أم خيال .
- فتاة من حائل (رواية سعودية) .



المطابع الأهلية للأوفست
الرياض . شارع عمر بن الخطاب
ص . ب ٢٩٥٧